

المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد



٦٨٤

المسائل
التي خالف فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم
أهل الجاهلية

للإمام محمد بن عبد الوهاب
١١١٥ - ١٢٠٦ هـ

تحقيق
د/ يوسف بن محمد السعيد
الأستاذ المشارك بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
بكلية أصول الدين بالرياض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمدُ للهِ الَّذي هدانا لِلدِّين المُبينِ ، وأنارَ لَنا الصِّراطَ المُسْتَقيمَ بأوضحِ البَراهينِ ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سَيِّدِ الأوَّلينَ والآخِرينَ ، الذي أنقَذَ بشريعتِهِ الغراءِ مِنْ جهلِ الجاهِلينَ ، وعلى آلِهِ وأصحابِهِ الغُرِّ المَيامينِ ، الذينَ جاهَدوا في اللهِ حتَّى أتاهُمُ اليَقينُ.

أمَّا بَعْدُ:

فيقولُ العبدُ المُفتَقِرُ إلى عفوِ اللهِ وغُفرانِهِ: محمود شُكري الألوسيُّ البغداديُّ ـ كان اللهُ تعالى له وأحْسَنَ عَمَلَهُ ، وَأنالَهُ مِنَ الخيرِ أمَلَهُ[1] ـ: إنِّي وَقَفْتُ على رسالةٍ صغيرةِ الحَجْمِ ، كثيرة الفوائِدِ ، تشتملُ على نحوِ مائةِ مسألةٍ مِنَ المسائِلِ الَّتي خالَفَ فيها رسولُ اللهِ ﷺ أهلَ الجاهِلِيَّـةِ مِنَ الأمِّيِّيْنَ والكتابِيِّـيْنَ ، وهي أُمورٌ ابتدَعوها ما أنـزَلَ اللهُ بها مِنْ سلطانٍ ، ولا أُخِذَتْ عن نبِيٍّ من النَّبِيِّينَ ، ألَّفَها الإمامُ العالِمُ العلاَّمةُ ، والقُدوةُ الفهَّامةُ[2] ، مُحيي السُّنَّـةِ السَّنِيَّـةِ[3] ، ومُجَـدِّدُ الشَّريعةِ النَّبَوِيَّـةِ ، مُحَـدِّثُ عَصـرِهِ ، وحافِظُ دهـرِهِ ، تذكرةُ السَّلفِ ، وعُمْدةُ الخَلَفِ[4] ، أبو عبدِ اللهِ محمَّدُ بنُ

(١) «وأناله من الخير أمله» ليست في المطبوع.

(٢) «العالم. . . الفهامة» ليست في المطبوع.

(٣) «السنية» ليست في المطبوع.

(٤) «محدث. . . الخلف» ليست في المطبوع.

عبدِ الوهَّابِ النَّجديُّ الحنبليُّ ـ تَغَمَّدَهُ اللهُ تعالى بِرحمتِهِ ، وأسْكَنَهُ فَسيحَ جَـنَّتِهِ[١] .

بَيْدَ أنَّ مسائلَ تلكَ الرِّسالةِ[٢] في غايةِ الإيجازِ ، بَلْ كادتْ تُعَدُّ من قَبيلِ الألغازِ ، قد عَبَّرَ عن كثيرٍ منها بِعبارةٍ مُجْمَلَةٍ ، وَأتَىٰ فيها بدلائلَ ليست مشروحةً وَلا مُفَصَّلَةً ، حتىٰ إنَّ مَنْ يَـنْـظُـرُها يظنُّ أنها فهرسُ كتابٍ ، قد عُدَّت فيه المسائل من غيرِ فُصولٍ ولا أبوابٍ ، ولاشتمالِها على تِلْكَ المسائِلِ المُهِمَّةِ ، الآخِذَةِ بِيَدِ المُتَمَسِّكِ بِها إلىٰ منازِلِ الرَّحْمَةِ ، أحببتُ أنْ أُعَلِّقَ عليها شَرحاً يُفَصِّلُ مُجْمَلَها ، ويكْشِفُ مُعْضَلَها ، مِنْ غيرِ إيجازٍ مُخِلٍّ ، ولا إطنابٍ مُمِلٍّ ، مُقْتَصِراً فيه على أوضحِ الأقاويلِ[٣] ، ومُبَيِّناً ما أورَدَهُ مِنْ بُرهانٍ ودليلٍ ، عَسى اللهُ أنْ يَنْفَعَ بِذلكَ المُسْلِمينَ ، وَيَهْدِيَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِن عِبادِهِ المُتَّقينَ ، فَيكونَ سَبَباً للثَّوابِ ، والفوزِ يومَ العرضِ والحِسابِ ، والأمنِ مِن أليم العَذابِ ، وما تَوفيقي إلاَّ باللهِ ، عَليه تَوكَّلْتُ وإليه أُنِيبُ .

---

(١) «وأسكنه فسيح جنته» ليست في المطبوع .

(٢) في المطبوع «فرأيتها» .

(٣) في المطبوع «الأقوال» .

قَالَ المُصَنِّفُ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعالى[1] ـ

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ[2]

هذهِ مَسائِلُ خالفَ فيها رسولُ اللهِ ﷺ مَا عَلَيهِ أهلُ الجاهِلِيَّةِ الكِتابِيِّيْنَ والأُمِّيِّيْنَ ، مِمَّا لا غِناء لمُسْلِمٍ عَن مَعْرِفَتِها .

والضِّـدُّ[3] يُظْهِـرُ حُسْنَـهُ الضِّـدُّ   وَبِضِـدِّهـا تَـتَـبَـيَّـنُ الأشْيـاءُ[4]

---

(١) في المطبوع «رحمة الله ـ تعالى ـ عليه».

(٢) في المطبوع قدمت البسملة على قوله: «قال المصنف . . .».

(٣) في المطبوع «فالضد».

(٤) هذا البيت مركب من شطرين ، فالشطر الأول منه عجز بيت في قصيدة طويلة ، وصدره:

ضدان لما استجمعا حسنا

وقد اختلف في قائلها ، فقد نسبت إلى أكثر من أربعين شاعراً ، فقيل: إنها لشاعر جاهلي ، ولم يذكر من هو ، وقيل: إنها لذي الرُّمَّةِ ، وقيل: لدوقلة المنبجي، وقيل: لأبي نواس، وقيل: لأبي الشيص الخزاعي، وقيل: لعلي بن جبلة.

انظر: «التبيان في شرح الديوان» للعكبري (١/ ٢٢) ، «شرح الديوان» للواحدي (١/ ١٩٧).

وأقرب هؤلاء للصحة اثنان هما: أبو الشيص الخزاعي ، وهو في ديوانه الذي جمعه عبد الله الجبوري (ص ١١٧) وللجبوري بحث قيم في إثبات نسبة القصيدة لأبي الشيص.

والثاني هو علي بن جبلة ، وهو في ديوانه الذي جمعه زكي ذاكر (٩٦ ـ ١٠٢) ، وفي ديوانه الذي جمعه د. حسين عطوان (١١٥ ـ ١١٩) ، وفي ديوانه الذي جمعه ضيف الجنابي (١٠٨ ـ ١١٤). =

وَأَهَمُّ ما فيها وَأَشَدُّهُ خَطَراً ، عَدَم إيمانِ القَلْبِ بِما جاءَ به الرَّسولُ ﷺ ، فَإِنِ انْضافَ إلى ذلكَ اسْتِحْسانُ دِينِ الجاهِلِيَّةِ والإيمانُ بِهِ ، تَمَّتِ الخَسارةُ والعياذُ باللهِ ـ تعالى ـ كما قال ـ عَزَّ ذكرُه ـ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

* * *

= ولعل القصيدة له؛ لأنه كندي ، وقدجاء في القصيدة الافتخار بكندة حيث قال:

الجـد كنـدة والبنـون هُـمُ فـزكـا البنـون وأنجـب الجـد

وأما الشطر الثاني ، فهو للمتنبي في قصيدة له ، والبيت هو:

ونـذيمهـم وبـه عـرفنـا فضلهـم وبضـدهـا تتبيـن الأشيـاء

«ديوان المتنبي» (ص ١٢٧).

(١) العنكبوت: (٥٢).

المسألة الأولى

أنَّهم يَـتَعَبَّدونَ بِإشْراكِ الصَّالِحينَ في عَبادةِ اللهِ[(١)] ـ تَعَالى ـ وَيَرَوْنَ ذلكَ مِنْ تَـعْظِيمِ الصَّالِحينَ الذي يُحِبُّـهُ اللهُ ، ويُريـدونَ ـ أيضاً[(٢)] ـ بِذلـكَ شَفاعتَهم[(٣)] ؛ لِظَنِّهِم أنَّهم يُحِبُّونَ ذلكَ :

كَما قالَ ـ تعالى ـ في أوائلِ «الزُّمَرِ» : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ ﴾[(٤)] .

وقالَ ـ تَعالى ـ : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾[(٥)] .

وهذِه أعظمُ مسألةٍ خالَفَهم فيها رَسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم ، فَأتى بالإخلاصِ ، وأخْبَرَهم أنَّـه دِينُ اللهِ الذي لا يُـقْبَـلُ مِنْ أَحَدٍ سِواهُ ،

(١) في المطبوع «في دعاء الله ـ تعالى ـ وعبادته» ، وهو موافق لبعض النسخ الخطية لمتن المسائل ، وما أثبته موافق ـ أيضاً ـ لنسخ أخرى .

(٢) «أيضاً» ساقطة من المطبوع .

(٣) في المطبوع «شفاعتهم عند الله» .

(٤) الزمر : (٢ ، ٣) .

(٥) يونس : (١٨) .

وأنَّ(١) مَنْ فَعَلَ ما استَحْسَنوا(٢) ، حَرَّمَ اللهُ عليه الجَنَّةَ ومأواهُ النَّارُ.

وهذه المسألةُ هي الدِّيْنُ كُلُّهُ ، وَلأَجْلِها تَفَرَّقَ النَّاسُ بينَ مسلمٍ وكافِرٍ ، وعندَها وَقَعَتِ العَداوةُ ، ولأجلِها شُرِعَ الجِهادُ؛ كما قال ـ تَعالى ـ في «البَقَرَةِ» : ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ ﴾(٣).

* * *

---

(١) في المطبوع: «وأخبر أن».

(٢) في المطبوع «ما يستحسنونه فقد».

(٣) البقرة: (١٩٣) ، وفي المخطوط ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ ، وهذه آية «الأنفال» وليست آية البقرة.

الثانية

أنَّهم مُتفَرِّقونَ ، ويَرَوْنَ السَّمْعَ والطَّاعة مَهانَةً ورَذالةً ، فأَمَرَهُمُ اللهُ بالاجتِماع ، ونَهاهُم عَن التَّفْرِقة :

فقالَ ـ عزَّ ذكرُه ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[1].

يُقالُ: أرادَ ـ سُبحانه ـ بما ذُكَرَ ما كانَ بين الأوسِ[2] والخَزْرَجِ[3] مِنَ الحُروبِ التي تَطَاوَلَت مِائةً وعِشرينَ سَنَةً ، إلى أنْ أَلَّفَ ـ سُبحانَه ـ بينهم بالإسلامِ ، فَزالتِ الأحقادُ. قاله ابنُ إسحاقَ[4].

---

(١) آل عمران: (١٠٢ ، ١٠٣).

(٢) هم بنو الأوس بن حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن مزيقيا ، إحدى قبائل الأنصار ، وكان لهم ـ مع الخزرج ـ ملك يثرب ، فلما جاء الإسلام ، كانوا لرسول الله ﷺ أنصاراً.
انظر: «النسب» لأبي عبيد (ص ٢٧٠ ـ ٢٧٧) ، «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم (ص ٣٣٢ ـ ٣٤٦) ، «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب» (ص ٩٥).

(٣) هم بنو الخزرج أخي الأوس بن حارثة ، وكانوا في يثرب كالأوس قبل الإسلام وبعده.
انظر: «النسب» (ص ٢٧٧ ـ ٢٨٧) ، «جمهرة أنساب العرب» (ص ٣٤٦ ـ ٣٦٦) ، «نهاية الأرب» (ص ٦٠).

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٤/ ٣٣).

وكان يومُ بُعاث[1] آخِرَ الحُروبِ التي جَرَت بينهم.

وقد فُصِّلَ ذلكَ في «الكامِلِ»[2].

ومِن النَّاسِ مَن يقولُ: أراد ما كان بَيْنَ مُشركي العَرَبِ مِنَ التَّنازُعِ الطَّويلِ والقِتالِ العريضِ، ومنه حربُ البَسوسِ[3]، كما نُقِلَ عن الحَسَنِ[4] ـ رضي الله تعالى عنه ـ.

وقالَ ـ تعالى ـ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾[5]. . . .

إلى غير ذلكَ من الآياتِ النَّاصَّةِ على النَّهيِ عنِ الاستبدادِ والتَّفَرُّقِ وعَدَمِ الانقيادِ والطَّاعة مِمَّا كانَ عليه أهلُ الجاهِلِيَّـةِ.

* * *

---

(١) يوم بعاث من الأيام التي جرت بين الأوس والخزرج، وكان في أوله للخزرج، ثم ظفرت بهم الأوس، فكادوا يبيدون خضراءهم.
انظر: «أيام العرب في الجاهلية» (ص ٧٣ ـ ٨٤).

(٢) انظر: «الكامل في التاريخ» لابن الأثير (١/ ٣١٢) وما بعدها.

(٣) حرب البسوس من الحروب التي جرت بين بكر وتغلب ابني وائل، وهي أطول حروب العرب، حيث مكثت أربعين سنة، وسببها بغي كليب بن ربيعة.
انظر في شأنها: «أيام العرب قبل الإسلام» لأبي عبيدة معمر بن المثنى (ص ١٦٥ ـ ١٧٠)، «الكامل في التاريخ» (١/ ٣١٢)، «شرح المفضليات» لابن الأنباري (ص ٤٤١)، «العقد الفريد» (٥/ ٣١٣)، «مجمع الأمثال» للميداني (١/ ٣٧٧)، «خزانة الأدب» للبغدادي (١/ ٣٠١)، «أيام العرب في الجاهلية» (ص ١٤٣ ـ ١٦٨).

(٤) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ٤٣٣).

(٥) التغابن: (١٦).

الثالثة

أنَّ مُخالَفَةَ وليِّ الأمْرِ ، وعَدمَ الانقيادِ له ـ عندهم ـ فضيلةٌ ، وبعضُهم يجعلُه دِيْناً ، فخالفهم النَّبيُّ ﷺ في ذلك ، وأمَرَهم بالصَّبْرِ على جَوْرِ الوُلاةِ والسَّمعِ والطَّاعةِ والنَّصيحةِ لَهُمْ ، وغَلَّظ في ذلكَ ، وأبدى وأعادَ.

وهذه الثلاثُ هي التي وَرَدَ فيها ما في الصَّحيح عنه ﷺ: «يرضى لكم ثلاثاً: أن تعبدوه ولا تُشْرِكوا به شَيئاً ، وأنْ تَعْتَصِموا بِحَبْلِ اللهِ جَميعاً ، وأن تُناصِحوا مَنْ وَلاَّهُ اللهُ أمرَكُم»[1].

وروى البُخاريُّ عنِ ابنِ عبَّاس عن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَن كَرِهَ مِنْ أميرِه شَيئاً ، فلْيَصْبِرْ ، فإنه مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلطانِ شِبْراً ، ماتَ مِيْتَةً جاهليَّةً»[2].

وَرَوى ـ أيضاً ـ عن جُنادةَ بـنِ أبي أُميَّة ، قال: دَخلنا على عُبادةَ بـنِ الصَّامِتِ وهو مريضٌ ، فَقُلنا: أصْلَحَكَ الله ، حَدِّثْ بِحَديثٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِن رسولِ اللهِ ﷺ.

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» ـ كتاب الأقضية ـ باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة... (٣/ ١٣٤٠) ح ١٧١٥.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الفتن ـ باب قول النبي ﷺ: «سترون بعدي أموراً تنكرونها» (٨/ ٨٧) ، ومسلم في «صحيحه» ـ كتاب الإمارة ـ باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين بعد ظهور الفتن وفي كل حال ، وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة ـ (٣/ ١٤٧٧) ح ١٨٤٩.

قالَ: «دَعانا النَّبيُّ ﷺ فَبايَعَنا ، فكان[1] فيما أَخَذَ عَلَينا: أنْ بايَعَنا على السَّمْعِ والطَّاعَةِ في مَنْشَطِنا ومَكْرَهِنا وَعُسْرِنا وَيُسْرِنا وأثَرَةٍ علينا ، وأنْ لا نُنازِعَ الأمرَ أهلَهُ؛ إلا أن تَرَوا كُفْراً بَواحاً عندكم من الله فيه برهانٌ»[2].

والأحاديثُ الصَّحيحةُ في هذا البابِ كثيرةٌ ، ولم يقعْ خَلَلٌ في دِينِ النَّاسِ أو دُنْياهُم إلاَّ من الإخلالِ بهذهِ الوَصيَّةِ.

* * *

---

(١) في المخطوط «فقال».

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الفتن ـ باب قول النبي ﷺ: «إنكم سترون بعدي أموراً تنكرونها» ـ (٨/ ٨٧) ، ومسلم في «صحيحه» كتاب الإمارة ـ باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية ، وتحريمها في المعصية ـ (٣/ ١٤٧٠) ح ١٧٠٩.

الرابعة

أنَّ دِينَهم مَبْنيٌّ على أُصولٍ: أعْظَمُها التَّقليدُ ، فهوَ القاعدةُ الكُبرى لِجَميعِ الكُفَّارِ مِنَ الأوَّلين والآخِرين:

كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[1].

فأَمَرَهُمُ اللهُ ـ تعالى ـ بقوله: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

وقالَ ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ، قال: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾[3].

إلى غير ذَلِكَ مِمَّا يَدُلُّ عَلى أنَّ أهلَ الجاهِلِيَّةِ كانوا في رِبْقَةِ التَّقليدِ ، لا يُحَكِّمونَ لَهم رَأياً ، ولاَ يُشْغِلُونَ فِكراً؛ فَلِذَٰلِكَ تاهوا في أودِيَةِ الجَهالَةِ. وهكذا كُلُّ مَنْ سَلَكَ مَسْلَكَهُم في أيِّ عصرٍ كانَ.

* * *

---

(١) الزخرف: (٢٣ ـ ٢٤).
(٢) الأعراف: (٣).
(٣) البقرة: (١٧٠).

الخامسة

الاقتِداءُ بِفَسَقَةِ أهلِ العِلْمِ وجُهَّالِهِم وعُبَّادِهِم:

فَحَذَّرَهُم اللهُ ـ تَعالى ـ مِنْ ذلكَ بقولِهِ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ ﴾[1].

وقالَ ـ تعالى ـ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[2].

إلى آيات أُخَرَ تُنادي بِبُطْلانِ الاقْتِدَاءِ بالفُسَّاقِ وَأَهْلِ الضَّلالَةِ والغَيِّ، وذلكَ مِنْ سَنَنِ الجاهِلِيَّةِ وطرائِقِهِمُ المِعْوَجَّة.

* * *

(١) التوبة: (٣٤).

(٢) المائدة: (٧٧).

السادسة

الاحتِجاجُ بِما كانَ عليه أهلُ القرونِ السَّالِفَةِ ، مِنْ غَيرِ تَحكيمِ العَقْلِ ، والأَخْذِ بِالدَّليلِ الصَّحيح .

وقد أَبْطَلَ اللهُ ـ تعالى ـ ذلكَ بِقولِهِ في «طه» : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ۝٤٩ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ۝٥٢ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ﴾[1] . . . إلخ .

وقـالَ ـ تعالى ـ فـي « القَصَصِ » : ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٣٦ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[2] .

وَقَالَ ـ عَزَّ ذكرُه في سورةِ «المؤمنينَ» : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٢٣ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ۝٢٤ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾[3] .

---

(١) طه : (٤٩ ـ ٥٤) .

(٢) القصص : (٣٦ ـ ٣٧) .

(٣) المؤمنون : (٢٣ ـ ٢٥) .

وقالَ ـ تَعالى ـ في «صٓ»: ﴿ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَـٰقٌ ﴾[1].

فَجَعَلوا مَدارَ احْتِجاجِهِم على عَدم قَبولِ ما جاءَت بِهِ الرُّسُلُ: أنَّه لم يَكُنْ عليهِ أسْلافُهُم، وَلا عَرَفوه مِنْهم، فانْظُرْ إلى سُوءِ مَدارِكِهِم، وَجُمودِ قرائِحِهِم، وَلَوْ كانَت لَهُم أعينٌ يُبْصِرونَ بِها، وآذانٌ يَسمَعون بها، لَعَرَفوا الحَقَّ بدليلِهِ، وانْقادوا لليَقينِ مِن غيرِ تَعْليلِهِ، وهَكَذَا أخلافُهُم وَوُرَّاثُهُم، قَدْ تَشَابَهت قُلوبُهُم.

* * *

(١) صٓ: (٦ ـ ٧).

السابعة

الاعْتِمادُ عَلى الكَثْرَةِ ، والاحْتِجاجُ بالسَّوادِ الأَعْظَمِ ، والاحْتِجاجُ عَلى بُطْلان الشَّيءِ بِقِلَّةِ أهلِهِ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ـ تَعالى ـ ضِدَّ ذلكَ وما يُبْطِلُهُ ، فَقال في «الأنعام» : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝١١٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[1] .

فالكثرةُ على خِلاف الحَقِّ لا تَسْتَوْجِبُ العُدولَ عَنْ اتِّباعِهِ لِمَنْ كانَ لَهُ بَصيرةٌ وَقَلبٌ ، فالحقُّ أحَقُّ بالاتِّباع ، وإن قَلَّ أنْصارُهُ ؛ كما قال ـ تعالى ـ : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْۗ ﴾[2] ، فأخْبَرَ اللهُ عن أهلِ الحَقِّ أنَّهم قليلٌ ، غيرَ أنَّ القِلَّةَ لا تَضرُّهُمْ :

تُـعَيِّـرُنـا أنّـا قِليـلٌ عَـدِيـدُنـا ... فَقُلْـتُ لَهـا : إنَّ الكِـرامَ قَلِيـلُ[3]

---

(١) الأنعام : (١١٦ ـ ١١٧) .

(٢) صۤ : (٢٤) .

(٣) البيت للشاعر اليهودي السموءل بن غريض بن عادياء الأزدي ، كما في ديوانه (ص ١٣) ، وذكرها القالي في «أماليه» (١/ ٢٦٩) ، والعباسي في «معاهد التنصيص» (١/ ٣٨٣) .

فالمقصودُ أنَّ مَن لَهُ بَصيرةٌ ينظرُ إلى الدَّليلِ ، ويأخذُ ما يَسْتَنْتِجُهُ البُرهانُ ، وإنْ قَلَّ العارِفُونَ بِهِ ، المنْقادونَ لهُ.

ومن أخَذَ ما عَليه الأكثرُ وما ألِفَتْهُ العامَّةُ من غيرِ نظرِ الدليلِ فهو مخطىءٌ ، سالكٌ سبيلَ الجاهليَّةِ ، مقدوحٌ عند أهلِ البصائرِ.

* * *

الثامنة

الاستدلالُ على بطلان الشيء بكونه غريباً ، فردَّ اللهُ ـ تعالى ـ ذلك بقوله في «هود» : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾[1] .

ومعنى الآيةِ : ﴿ فَلَوْلَا كَانَ ﴾ تحضيضٌ فيه معنى التفجع ، أي : فهلا كان ﴿ مِنَ ٱلْقُرُونِ ﴾ ، أي : الأقوامِ المقتربة في زمان واحد ﴿ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ ﴾ ، أي : ذوو خصلةٍ باقيةٍ من الرأي والعقلِ ، أو ذَوو فضلٍ ، على أن يكون البقيةُ اسماً للفضل ، والهاءُ للنقل ، ومِن هنا يقال : فلانٌ من بقيةِ القومِ ، أي : من خيارهم ، ومنه قولُهم : «في الزوايا خبايا ، وفي الرجال بقايا» ، ﴿ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ الواقع فيما بينهم حسبما ذكر في قصصهم ، وفُسر الفسادُ بالكفر وما اقترنَ به من المعاصي ، ﴿ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ﴾ استثناءٌ منقطعٌ ، أي : وَلٰكِن قَليلاً ممَّن أنْجَيناهُمْ ؛ لِكَونِهِم كانوا ينهون[2] .

* * *

(١) هود : (١١٦) .

(٢) انظر : «روح المعاني» (١٢/ ١٦٠ ـ ١٦٢) .

التاسعة

الاسْتِدلالُ على المطلوبِ ، والاحتجاجُ بِقومٍ أُعْطوا مِن القُوَّةِ في الفَهْمِ والإدراكِ ، وفي القُدْرَةِ والمُلكِ؛ ظَنّاً أنَّ ذلكَ يَمْنَعُهُم من الضَّلالِ.

فَرَدَّ اللهُ ـ تَعالى ـ ذلك عليهم بقوله ـ سبحانه ـ في «الأحقافِ»: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[1].

وَمَعْنى الآيةِ: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ﴾ أي: قَوَّيْنا[2] عاداً وأَقْدَرْناهُمْ.

و«ما» في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ موصولةٌ أو موصوفةٌ، و«إنْ» نافيةٌ ، أيْ: في الَّذي، أو في شيءٍ ما مَكَّنّاكم فيه من السَّعَةِ والبَسْطَةِ وطُولِ الأعمارِ وسائرِ مَبادِي التَّصَرُّفاتِ؛ كما في قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ[3] أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ﴾[4] ، ولم يَكن النَّفيُ بلفظِ «ما» كراهةً لِتكريرِ اللَّفظِ ، وإنِ اخْتَلَفَ المَعْنى ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ لِيَسْتَعْمِلوها فِيما خُلِقَتْ لَهُ ، وَيَعْرِفوا

---

(١) الأحقاف: (٢٤ ـ ٢٦).

(٢) في المخطوطة «قرونا».

(٣) في المخطوطة «وكم» وهو خطأ.

(٤) الأنعام: (٦).

بِكُلٍّ[1] مِنْها ما نِيطَت بِهِ مَعْرِفَتُهُ مِن فُنونِ النِّعَمِ ، وَيُسْتَدَلُّ بِها على شُؤُونِ مُنْعِمِها ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ، وَيداوموا على شُكْرِهِ ـ جَلَّ ثَناؤُه ـ .

﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ ﴾ حَيْثُ لم يَسْتَعْمِلوه في اسْتِماعِ الوحي ومواعظِ الرُّسلِ ، ﴿ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ ﴾ حيثُ لم يَجْتَلوا بِها الآياتِ الكونِيَّةَ المَرسُومةَ في صحائفِ الأعمالِ ، ﴿ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم ﴾ حَيثُ لم يَسْتَعْمِلوها في معرفةِ اللهِ ـ تَعالى ـ ﴿ مِّن شَىْءٍ ﴾ أيْ: شيئاً من الأشياء[2] ، و«مِن» مَزيدَةٌ للتَّوكيدِ، وقولُه: ﴿ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ تَعليلٌ للنَّفي .

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ مِـن العـذابِ الذي كانـوا يَسْتَعجِلونَهُ بطريقِ الاستهزاءِ ، ويقُولونَ: ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

فَهذِهِ الآيةُ تُبْطِلُ الاحْتِجاجَ بقومٍ أُعْطُوا مِن القُوَّةِ في الفهمِ والإدراكِ وفي القدرةِ والملكِ؛ ظَنّاً أنَّ ذلكَ يَمْنَعُهُم مِنَ الضَّلالِ .

ألا تَرى أنَّ قومَ عادٍ ـ لما أخْبَرَ عنهم التَّنزيلُ ـ كانوا مِنَ القُوَّةِ والبَسْطَةِ في الأموالِ والأبدانِ والإدْراكِ وسَعَةِ الأذْهَانِ وغيرِ ذلك ما لم يَكن مِثْلُهُ لِلعربِ الذينَ أدركوا الإسلامَ ، وَمَعَ ذلكَ ضَلُّوا عن سواءِ السَّبيلِ ، وَكَذَّبوا الرُّسُلَ بالأباطيلِ، فالتَّوفيقُ للإيمانِ باللهِ ورسلِه، والإذعانِ لِلْحَقِّ، وسُلوكِ سُبُلِهِ ، إنَّما هو فَضْلٌ مِنَ اللهِ ـ تَعالى ـ لا لكَثْرةِ مالٍ ولا لِحُسْنِ حالٍ، وَمَنْ يَرُدَّ الحَقَّ ويَسْتَدِلَّ بِكونِ مَن هو أحسنُ حالاً مِنْهُ لم يقبلْهُ، ولم يُحَكِّم عقلَه، وَيَتَّبِعْ ما يوصِلُ إليه الدليلُ، فقد سَلَكَ سبيلَ الجاهِلِيَّةِ، وحادَ عن الحُجَّةِ المَرْضِيَّةِ .

ومِثْلُ هذه الآيةِ: قولُه ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3] .

---

(١) في المطبوع «لكل».

(٢) في المخطوطة «الأعباء».

(٣) البقرة: (٨٩).

كانَ اليَهودُ يَعْلَمونَ مِنْ كُتُبِهِم رسالةَ محمَّدٍ ﷺ ، وأنَّ اللهَ سَيُرْسِلُ نبيّاً كَرِيماً من العَرَبِ ، وكانوا مِن قبلُ يَسْتَفْتِحونَ على المُشرِكينَ ببعثتهِ ، وَيقُولونَ: يا ربَّنا أرْسِلِ النَّبيَّ الموعودَ إرسالُه؛ حتَّى نَنتصرَ على الأعداءِ ، فلَمَّا جاءَهُم ما عَرَفوا ، وهو محمَّدٌ ﷺ ، كَفَروا بِهِ؛ حَسَداً منهم أنْ تكونَ النُّبُوَّةُ في العربِ ، وهم ـ بزعمِهِم ـ أحسنُ أثاثاً ورِئياً ، ولم يَعْلموا أنَّ النُّبُوَّةَ والإيمانَ بها فضلٌ من اللهِ يُؤتيهِ من يَشاءُ.

ومِثلُها ـ أيضاً ـ قولُه ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾[1].

الضَّميرُ في قولهِ: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ﴾[2] عائدٌ على العِلمِ في قولِهِ: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، فكِتمانُهُ الحَقَّ ، وَعَدَمُ جَرْيِهم على مُقْتَضى عِلْمِهم لِما فيهِم مِن الجاهِليَّةِ ، والاعتقادِ أنَّ فضلَ اللهِ مقصورٌ عليهم لا يَتَعَدَّاهم إلى غيرهم.

وآية «الأنعام» موافقةٌ لِهذِهِ الآيةِ لفظاً ومعنىً ، وهي قولُه ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[3].

* * *

---

(١) البقرة: (١٤٦ ـ ١٤٧).

(٢) في المخطوط «يعرفون» وهو خطأ.

(٣) الأنعام: (١٩ ـ ٢٠).

العاشرة

الاسْتدلالُ بعطاءِ الدُّنيا على مَحَبَّةِ اللهِ ـ تعالى ـ.

قال ـ سُبحانَه ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[1].

وقال في سورة «القصص»: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

---

(١) سبأ: (٣٤ ـ ٣٩).

(٢) القصص: (٤٦ ـ ٥٠).

وفي آياتٍ أُخرى في سورةِ «القَصَصِ» يقولُ اللهُ ـ سُبحانَه ـ: ﴿ ۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾[1] إلى آخرِ الآيةِ.

فقدْ كفانا اللهُ ـ تعالى ـ إبطالَ هذهِ الخَصْلةِ الجاهِليَّةِ بِقولِه في الآيةِ الأولى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ ﴾، وفي الآية الأخرى بقولِه: ﴿ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ ﴾ . . . إلخ، فَعَلِمْنا مِن ذلك أنَّ محبَّةَ اللهِ ورضى اللهِ إنَّما يَكون بطاعتِهِ والانقيادِ لرسلِه، والإذعانِ للحقِّ باتِّباعِ البُرهانِ.

وأمَّا كثرةُ المالِ، وسَعَةُ الرِّزْقِ، وعيشُ الرَّخاءِ، فلا دليلَ فيه على نجاةِ المُنْعَمِ عليه بِمثلِ ذلك، ولو كانتِ الدُّنيا وما فيها تُعادِلُ عند اللهِ جَناحَ بَعوضةٍ ما سَقى مَنْ عصاهُ شربةَ ماءٍ.

قالَ ـ سُبحانَه ـ: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴾[2].

وعلى ذلك قول القائل[3]:

كَمْ عالِمٍ عالِمٍ أعْيَتْ مَذاهِبُهُ ۝ وجاهِلٍ جاهِلٍ تَلْقاهُ مَرْزوقا

---

(١) القصص: (٧٦ ـ ٧٨).

(٢) الزخرف: (٣٣).

(٣) هو ابن الراوندي الملحد، كما في «معاهد التنصيص» (١/ ١٤٧) رقم الشاهد (٢٦)، وذكره ياقوت الحموي في «معجم الأدباء» (٦/ ٢٠٧).

ومما يُنْسَبُ لبَعضِ الأكابر[1] :

رَضينـــا قِسْمَـــةَ الجَبَّـــارِ فينـــا　　لَنـــا عِلْـــمٌ وَلِـــلأَعْـــداءِ مـــالُ
فَـإِنَّ المـالَ يَفْنـى عَـنْ قـريـبٍ　　وَإِنَّ العِلْـــمَ بـــاقٍ لا يَـــزالُ

والشَّواهِدُ كثيرةٌ.

والمقصودُ أنَّ ما كانَ عليه أهلُ الجاهِلِيَّةِ مِنْ كونِ زَخارِفِ الدُّنيا مِن الأدلَّةِ على قُربِ مَن حازَها مِن اللهِ وقَبولِهِ عندَه ، فقولٌ بعيدٌ عن الحقِّ ، ومذهبٌ باطلٌ لا ينبغي لِمَنْ له بصيرةٌ أنْ يُعَوِّلَ عَلَيْهِ.

* * *

---

(١) هذان البيتان لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه كما في «ديوانه» (ص ٨٥) ، وذكر ابن قتيبة البيت الأول منهما في «عيون الأخبار» (١/ ٣٥٣) ونسبه إلى ابن مناذر بلفظ :

رضينـا قسمـة الـرحمـن فينـا　　لنـا علـم وللثقفـي مـال

وانظر : «الشعر والشعراء» (٢/ ٨٧١) ، «بهجة المجالس» (١/ ١٩٩).

الحادية عشرة

الاسْتِدلالُ على بُطْلانِ الشَّيء بأخذِ الضُّعَفَاءِ بِهِ ، وضَعفِ فَهْمِ مَن أخَذَ به ، على ما يَدُلُّ عليه قولُ قومِ نُوحٍ له كما حَكاه عنهم الكِتابُ الكريمُ.

قال ـ تعالى ـ في سورةِ «الشُّعَراءِ» : ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ [وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾][1] فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى ۖ لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[2].

فانظُرْ إلى قومِ نُوحٍ كَيفَ اسْتَنْكَفوا مِن اتِّباعِ نَبِيِّـهِم لِسَبَبِ اتِّبـاعِ الضُّعفاءِ له ، وَذٰلِكَ لِكونِ مَطْمَحِ أنظارهم الدُّنْيا ، وإلَّا لو كانت الآخرةُ هَمَّهُمْ ، لاتَّبَعوا الحَقَّ أيْنَما وَجَدوهُ ، ولكن لِجاهِلِيَّتِهِم أعْرَضوا عَن الحَقِّ لاتِّباع شَهَواتِهِم.

وانْظُرْ إلى هِرَقْلَ لَمَّا كان من العَقْلِ والبَصيرةِ على جانبٍ عظيمٍ ، اعتقَدَ اتِّباعَ الضُّعفاءِ دليلاً على الحَقِّ ، فقال في جُملةِ ما سألَ أبا سُفْيانَ عن رسول الله ﷺ: «وَسَألْتُكَ عن أشْرافِ النَّاسِ اتَّبَعوه أم ضُعفاؤُهُم ، فَذَكَرْتَ أنَّ ضُعَفاءَهُمُ اتَّـبَعوه ، وهـم أتْباعُ الرُّسُلِ»[3].

---

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من المخطوط.

(٢) الشعراء: (١٠٥ ـ ١١٥).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» ضمن حديث طويل ـ كتاب بدء الوحي ـ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ ـ (١/ ٥ ـ ٧).

ومِثلُ ذلكَ قولُه ـ تَعالى ـ في سُورةِ «هُودٍ»: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾[1] الآيات.

* * *

(١) هود: (٢٥ ـ ٢٧).

الثانية عشرة

من خِصالِ أهلِ الجاهِلِيَّةِ رميُ مَنِ اتَّبَعَ الحَقَّ بِعَدَمِ الإخلاصِ ، وطَلَبِ الدُّنيا ، فَرَدَّ اللهُ عَلَيهم بقولِ نَبِيِّهِم الَّذي حكَاهُ اللهُ عن نوحٍ في الآيةِ الأولى المذكورةِ في المسألةِ الحاديةَ عشرةَ ، بقوله: ﴿ ۞ قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴾[1].

ومقصودُهُم أنَّ أتباعَكَ فقراءُ ، آمَنوا بِكَ ؛ لِينالوا مقصدَهُم مِن العَيْشِ ، لا أنَّ إيمانَهم كان لِدَليلٍ يَقْتَضي صِحَّةَ ما جِئتَ بِهِ ؛ فَلِهذا رَدَّ عَلَيهم بِما رَدَّ.

* * *

---

(١) الشعراء: (١١١ ـ ١١٣).

الثالثة عشرة

من خِصالِ أهلِ الجاهِلِيَّةِ: الإعراضُ عَن الدُّخولِ في الحَقِّ الذي دَخَلَ فِيهِ الضعَفاءُ؛ تَكَبُّراً وأَنَفَةً.

فردَّ اللهُ ـ تعالى ـ عَلَيْهِم ذلك بقولِه في سُورةِ «الأنعام»: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1].

ومِثلُ ذلكَ قوله ـ تَعالى ـ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾[2].

وغير ذلكَ.

وحاصلُ الرَّدِّ: أنَّ مَن آمَنَ مِن هؤلاءِ الضُّعفاءِ، إنَّما كانَ إيمانُهُ عَن بُرهانٍ، لا كما زَعَمَ خُصومُهُم، وَلَسْتَ أنتَ بمسؤولٍ عنهم، ولا هم مسؤولونَ[3] عن حِسابِك، فطردُهم عن باب الإيمانِ من الظُّلمِ بِمَكانٍ.

* * *

(١) الأنعام: (٥٢ ـ ٥٣).
(٢) عبس: (١ ـ ٢).
(٣) في المطبوع «بمسئولين».

الرابعة عشرة

الاسْتِدْلالُ على بُطلانِ الشَّيء بِكَونِهم أوْلى بِهِ لَوْ كانَ حَقّاً.

قالَ ـ تعالى ـ في سورةِ «الأحقاف»: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾[1].

بعدَ قولِه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

* * *

---

(١) الأحقاف: (١١).

(٢) الأحقاف: (١٠).

الخامسة عشرة

الاسْتِدلالُ بِالقياس الفاسِدِ، وإنكارُ القِياسِ الصَّحيحِ، وجَهْلُهُمْ بِالجامعِ والفارِقِ.

قال ـ تعالى ـ في سورةِ «المؤمنين»: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[1].

ومَعنى[2] الآيةِ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾: شُروعٌ في بيانِ إهمالِ النَّاسِ، وتركِهِم النَّظَرَ والاعتبارَ فيما عَدَّدَ ـ سُبحانَه ـ مِن النِّعَمِ قَبْلَ هذه الآيةِ، وما حاقَهُمْ[3] مِن زَوالِها، وفي ذلك تخويفٌ لِقريشٍ.

وتقديمُ قصَّةِ نوحٍ ـ عليه السَّلامُ ـ على سائرِ القَصَصِ مِمَّا لا يَخْفى وجهُهُ، فَقالَ مُتَعَطِّفاً عليهم، ومُسْتَميلاً لهُمْ إلى الحَقِّ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، أي: اعْبُدوهُ وحدَه.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾: استئنافٌ مَسوقٌ لِتعليلِ العبادةِ المأمورِ بِها.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾: الهَمْزَةُ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِهِ، والفاءُ للعطفِ على

---

(١) المؤمنون: (٢٤ ـ ٢٥).

(٢) في المطبوع: «وقبل».

(٣) في المخطوط والمطبوع «ومن خافهم»، وما أثبته من «روح المعاني» (١٨/ ٢٥) الذي نقل عنه المؤلف تفسير هذه الآيات.

مقدَّرٍ يقْتَضيهِ المَقامُ ، أيْ: أتَعْرِفونَ ذلكَ ، أيْ: مَضمونَ قولِهِ ـ تَعالى ـ: ﴿ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ ، فلا تتَّقونَ عَذابَهُ ـ تَعالى ـ الذي يَسْتَوجِبُهُ ما أنْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ تَرْكِ عِبادتِهِ ـ سبحانَه ـ وحْدَه ، وإشراكِكُم بِهِ ـ عزَّ وجَلَّ ـ في العبادةِ مَالا يَسْتَحِقُّ الوجودَ لَوْلا إيجادُ اللهِ إيَّاه ، فَضْلاً عنِ اسْتِحْقَاقِ العِبَادَة ، فالمُنْكَرُ عدمُ الاتِّقاءِ ، مَعَ تَحَقُّقِ ما يوجبُه.

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ﴾ أي: الأشرافُ الذينَ كَفَروا مِن قومِه ، وُصِفَ الملأُ بالكُفْرِ مَعَ اشْتِراكِ الكُلِّ فيه ؛ للإيْذانِ بِكمالِ عَراقَتِهِم وشِدَّةِ شَكيمَتِهِم فيهِ ، وليسَ المُرادُ مِن ذلكَ إلاَّ ذَمَّهُم ، دُونَ التَّمَيُّزِ عن أشْرافِ آخَرينَ آمَنوا بِهِ ـ عليهِ السَّلامُ ـ أو لم يُؤمِنْ بِهِ أحَدٌ مِن أشْرافِهِم ، كما يُفصِحُ عنه قولُه: ﴿ وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا ﴾ وهذا القولُ صَدَرَ مِنْهُم لِعَوامِّهِم.

﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ أيْ: في الجِنسِ والوصفِ ، من غيرِ فرقٍ بَيْنَكُم وبَيْنَه.

وَصَفوهُ ـ عليه السَّلامُ ـ بِذَلِكَ مَبالَغَةً في وضْعِ رُتْبَتِهِ العاليةِ وحَطِّها عن مَنْصِبِ النُّبُوَّةِ ، وَوَصفوه[1] بقولِهِ ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾: إغْضاباً لِلْمُخاطَبينَ عَلَيْهِ ـ عليه السلام ـ وإغراءً لهم على معاداتِهِ.

والتَّفَضُّلُ: طَلَبُ الفَضْلِ ، وهو كِنايَةٌ عنِ السِّيادَةِ ، كأنَّهُ قِيلَ: يُريدُ أنْ يَسودَكُمْ وَيَتَقَدَّمَكُمْ بادِّعاءِ الرِّسالةِ ، مَعَ كَوْنِهِ مِثْلَكُمْ.

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً ﴾: بيانٌ لِعَدَمِ رسالةِ البَشَرِ عَلى الإطلاقِ على زَعْمِهِم الفاسِدِ ، بَعْدَ تَحْقيقِ بَشَرِيَّتِهِ ـ عَلَيهِ السَّلامُ ـ.

أيْ: وَلَو شاءَ اللهُ ـ تعالى ـ إرسالَ الرُّسُلِ ، لأَرْسَلَ رُسُلاً مِنَ المَلائكةِ ،

---

(١) في المطبوع «وصفوه».

وإنَّما قيلَ: لأنْزَلَ؛ لأنَّ إرْسالَ المَلائِكَةِ لا يكونُ إلا بطريقِ الإنزالِ.

﴿ مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ ، هذا إشارةٌ إلى الكلامِ المُتَضَمِّنِ الأمرَ بعبادةِ اللهِ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ، خاصَّةً والكَلامُ على تقديرِ مُضافٍ ، أيْ: ما سَمعنا بهذا الكلامِ في آبائِنا الماضينَ قَبْلَ بعثتِه ـ عليه السَّلامُ ـ ، وقُدِّر المُضافُ؛ لأنَّ عدمَ السَّماعِ بِكلامِ[1] نوحٍ المذكورِ لا يصلُحُ لِلرَّدِّ؛ فإنَّ السَّماعَ بِمِثْلِهِ[2] كافٍ[3] في القَبولِ.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ ﴾ ، أيْ: ما هو إلاَّ رَجُلٌ به جُنُونٌ أو جِنٌّ يَخْبُلونَهُ؛ ولِذٰلِكَ يَقولُ ما يَقولُ.

﴿ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾، أيْ[4]: فاحْتَمِلوهُ، واصْبِروا عليهِ، وانْتَظِروا لَعَلَّهُ يَفيقُ مِمَّا هو فيهِ مَحْمولٌ على مَرامي أحْوالِهِمْ في المُكابَرَةِ والعِنادِ.

وإضْرابُهُم عَمَّا وَصَفوه ـ عليه السلام ـ به مِن البَشَرِيَّةِ ، وإرادةِ التَّفَضُّلِ ، إلى وصفِهِ بِما تَرَى ، وَهُم يَعْرِفونَ أنَّه ـ عليه السلام ـ أرجَحُ النَّاس عَقْلاً ، وأرزَنُهُم قَولاً ، وهو [على ما تقدم][5] مَحْمولٌ على تَناقُضِ مَقالاتِهِم الفاسِدَةِ ـ قاتَلَهم اللهُ تَعالى أنَّى يُؤفَكون[6] ـ.

والقِياسُ الفاسدُ والصَّحيحُ ، والجامعُ والفارِقُ ، مُفَصَّلٌ في كتبِ الأصولِيِّينَ.

فَبَيْنَ الرُّسُلِ ـ عليهم السلام ـ وسائرِ النَّاسِ مُشَابَهَةٌ مِن جهةِ البشريَّةِ

---

(١) في المطبوع «الكلام».
(٢) في المطبوع «لمثله».
(٣) في المطبوع «كان».
(٤) «أي»: ساقطة من المطبوع.
(٥) ما بين المعكوفتين زيادة من «روح المعاني» ، حتى ينتظم بها السياق.
(٦) «روح المعاني» (١٨/ ٢٥ ـ ٢٦).

ولوازِمِها الضَّروريَّةِ ، فيَصِحُّ حِينئذٍ قياسُ الرُّسُلِ على غيرِهِم فيها ، وعليه قولُه ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1] .

وبَيْنَ الرُّسُلِ والأنبياءِ ـ عليهم السلام ـ وغيرِهِم مِنَ البَشَرِ فُروقٌ كَثيرةٌ:

مِنها: أنَّ الله ـ تعالى ـ اصْطفاهم على النَّـاس بِرسالاتِـه[2] وبكلامِـهِ ووحْيِه ، فَلا يُقاسُ أحَدٌ مِن النَّاسِ بِهِم حِينئذٍ مِن هذه الجِهَةِ ، كَمَا لا يَصِحُّ قياسُ غيرِهِمِ بِهِم في سائِر خَصَائِصِهِم التي فُصِّلَتْ في غير هذا المَوْضِعِ ، فالجاهِلِيَّةُ لم يُمَيِّزوا بَيْنَ القِياسِ الصَّحيح والفاسِدِ ، ولا عَرَفوا الجامِعَ ولا الفارِقَ ، كما سَمِعْتَ مِن قِياسِهِم الرُّسُلَ على غَيرِهِم ، وهكَذا أتْباعُهُمُ اليومَ ومَن هو على شاكِلَتِهِمْ .

* * *

(١) الكهف: (١١٠) ، وفصلت: (٦).

(٢) في المطبوع «برسالته».

السادسة عشرة

الغُلُوُّ في الصَّالِحِينَ مِن العُلَماءِ والأولياءِ؛ كقولِهِ ـ تَعالى ـ في سورة «التَّوبةِ»: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1].

فاتِّخاذُ أحبارِ النَّاسِ أرْباباً يُحَلِّلونَ وَيُحَرِّمونَ، وَيَتَصَرَّفونَ في الكَونِ، ويُنادَونَ في دَفعِ ضُرٍّ أو جَلْبِ نَفْعٍ مِن جاهِلِيَّةِ الكِتابِيِّينَ، ثُمَّ سَرى إلى غيرِهِم من جاهِلِيَّةِ العَرَبِ، ولهمُ اليومَ بقايا في مَشارِقِ الأرضِ ومَغارِبِها، تصديقاً لِقولِ النَّبيِّ ﷺ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ. . .» الحديث[2]، حتَّى نَرى غالبَ النَّاسِ اليومَ مُعْرِضينَ عن اللهِ، وعن دِينِهِ

(١) التوبة: (٣٠ ـ ٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الأنبياء ـ باب ما ذكر عن بني إسرائيل ـ (٤/ ١٤٤)، وفي كتاب «الاعتصام بالكتاب والسنة» ـ باب قول النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» (٨/ ١٥١)، ومسلم في «صحيحه» ـ كتاب العلم ـ باب اتباع سنن اليهود والنصارى ـ (٤/ ٢٠٥٤) ح ٢٦٦٩.

الذي ارْتَضاه ، مُتَوَغِّلينَ في البِدَعِ ، تائِهينَ في أودِيَةِ الضَّلالِ ، مُعادينَ لِلْكِتابِ والسُّنَّةِ ومَن قامَ بِهِما ، فأَصْبَحَ الدِّينُ مِنهم في أنينٍ ، والإسلامُ في بَلاءٍ مبينٍ ، وحسبُنا اللهُ ، ونِعْمَ الوَكيلُ .

* * *

السابعة عشرة

اعْتِذَارُهم عَنِ اتِّباعِ الوَحْيِ بِعَدَمِ الفَهْمِ.

قال ـ تعالى ـ في سورةِ «البَقَرَةِ»: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[1].

وفي سورةِ «النِّساء»: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[2].

الغُلْفُ: جمعُ أَغْلَفَ، كَأَحْمَرَ وحُمْرٍ، وهو الذي لا يفقهُ، وأصلُه ذو القَلَفَةِ: الذي لم يُخْتَنْ، أو جَمْعُ غِلافٍ، ويُجمعُ على غُلُفٍ بِضَمَّتَيْنِ ـ أيضاً ـ.

أرادوا على الأوَّلِ: قُلوبُنا مُغَشَّاةٌ بأغشيةٍ خَلْقِيَّةٍ مانِعَةٍ عن نُفُوذِ ما جئتَ بِهِ فيها.

وهذا كقولِهِم: ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾[3]، قَصَدوا به إقناطَ النَّبيِّ ﷺ عن الإجابةِ، وقَطْعَ طَمَعِهِ عنهم بالكُلِّيَّةِ.

---

(١) البقرة: (٨٧ ـ ٨٨).
(٢) النساء: (١٥٥).
(٣) فصلت: (٥).

ومِنْهم مَنْ قالَ: معنى غُلْف: مُغَشَّاةٌ بِعُلومٍ مِنَ التَّوراةِ تحفظُها أنْ يَصلَ إليها ما تأتي به ، أو بِسلامةٍ مِنَ الفِطْرَةِ كذلكَ.

وعلى الثَّاني أنَّها أوعِيَـةُ العِلْمِ ، فَلَو كانَ ما تـقولُـهُ حَقّـاً وَصِدْقـاً لَوَعَتْـهُ.

قالَ ابنُ عبَّاس[1] وقَتَادةُ والسُّدي[2]: أو مملوءَة عِلماً ، فَلاَ تَسَعُ بعدُ شيئاً ، فَنحنُ مُسْتَغْنونَ بِما عِنْدَنا عَنْ غَيرِهِ.

ومنهم[3] مَنْ قالَ: أرادوا أنَّها أوعِيَة العِلْمِ؛ فَكَيْفَ يَحِلُّ لنا اتِّباعُ الأمِّيِّ. ولا يخفى بُعْدُهُ[4].

وقَال ـ تعالى ـ في سورةِ «هودٍ»: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًاۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾[5].

وهذه الآيـةُ بمعنى الآيـةِ الأولى ، وقد كَذَّبَـهُمُ اللهُ ـ تعالى ـ في دَعواهم هذِهِ في آياتٍ كثيرةٍ ، وذَكَـرَ أنَّ السَّبَبَ في عَـدَمِ الفَهْمِ إنَّما هو

---

(١) أخرجه ـ بنحوه ـ ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٤٠٧) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١/ ٢٧٢).

(٢) نسب هذا التفسير إليهما الألوسي في «روح المعاني» (١/ ٣١٩) ، ولم يذكر من أخرجه.

(٣) وهو عطية العوفي كما في «تفسير ابن جرير» (١/ ٤٠٧) ، وابن أبي حاتم (١/ ٢٧٢).

(٤) «روح المعاني» (١/ ٣١٩).

(٥) هود: (٨٩ ـ ٩١).

الطَّبْعُ على القُلوبِ بِكُفْرِهِم ، لا القُصورُ في البيانِ والتَّفهيمِ.

وما أحسنَ قولَ القائل[1]:

والنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الأبصارُ صورتَه والذَّنْبُ للطَّرْفِ لا لِلنَّجْمِ في الصِّغَرِ

* * *

(١) وهو أبو العلاء المعري كما في ديوانه «سقط الزند» (ص ٤٤).

الثامنة عشرة

من خِصالِ الجاهِلِيَّةِ أنَّهم لا يَقْبَلونَ مِنَ الحَقِّ إلاَّ ما تَقولُ بِهِ طائِفَتُهُمْ.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

وَمَعنى ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾؛ أيْ: نَسْتَمِرُّ عَلى الإيمان بالتَّوراةِ وما في حُكْمِها مِمَّا أُنزِلَ في تقريرِ حُكْمِها.

ومرادُهم بضميرِ المُتَكَلِّمِ إمَّا أنبياءُ بَني إسرائيلَ ـ وهو الظَّاهِرُ فيه ـ إيماءً إلى أنَّ عدمَ إيمانِهم بالقرآنِ كانَ بغياً وحَسَداً على نَزولِهِ على مَنْ لَيْسَ مِنهم، وإمَّا أنفُسُهُم.

ومعنى الإنزالِ عليهم: تكليفُهُم بِما في المُنَزَّلِ مِن الأحكامِ.

وَذُمُّوا على هذهِ المقالةِ؛ لِما فيها مِن التَّعريضِ بِشأنِ القرآنِ ـ ودَسائسُ اليهودِ مشهورةٌ ـ أو لأنَّهم تَأَوَّلوا الأمرَ المُطْلَقَ العامَّ، وَنَزَّلوه على خاصٍّ، هو الإيمانُ بِما أُنزِلَ عَليهم، كَما هو دَيْدَنُهُم في تأويل الكِتابِ بغيرِ المرَادِ مِنهُ.

---

(١) البقرة: (٩١).

﴿ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ﴾ ، أي: هُمْ مقارنونَ لِحَقِّيَّتِهِ[1] ، أيْ: عالِمونَ بِها.

﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ لأنَّ كُتُبَ اللهِ يُصَدِّقُ بعضُها بعضاً ، فالتَّصديقُ لازِمٌ لا يَنْتَقِلُ ، وقد قَرَّرَتْ مَضمونَ الخَبَرِ[2]؛ لأنَّها كالاسْتِدلالِ عليه؛ ولِهذا تَضَمَّنت رَدَّ قولِهِم: ﴿ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ حَيثُ إنَّ مَنْ لمْ يُصَدِّقْ بِما وافَقَ التَّوراةَ ، لم يُصَدِّقْ بِها.

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أمْرٌ للنَّبيِّ ﷺ أنْ يقولَ ذلكَ تَبْكيتاً لهم ، حيثُ قَتَلوا الأنبياءَ مَعَ ادِّعاءِ الإيمانِ بالتَّوراةِ ، وهِيَ لا تُسَوِّغُه[3].

* * *

(١) في المطبوع «لحقيقته» ، وما أثبته هو الموافق لما في «روح المعاني» الذي نقل المؤلف الكلام منه.

(٢) في المطبوع «الخير».

(٣) انظر: «روح المعاني» (١/ ٣٢١ ـ ٣٢٢).

التاسعة عشرة

من خِصَالِهِمُ: الاعتياضُ عن كِتابِ اللهِ ـ تعالى ـ بكُتُبِ السِّحرِ:

كَما قالَ ـ تعالى ـ في سورةِ «البقرةِ»: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ[1] مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

والكلامُ على هذهِ الآيةِ في التَّفاسيرِ مشهورٌ.

وهذه الخَصلةُ الجاهِلِيَّةُ مَوجودةٌ اليومَ في كَثيرٍ مِن النَّاسِ، لاسِيَّما مَن انتسبَ إلى الصَّالِحينَ وهو عنهم بِمراحِلَ، فَيَتَعاطَى الأعمالَ السِّحريَّةَ مِن إمساكِ الحَيَّاتِ، وضَرْبِ السِّلاحِ، والدُّخولِ في النِّيرانِ، وغيرِ ذلك

(١) في المخطوط «فيتعلمون»، وهو خطأ.

(٢) البقرة: (١٠١ ـ ١٠٢).

مِمَّا[1] وَرَدَتِ الشَّرِيعةُ بِإبْطالِهِ، فَأَعْرَضوا، ونَبَذوا كتابَ اللهِ وَراءَ ظُهورِهِم، واتَّبَعوا ما أَلْقاه إليهِم شَياطينُهُم، وادَّعَوا أَنَّ ذلكَ مِنَ الكَراماتِ، مَعَ أَنَّ الكَرامةَ لا تصدرُ عن فاسِقٍ، ومَنْ يَتَعاطى تلكَ الأعمالَ فِسْقُهُم ظاهِرٌ لِلْعَيانِ، ولِذا اتَّخذوا دِينَهم لَعِباً ولَهْواً، وفي مِثْلِهِم قالَ ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[2].

* * *

(١) في المخطوط «من وردت».

(٢) الكهف: (١٠٤).

العشرون

تَناقُضُهُم في الانْتِسابِ ، فَيَنْتَسِبونَ إلى إبراهيمَ - عليه السلام - وإلى الإسلامِ ، مَعَ إظْهَارِهِمْ تَرْكَ ذلكَ ، والانتسابَ إلى غيرِه.

* * *

الحادية والعشرون

تَحْرِيفُ كلامِ اللهِ مِن بعدِ ما عَقَلوهُ وهُمْ يَعْلَمونَ.

ولَكَمْ في هذا العَصْرِ مَنْ هو على شاكِلَتِهِمْ ، تَراه يَصْرِفُ النُّصوصَ ، وَيُؤَوِّلُها إلى ما يَشْتَهِيهِ مِنَ الأَهْواءِ.

* * *

الثانية والعشرون

تَحْرِيفُ العُلماءِ لِكُتُبِ الدِّينِ.

قال اللهُ ـ تَعالى ـ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَـٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[1].

وَمَن نَظَرَ إلى قُضاةِ هذا الزَّمانِ وما تَلاعَبوا بِهِ مِنَ الأحكامِ، وصَرْفِ النُّصوصِ إلى ما تَهْواهُ أنْفُسُهُم، وتبديلِ الحَقِّ وإبطالِهِ، بِما يَنالونَه من الرِّشا وغيرِ ذلكَ مِمَّا هُمْ عَلَيْه اليومَ، تبيَّنَ لَهُ[2] من ذلك بحرٌ لا ساحلَ لَهُ.

وَهَكَذا بعضُ المُبْتَدِعَةِ وغلاةُ القُبورِ، وقد بُيِّنَ حالُهُم في غيرِ هذا الموضِعِ.

* * *

---

(١) البقرة: (٧٨ ـ ٧٩).

(٢) في المخطوط «لهم».

الثالثة والعشرون

وهي من أعجَبِ المسائلِ والخصالِ: مُعاداةُ الدِّينِ الذي انْتَسَبوا إليهِ أشَدَّ العداوةِ ، ومُوالاتُهم لِمَذْهَبِ الكُفَّارِ الذين فارَقُوهُم أكْمَلَ الموالاةِ.

كما فَعَلوا مَعَ النَّبيِّ ﷺ لمَّا أتاهُمْ بِدينِ موسى ، واتَّبَعوا كُتُبَ السِّحْرِ ، وَهُو مِنْ دِينِ آلِ فرعونَ.

ومِثلُ هؤلاءِ في الأمَّةِ الإسلامِيَّةِ كثيرٌ ، هَجَروا السُّنَّـةَ ، وعادَوْها ، وَنَصَروا أقوالَ الفَلاسِفَةِ وأحْكامَهُمْ.

* * *

الرابعة والعشرون

أنَّهم لَمَّا افْتَرقوا ـ وَكُلُّ طائِفَةٍ لا تَقْبَلُ مِنَ الحَقِّ إلاَّ ما قَالَتْهُ طائفتُهُم ، وَكَفَروا بِما مَعَ غَيرِهِم مِنَ الحَقِّ ـ.

قالَ ـ تَعالى ـ في سورة «البَقَرَة» : ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ [يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ][1] فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2].

ولا شَكَّ أنَّ هذا[3] مِنَ الخِصالِ الجاهِلِيَّةِ ، وَعَلَيه اليومَ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ ، لا يَعْتَقِدُ الحَقَّ إلاَّ مَعَهُ ، لا سِيَّما أربابُ المذاهِبِ ، يَرى كلُّ أهلِ مَذْهَبٍ أنَّ الدِّينَ مَعَه لا يَعْدوهُ إلى غيرِه ، وكلُّ حِزْبٍ بما لَدَيْهِمْ فَرِحونَ .

وَكُـلٌّ يَـدَّعِـي وَصْـلاً لِلَيْلـى وَلَيْلـى لاَ تُقِـرُّ لَهُـمْ بِـذاكـا[4]

والحَزْمُ أنْ يَنْظُرَ إلى الدَّليلِ ، فما قام عليه الدَّليلُ ، فهو الحَقُّ الحَرِيُّ أن يُتَلَقَّى بالقَبولِ ، وما لَيْسَ عَلَيْهِ بُرْهانٌ ولا حُجَّةٌ يُنْبَذُ وَراءَ الظُّهورِ. وكلُّ أحَدٍ يُؤخذ من قَولِهِ ويُرَدُّ إلاَّ مَنِ اصْطفاهُ اللهُ لِرِسَالَتِهِ.



(١) ما بين المعكوفتين ساقط من المخطوط.

(٢) البقرة: (١١٣).

(٣) في المطبوع: «هذه».

(٤) نسبه شيخ الإسلام إلى مجنون بني عامر ، انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٧١).

الخامسة والعشرون

أنَّهم لَمَّا سَمِعوا قولَه ﷺ في حَديثِ الافتِراقِ: «وَسَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي إلى ثلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقةً ، كُلُّها في النَّار إلاَّ واحِدَةً»؛ ادَّعى كُلُّ فرْقَةٍ أنَّها هِي النَّاجِيَةُ.

كما حَكى اللهُ عَن اليهودِ والنَّصارى في قولِهِ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[1].

مَعَ أنَّ النَّبيَّ ﷺ بَيَّنَ في آخِرِ الحَديثِ المُرادَ مِنَ الفرْقَةِ النَّاجِيَةِ ، فقالَ: «وَهُمْ ما كُنْتُ أنا عَلَيه وأصْحابِي»[2] أو كما قالَ.

---

(١) البقرة: (١١٣).

(٢) أخرجه بلفظ: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي» الترمذي في «جامعه» ـ كتاب الإيمان ـ باب ما جاء في افتراق هذه الأمة ـ (٥/٢٦) ح ٢٦٤١ ، وقال: «هذا حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه» ، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (ص ٨٥) ، والآجري في «الشريعة» (ص ١٦) ، وفي كتاب «الأربعين» (ص ٥٣ ـ ٥٤) ، والعقيلي في «الضعفاء الكبير» (٢/٢٦٢) ، وابن نصر المروزي في «السنة» (ص ٢٣) ح ٥٩ ، والحاكم في «المستدرك» ـ كتاب العلم ـ (١/١٢٨ ـ ١٢٩) وسكت عنه ، وسكت عنه الذهبي من حديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الأفريقي عن عبد الله بن عمرو بن العاص.
وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/١٧٨) ، وفي «المعجم الصغير» (١/٢٥٦) ، والعقيلي في «الضعفاء» (٢/٢٦٢) ، وبحشل في «تاريخ واسط» (ص ١٩٦) عن أنس ، وفي إسناده عبد الله بن سفيان ، وهو ضعيف. =

وَرَدَّ اللهُ ـ تَعالى ـ عليهم بقولِه: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

والمَقصودُ أنَّهم لَيْسَ لَهم بُرهانٌ على هذهِ الدَّعْوى، بَلِ الدَّليلُ على خِلافِ ذٰلِكَ.

وَأبو العَبَّاسِ تَقِيُّ الدِّينِ تَكَلَّمَ على حَديثِ الفِرَقِ في كِتابِهِ «مِنهاجِ السُّنَّةِ» بِما لا مَزيدَ عَلَيه، حَيثُ اسْتَدَلَّ بِهِ الرَّافِضِيُّ على حَقيقَةِ مَذهبِهِ وبُطلانِ مَذهبِ أهلِ السُّنَّةِ، فراجِعْهُ إنْ أرَدْتَه[2].

* * *

= وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ١٧٨) عن أبي الدرداء وواثلة بن الأسقع وأبي أمامة قال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «وفيه كثير بن مروان، وهو ضعيف جداً».

(١) البقرة: (١١١ ـ ١١٢).

(٢) «منهاج السنة النبوية» (٣/ ٤٤٣ ـ ٥٠٦).

السادسة والعشرون

أنَّهم أنـكَروا ما أقَرُّوا أنَّـه مِن دِينِهِم ، كَما فَعَلوا في حَجِّ البَيتِ ، فَتَعَبَّدوا بِإنْكارِهِ والبراءَةِ مِنه مَعَ ذلكَ الإقرار .

كَما قالَ ـ تعالى ـ في سورةِ «البقرةِ» : ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾[1] .

إلى أنْ قالَ : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2] .

يُقالُ : إنَّ سَبَبَ نُزولِ قوله : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ . . . ﴾ إلخ ما رُوِيَ أنَّ عبدَ الله بـنَ سَلاَمَ دَعا ابْـنَي أخيهِ : سَلَمَـةَ ومهاجِراً[3] إلى الإسـلامِ ، فقالَ :

قَدْ عَلِمْتُما أنَّ اللهَ ـ تَعالى ـ قالَ في التَّوراةِ : إنِّي باعِثٌ مِن ولدِ إسماعيلَ

---

(١) البقرة : (١٢٥) .

(٢) البقرة : (١٣٠ ـ ١٣٢) .

(٣) في المخطوط والمطبوع «مهاجر» .

نَبِيّاً اسْمُهُ أحمدُ ، فَمَنْ آمَنَ بِهِ ، فَقَد اهْتَدَى وَرَشَدَ ، وَمَنْ لَم يُؤْمِنْ بِهِ ، فهو مَلْعونٌ. فَأَسْلَمَ سَلَمَةُ ، وأَبَى[1] مُهاجِرٌ ، فَنَزَلَتْ[2].
انتهى.

* * *

(١) في المطبوع «أبو».
(٢) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (١/ ١٤٧) ونسبه لمقاتل.

السابعة والعشرون

التَّعَبُّدُ[1] بِكَشْفِ العَوراتِ.

قال ـ تعالى ـ في سورة «الأعرافِ»: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾[2].

قالَ بَعضُ المُفَسِّرينَ: الفاحِشةُ هُنا: الفَعْلَةُ القَبيحةُ المُتناهِيَةُ في القُبحِ، والتاءُ إمَّا لأنَّها مُجراةٌ على المَوصوفِ المؤنَّثِ؛ أيْ: فَعلةٌ فاحِشةٌ، وإمَّا للنَّقْلِ مِنَ الوَصفيَّةِ إلى الاسْمِيَّةِ، والمُرادُ بها هُنا: عِبادةُ الأصنامِ، وكشفُ العورةِ في الطَّوافِ، ونَحْوُ ذٰلكَ.

وعَنِ الفَرَّاءِ تخْصِيصُها بِكشفِ العَورةِ.

وفي الآيةِ حَذفٌ، أيْ: وإذا فَعَلُوا فاحِشَةً، فَنُهوا عَنها قالوا: وَجَدْنا عليها آباءَنا واللهُ أمَرَنا بِها، مُحْتَجِّيْنَ بِأمْرَيْنِ: بِتَقليدِ الآباءِ، والافتراءِ على اللهِ[3].

---

(١) في المطبوع «المجاهرة».

(٢) الأعراف: (٢٨ ـ ٢٩).

(٣) نقل المؤلف هذا التفسير من «روح المعاني» (٨/ ١٠٦) بشيء من التصرف.

وكان مِن سُنَّةِ الحُمس[1] أنَّهم لا يَخْرُجونَ أيَّامَ المَواسِمِ إلى عَرَفاتٍ ، إنَّما يَقِفُونَ بِالمُزْدَلِفَةِ ، وكانوا لا يَسلؤون ، وَلاَ يأقطونَ ، ولا يَرْتَبطونَ عَنْزاً ولا بَقَرَةً ، ولا يَغْزِلونَ صوفاً ولا وَبَراً ، ولا يَدْخُلونَ بَيْتاً مِنَ الشَّعْرِ والمَدَرِ ، وإنَّما يَكْتَنُّونَ بالقِبابِ الحُمْرِ في الأشْهُرِ الحُرُمِ ، ثُمَّ فَرَضُوا على العَرَبِ قاطِبةً أنْ يَطَّرِحوا أزْوادَ الحِلِّ إذا دَخَلوا الحَرَمَ ، وأنْ يَتْرُكوا ثِيابَ الحِلِّ ، ويَسْتَبْدِلوها بِثيابِ الحَرَمِ: إمَّا اشْتِراءً وإمَّا عارِيَّةً وإمَّا هِبَةً ، فإنْ وَجَدوا ذلكَ فيها وإلاَّ طافوا بالبيتِ عَرايا .

وَفَرَضوا على نِساءِ العربِ مثلَ ذلكَ ، غيرَ أنَّ المرأةَ كانت تَطوفُ في درج مُفَرَّجِ القَوائمِ والمَواخيرِ .

قالتِ امرأةٌ[2] وهي تطوفُ بالبيتِ :

اليَــوْمَ يَبْــدُو بَعْضُــهُ أوْ كُلُّــه ... ومَــا بَــدا مِنْــهُ فَــلاَ أُحِلُّــهْ
أخْتَــمَ مثْــلَ القِعْــبِ بَــادٍ ظِلُّــهْ ... كــأنَّ حُمَّــى خَيْبَــرٍ تَمُلُّــهْ

وكلَّفوا العربَ أن يُفِيضوا مِن مُزْدَلِفَةَ ، وقد كانوا يُفيضون مِن عَرَفَةَ ، إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الأمورِ الَّتي ابْتَدَعوها وَشَرَعوها[3] ، مِمَّا لم يأذنْ بِهِ اللهُ .

---

(١) الحمس: قريش وما ولدت ، ومن كان يأخذ مأخذها من القبائل كالأوس والخزرج وخزاعة وثقيف وغزوان وبني عامر وبني صعصعة وجديلة قيس وبني كنانة إلا بني بكر ، سموا بذلك لأنهم تحمسوا ـ أي: تشددوا ـ في دينهم ، فكانوا يرون التزهد ، وقيل: بل سموا بالكعبة؛ لأنها حمساء: حجرها أبيض يميل إلى السواد ، والأول أشهر .
انظر: «المعلم بفوائد مسلم» للمازري (٢/ ٥٨) ، «الروض الأنف» (١/ ٢٢٩) ، «فتح الباري» (٣/ ٦٠٣).

(٢) هي ضباعة بنت عامر بن صعصعة ، كما في «الروض الأنف» (١/ ١٣٤).

(٣) في المطبوع «وتشرعوها».

وَمَعَ ذَلكَ كانوا يَدَّعونَ أَنَّهم على شَريعةِ أبيهم إبراهيمَ ـ عليه السَّلامُ ـ وما ذلكَ إلاَّ لِجاهِلِيَّتِهم.

وغالبُ مَنْ يَنْتَمي إلى الإسلامِ اليومَ ابْتَدَعوا في الدِّينِ ما لم يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ، فَمِنْهم مَنِ اتَّخَذَ ضَرْبَ المعازِفِ وآلاتِ اللهوِ عِبادةً يَتَعَبَّدون بِها في بُيوتِ اللهِ ومَسَاجِدِه.

ومِنهم مَن اتَّخَذَ الطَّوافَ على القُبورِ والسَّفَرَ[1] إليها والنُّذورَ أَخْلَصَ عِبادَتِهِ وَأَفْضَلَ قُرُباتِهِ.

ومِنهم مَنِ ابْتَدَعَ الرَّهْبانِيَّةَ والحِيَلَ الشَّيْطانِيَّةَ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ سَلَكَ سَبيلَ الزُّهَّادِ وطريقَ العُبَّادِ ، ومَقْصِدُه الأعلى نَيْلُ شَهَواتِهِ الحَيْوانِيَّةِ والفَوْزُ بهذهِ الدُّنيا الدَّنِيَّةِ ، إلى غيرِ ذلك مِمَّا يَطولُ ، ولا يعلمُ ماذا يقولُ.

إلـى دَيَّـانِ يَـوْمِ الـدِّيـنِ نَمْضـي   وَعِنْـدَ اللهِ تَجْتَمِـعُ الخُصُـومُ[2]

* * *

(١) في المخطوط «والقصد» ، وقد أثبت ما في المخطوط ؛ لأنه أليق ، إذ ليس كل قصد للقبور منهياً عنه ، بخلاف السفر.

(٢) هذا البيت لأبي العتاهية كما في «ديوانه» (ص ٣٠٩).

الثامنة والعشرون

التَّعَبُّدُ بِتَحْرِيمِ الحَلالِ.

فَرَدَّ اللهُ ـ تعالى ـ ذٰلكَ عَليهم بقولِهِ في سورةِ «الأعراف»: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةٗ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٖ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1].

ومَعْنى الآياتِ: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ﴾، أيْ: ثِيابَكُمْ لِمواراةِ عَوْراتِكُم عِندَ طوافٍ أوْ صَلاةٍ.

وَسَبَبُ النُّزولِ: أنَّه كانَ أُناسٌ مِن الأعرابِ يَطوفونَ بِالبيتِ عُراةً، حَتَّى إنْ كانتِ المَرْأَةُ لَتَطوفُ بِالبيتِ وهِيَ عُريانةٌ، فَتُعَلِّق على سُفْلِها سُيوراً مِثْلَ هذهِ السُّيورِ التي تكونُ على وجْهِ الحُمْرِ من الذُّبابِ، وهي تَقولُ:

اليَـوْمَ يَبْـدُو بَعْضُـهُ أوْ كُلُّـهْ　　وَمـا بَـدا مِنْـهُ فَـلا أُحِلُّـهْ

فَأنزَلَ اللهُ ـ تَعالى ـ هذهِ الآيَةَ: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ مِمَّا طابَ لَكُمْ[2].

قال الكَلْبِيُّ: كان أهلُ الجاهِلِيَّـةِ لا يَأكُلـونَ مِنَ الطَّعامِ إلاَّ قوتـاً، ولا يأكلونَ دَسَمـاً في أيَّـامِ حَجِّهِم، يُـعَظِّمون بِذلـكَ حَجَّهم، فَقَـالَ

---

(١) الأعراف: (٣١ ـ ٣٣).

(٢) «مما طاب لكم» ساقط من المطبوع.

المُسلِمونَ: يا رَسولَ اللهِ، نَحنُ أحَقُّ بِذلكَ، فَأنْزَلَ اللهُ ـ تَعالى ـ الآية[1].

وَفِيهِ يَظْهَرُ وجهُ ذِكْرِ الأكْلِ والشُّرْبِ[2] هُنا.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ بِتَحْريمِ الحَلالِ، كَما هو المُناسِبُ لِسَبَبِ النُّزولِ.

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ بَلْ يُبْغِضُهُمْ، وَلاَ يَرضىٰ أفعالَهُمْ.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ مِنَ الثِّيابِ وكُلِّ ما يُتَجَمَّلُ بِهِ، وَخَلَقَها لِنَفْعِهِمْ مِنَ الثِّيابِ كالقُطْنِ والكتَّانِ والحَيوانِ كالحَريرِ والصُّوفِ.

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ أيْ: المُسْتَلَذَّاتِ، وقيلَ: المُحَلَّلاتِ مِنَ المَآكِلِ والمَشارِبِ كَلَحْمِ الشَّاةِ وَشَحْمِها وَلَبَنِها.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، أيْ: هي لَهُمْ بالأصالَةِ؛ لِمَزيدِ كَرَمِهِمْ على اللهِ ـ تعالى ـ والكَفَرَةُ، وإنْ شارَكوهُمْ فيها، فَبِالتَّبَعِ، فَلا إشْكالَ في الاخْتِصاصِ.

﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، أي: لا يُشارِكُهم فيها غَيْرُهُم.

﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أيْ: مِثْل تَفْصيلِنا هذا الحُكْمَ، نُفَصِّلُ سائِرَ الأحكامِ لِمَنْ يَعْلَمُ ما في تَضامِينِها مِنَ المَعاني الرَّائِقَةِ.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾، أيْ: ما تَزايَدَ قُبْحُهُ مِنَ المَعاصي، ومِنْهُ ما يَتَعَلَّقُ بِالفُروجِ.

﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾: بَدَلٌ مِنَ الفَواحِشِ، أيْ: جَهْرَها وَسِرَّها.

وعَنِ البَعْضِ: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ الزِّنى عَلانِيَةً، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ الزِّنى سِرًّا[3]،

---

(1) ذكره البغوي في «تفسيره» (٢/ ١٥٧).

(2) في المطبوع «الشراب».

(3) وهذا أحد أقوال ابن عباس في الآية، وبه قال سعيد بن جبير، كما في «زاد المسير» (٣/ ٣٤).

وكَانوا يَكْرَهونَ الأوَّلَ ، ويَفْعَلونَ الثَّانيَ ، فَنُهوا عَن ذٰلِكَ مُطْلَقاً .

وعن مُجاهِدٍ : ﴿ مَاظَهَرَ ﴾ التَّعَرِّي في الطَّوافِ ، ﴿ وَمَابَطَنَ ﴾ الزِّنى[1] .

والبَعْضُ يَقولُ : الأَوَّلُ : طَوافُ الرِّجالِ بالنَّهارِ ، والثَّاني : طوافُ النِّساءِ بالليلِ عارِياتٍ[2] .

﴿ وَٱلْإِثْمَ ﴾ ، أيْ : ما يُوجِبُ الإثمَ ، وأَصْلُه الذَّمُّ ، ثُمَّ أُطْلِقَ على ما يُوجِبُهُ مِنَ مُطْلَقِ الذَّنْبِ ، وَذُكِرَ لِلتَّعْميمِ بَعْدَ التَّخْصيصِ بِناءً على ما تَقَدَّمَ مِن مَعْنى الفَواحِشِ .

ومِنهم مَن قالَ : إنَّ الإثمَ هو الخَمْرُ ، وَعَلَيْه أهلُ اللغَةِ[3] ، وأَنْشَدوا لَه قَولَ الشَّاعِرِ :

نَهـانَـا رسـولُ اللهِ أنْ نَقْـرَبَ الـزِّنـى
وَأنْ نَشْـرَبَ الإثْـمَ الـذي يـوجِـبُ الـوِزْرا[4]

وقَولَ الآخَرِ :

شَـرِبْـتُ الإثْـمَ حَتَّـى ضَـلَّ عَقْلِـي كـذاكَ الإثـمُ يَـذْهَـبُ بِـالعُقُـولِ[5]

❊ ❊ ❊

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٣٤) .

(٢) وهذا اختيار البغوي في «تفسيره» (٢/ ١٥٧) .

(٣) أنكر بعض أهل اللغة أن يكون الإثم من أسماء الخمر ، انظر : «اللسان» : «أثم» ، «تاج العروس» : «أثم» .

(٤) أنشد هذا البيت أبو حيان في «البحر المحيط» (٤/ ٢٩٢) ولم يذكر قائله .

(٥) ذكر هذا البيت الأزهري في «تهذيب اللغة» : «أثم» ، وابن فارس في «معجم مقاييس اللغة» (١/ ٦١) ، وابن سيده في «المحكم» (١٠/ ١٨٧) ، والجوهري في «الصحاح» : «أثم» ، وأبو هلال العسكري في «التلخيص في معرفة أسماء الأشياء» (٢/ ٥٠٢) ، وابن منظور في «اللسان» : «أثم» ، والزبيدي في «التاج» : «أثم» ، وأنشده ابن العربي في «أحكام القرآن» (٢/ ٧٨٤) والقرطبي في «تفسيره» .

التاسعة والعشرون

الإلْحادُ في أسْمائِهِ وصِفَاتِهِ.

قالَ ـ سُبحانَه ـ في سورة «الأعراف»: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[1].

تَفسيرُ هذهِ الآيةِ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: تَنْبيهٌ للمُؤمِنينَ على كَيْفِيَّةِ ذِكْرِهِ ـ تَعالى ـ، وَكَيْفِيَّةِ المُعامَلَةِ مَعَ المُخِلِّينَ بِذلك الغافِلِينَ عَنه ـ سُبحانَه ـ، وَعَمَّا يَليقُ بِشأنِهِ، إِثْرَ بَيانِ غَفْلَتِهِمُ التَّامَّةِ وَضَلالَتِهِمُ الطَّامَّةِ.

﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾: إمَّا مِنَ الدَّعْوَةِ بِمعْنى التَّسْمِيَةِ، كَقَولِهِم: دَعَوْتُهُ زَيداً، أوْ بِزَيدٍ[2]، أيْ: سَمَّيْتُهُ، أو الدُّعاءِ بِمعْنىٰ النِّداءِ، كَقَولِهِمْ: دَعَوْتُ زيداً، أيْ: نادَيْتُهُ.

﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾. أيْ: يَميلونَ وَيَنْحَرِفون فيها عَنِ الحَقِّ إلى الباطِلِ، يُقال: أَلْحَدَ، إذا مالَ عَنِ القَصْدِ والاسْتِقامَةِ، ومِنه: لَحْدُ القَبْرِ؛ لِكَوْنِهِ في جانِبِهِ بِخلافِ الضَّريحِ، فإِنَّهُ في وَسَطِهِ.

والإلحادُ في أسمائِهِ ـ سبحانَه ـ أنْ يُسَمَّىٰ بِلا تَوْقيفٍ فيه، أوْ بِمَا يُوهِمُ معنىً فاسداً، كما في قولِ أهلِ البَدْوِ: يا أبا المَكارِمِ، يا أبيضَ الوجْهِ،

---

(١) الأعراف: (١٨٠).

(٢) في المطبوع «يزيد».

يا سَخِيُّ ، ونحو ذلك ، فالمُرادُ بِتَرْكِ المأمورِ بِهِ: الاجتنابُ عن ذلك ، وبأسمائِهِ ما أطْلَقوهُ عَلَيه ـ تَعالى ـ وَسَمَّوْهُ به على زَعْمِهِم ، لا أسماؤُه ـ تعالى ـ حَقيقَةً ، وعلى ذلك يُحمَلُ تَرْكُ الإضمارِ ، بأنْ يُقَالَ: يُلحِدون بِها[1].

وَقالَ ـ تَعالى ـ: ﴿ كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهَآ أُمَمٞ لِّتَتۡلُوَاْ عَلَيۡهِمُ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَهُمۡ يَكۡفُرُونَ بِٱلرَّحۡمَٰنِۚ قُلۡ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ مَتَابِ﴾[2].

وهذهِ الآيةُ في سورةِ «الرَّعْدِ».

عن قَتَادَةَ وابنِ جُرَيْجٍ ومُقاتِلٍ أنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في مُشْرِكي مَكَّةَ لَمَّا رَأوا كِتابَ الصُّلْحِ يومَ الحُدَيْبِيَةِ وقد كَتَبَ فيه عليٌّ ـ رَضِيَ اللهُ عنه ـ: «بِسْمِ اللهِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ» ، فَقَالَ سُهيلُ بنُ عَمْرٍو: ما نَعْرِفُ الرَّحمنَ إلاَّ مُسَيْلِمَةَ[3].

ومَنهم مَن قال: سَمِعَ أبو جَهْلٍ قولَ رسولِ اللهِ ﷺ: «يا أللهُ يا رحمْنُ» ، فقال: إنَّ محمَّداً يَنهانا عَن عبادةِ الآلهةِ وهو يَدعوا إلهَينِ ، فَنَزَلَتْ[4].

وعَن بعضِهِم أنَّه لَمَّا قِيلَ لِكُفَّارِ قُرَيشٍ: ﴿ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ ، قالوا: ﴿وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؟ فنَزَلَتْ[5].

---

(١) «روح المعاني» (٩/ ١٢١).
(٢) الرعد: (٣٠).
(٣) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٧٣) ، وابن الجوزي في «زاد المسر» (٤/ ٣٢٩) ، وابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٥١٥).
(٤) ذكر هذا الأثر البغوي في «تفسيره» (٣/ ١٩) ، وابن الجوزي في «تفسيره» (٤/ ٣٢٩).
(٥) ذكره البغوي في «تفسيره» (٣/ ١٩) ، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٧٣) ، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣٢٩) ، ونسبوه لابن عباس.

وقيلَ غَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَطولُ.

وَقَالَ ـ تَعالى ـ: ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[1].

وهذهِ الآيةُ إخبارٌ أنَّ أهلَ الجاهِلِيَّةِ كانوا يُلْحِدونَ في صِفاتِهِ، كما كانوا يُلحِدونَ في أسمائِهِ ـ تَعالى ـ.

أخْرَجَ أحمدُ[2] والبُخاريُّ[3] ومُسلِمٌ[4] والتِّرمذيُّ[5] والنَّسائِيُّ[6] وجماعةٌ عن ابن مسعودٍ، قالَ: «كُنتُ مُسْتَتِراً[7] بِأستارِ الكعبةِ، فجاءَ ثلاثةُ نَفَرٍ: قُرَشيٌّ وثَقَفِيّانِ، أو ثَقَفِيٌّ وقُرَشيانِ، كثيرٌ لحمُ بُطونِهِم، قَليلٌ فِقْهُ[8] قُلوبِهِم، فتَكَلَّموا بكلامٍ لمْ أسْمَعْهُ، فقال أحَدُهُم: أتَرونَ اللهَ يَسمعُ كلامَنا هذا؟ فقال الآخَرُ: إذا رَفَعْنا أصْواتَنا يَسْمَعُهُ، وإذا لم نَرْفَعْ لم

---

(١) فصلت: (٢١ ـ ٢٣).

(٢) في «مسنده» (١/ ٣٨١، ٤٠٨، ٤٢٦، ٤٤٢، ٤٤٣).

(٣) في «صحيحه» ـ كتاب التفسير ـ باب ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ـ (٦/ ٣٦)، وفي كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ـ (٨/ ٢٠٧).

(٤) في «صحيحه» ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ (٤/ ٥٠) ح ٢٧٧٥.

(٥) في «جامعه» ـ كتاب التفسير ـ باب ومن سورة حمٓ السجدة ـ (٥/ ٣٧٥) ح ٣٢٤٨، ٣٢٤٩.

(٦) في «السنن الكبرى» ـ كتاب التفسير ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ﴾ (٦/ ٤٥١) ح ١١٤٦٨.

(٧) في المطبوع «مستنداً».

(٨) في المطبوع «عفة».

يَسْمَعْ ، فقال الآخَرُ: إنْ سَمِعَ منه شَيئاً سَمِعَهُ كُلَّهُ. قال: فَذَكَرْتُ ذلك لِلنَّبيِّ ﷺ ، فَأَنْزَلَ اللهُ ـ تَعالى ـ: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ . . .﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

فهذا هو الإلحادُ في الصِّفاتِ.

وأنتَ تَعْلَمُ أنَّ ما عَليه أكثرُ المُتَكَلِّمينَ المُسلِمينَ مِنَ الإلحادِ في الأسماءِ والصِّفاتِ فَوْقَ ما كانَ عَلَيه أهلُ الجاهِلِيَّةِ ، فَسَمَّوا اللهَ بأسماءِ ما أنزلَ اللهُ بها مِن سُلطانٍ ، ومِنهم مَن قالَ: لَيسَ للهِ صِفاتٌ قامتْ بِهِ ، ومِنهم مَن قالَ: صِفَاتُه لَيْسَتْ عَيْنَ ذاتِهِ ولا غَيرَهُ ، ومِنهم مَن قالَ: إنَّ صفاتِهِ غيرهُ ، ومِنهم مَن قالَ: إنَّ اللهَ لم يتَكَلَّمْ بالكُتُبِ التي أنْزَلَها ، وَأَثْبَتوا لَه الكَلامَ النَّفسيَّ ، وأنَّه لم يُكَلِّم أحداً مِن رُسُلِهِ ، إلى غير ذلك من الإلحادِ الذي حَشَوا به كُتُبَهُمْ ، وملؤوها مِن الهَذَيانِ ، وَظَنُّوا أنَّ الآيةَ مُخْتَصَّةٌ بِأهلِ الجاهِلِيَّةِ ، ومَا دَرَوا أَنَّهُمُ الفَرْدُ الكامِلُ لعُمومِها.

ومَنْ بَصَّرَه اللهُ ـ تعالى ـ وَنَوَّرَ قَلْبَه ، أعْرَضَ عَن أخْذِ عَقَائِدِهِ مِن كُتُبِ هؤلاءِ الطوائفِ ، وتَلَقَّىٰ مَعْرِفَةَ إلٰهِهِ مِن كُتُبِ السَّلَفِ المُشْتَمِلَةِ على نُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّةِ.

* * *

الثلاثون

نِسْبَةُ النَّقائصِ إليه ـ سُبحانَه ـ كالولَدِ والحاجَةِ ، فإنَّ النَّصارى قالوا: ﴿ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾(١) ، وطائفةٌ مِن العَرَبِ قالوا: الملائكةُ بناتُ اللهِ ، وقومٌ مِن الفَلاسِفَةِ قالوا بِتَوليدِ العُقولِ ، وقومٌ مِنَ اليَهودِ قالوا: العُزَيْرُ ابنُ اللهِ ، إلى غير ذلك.

وقد نَزَّهَ اللهُ نَفْسَه عن كُلِّ ذلك ونَفاه:

بقوله: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴾(٢).

وبقوله: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ۝١٥١ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾(٣).

وقولِهِ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾(٤).

وهذا يَعُمُّ جميعَ الأنواعِ التي تُذْكَرُ في هذا البابِ عن بعضِ الأُمَمِ ، كما أنَّ ما نفاه من اتِّخاذِ الوَلَدِ يَعُمُّ ـ أيضاً ـ جميعَ أنواعِ الاتِّخاذاتِ ، لا اصطفاؤُه.

---

(١) التوبة: (٣٠).
(٢) الإخلاص: (١ ـ ٤).
(٣) الصافات: (١٥١ ـ ١٥٢).
(٤) الأنعام: (١٠٠ ـ ١٠١).

كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾(١).

قالَ السُّدِّيُّ: قالوا: إنَّ اللهَ ـ تَعالى ـ أوْحى إلى إسرائيلَ: إنَّ وَلَدَكَ بِكْرِي مِنَ الوَلَدِ، فَأُدْخِلُهُمُ النَّارَ، فَيَكونونَ فيها أربعينَ يوماً حَتَّى تُطَهِّرَهم وتأكلَ خطاياهم، ثم ينادي منادٍ: أخْرِجوا كلَّ مَخْتونٍ مِن بني إسرائيلَ(٢).

وقدْ قالَ اللهُ ـ تَعالى ـ: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾(٣).

وقالَ: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾(٤).

وقالَ ـ تَعالى ـ: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾(٥).

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ(٦) ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ

---

(١) المائدة: (١٨).

(٢) أخرجه ابن جرير بنحوه في «تفسيره» (٦/ ٦٤)، وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ٣٥) وزاد نسبته لابن أبي حاتم، وذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٣١٨)، والقرطبي في «تفسيره» (٦/ ١٢٠).

(٣) المؤمنون: (٩١).

(٤) الإسراء: (١١١).

(٥) الفرقان: (١ ـ ٢).

(٦) في المخطوط «يعلمون» وهو خطأ.

﴿فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

وقالَ ـ سُبحانه وتَعالى ـ: ﴿۞وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ[2] مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ﴾[3] إلى قولِهِ: ﴿وَيَجۡعَلُونَ[4] لِمَا لَا يَعۡلَمُونَ نَصِيبٗا﴾[5] إلى قولِهِ: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾[6].

وقالَ اللهُ ـ تَعالى ـ: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومٗا مَّدۡحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا ﴿٤١﴾ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا﴾[7].

وقالَ: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ﴾[8].

وقالَ: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ

---

(١) الأنبياء: (٢٦ ـ ٢٩).
(٢) الواو ساقطة من المخطوط، وهو خطأ.
(٣) النحل: (٥١ ـ ٥٢).
(٤) في المطبوع «وتجعلون» وهو خطأ.
(٥) النحل: (٥٦).
(٦) النحل: (٥٧).
(٧) الإسراء: (٣٩ ـ ٤٣).
(٨) الصافات: (١٤٩ ـ ١٦٣).

ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾[1].

إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾[2].

وقالَ ـ تَعالى ـ: ﴿وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ﴾[3].

قال بعضُ المفسِّرينَ: ﴿جُزۡءًاۚ﴾، أيْ: نصيباً وبعضاً[4].

وقال بعضُهم: جعلوا للهِ نصيباً من الولدِ[5].

وعن قَتادةَ[6] ومقاتلٍ: عِدْلاً.

وكلا القولَين صحيحٌ، فإنَّهم يَجْعَلون له وَلَداً، والولَدُ يُشْبِهُ أباهُ.

ولهذا قالَ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا﴾[7] أي: البَناتِ.

كما قالَ في الآيةِ الأخرى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ﴾[8].

فَقَدْ جَعَلوها لِلرَّحمٰنِ مَثَلاً، وَجَعَلوا لهُ مِنْ عِبادِه جُزْءاً، فَإِنَّ الولدَ جُزْءٌ مِنَ الوالِدِ، قالَ ﷺ: «إِنَّما فاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي»[9].

---

(١) النجم: (١٩ ـ ٢٣).
(٢) النجم: (٢٧).
(٣) الزخرف: (١٥).
(٤) انظر: «النكت والعيون» للماوردي (٥/ ٢١٩)، و«تفسير البغوي» (٤/ ١٣٥).
(٥) انظر: «زاد المسير» (٧/ ٣٠٥).
(٦) أخرجه عنه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ١٩٥)، وابن جرير في «تفسيره»، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ١٥)، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر.
(٧) الزخرف: (١٧).
(٨) النحل: (٥٨)، وقد ذكر في المطبوع تمام الآية.
(٩) جاء هذا اللفظ في عدة أحاديث، منها ما أخرجه مسلم في «صحيحه» ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ ـ (٤/ ١٩٠٣) ح ٢٤٤٩.

وقولُهُ في «الأنعامِ»: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[1].

قالَ الكَلْبِيُّ: «نَزَلَت في الزَّنادِقَةِ، قالوا: إِنَّ اللهَ وإبليسَ شَريكانِ، فاللهُ خالقُ النُّورِ والنَّاسِ والدَّوابِّ والأنعامِ[2]، وإبليسُ خالقُ الظُّلْمَةِ والسِّباعِ والحَيَّاتِ والعَقَارِبِ»[3].

وَأَمَّا قولُهُ: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾:

فَقيلَ: هو قولُهُم: الملائكةُ بناتُ اللهِ، وسُمِّيَ الملائكةُ جِنّاً؛ لاخْتِفائِهِم عَنِ الأبصارِ، وهو قولُ مُجاهِدٍ وقَتادةَ[4].

وقيلَ: قالوا لِحَيٍّ مِن الملائكةِ يُقالُ لَهُمُ: الجِنُّ، ومنهم إبليسُ: هم[5] بناتُ اللهِ[6].

وَقَال الكَلْبِيُّ: قالوا ـ لَعَنَهُم اللهُ ـ بَلْ بُذورٌ يَخْرُجُ مِنها الملائكةُ.

وقولهُ: ﴿وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾:

قالَ بعضُ المفسِّرينَ: هُم كُفَّارُ العَرَبِ، قالوا: الملائكةُ والأصنامُ بَناتُ اللهِ، واليَهودُ قالوا: عُزيرٌ ابنُ اللهِ[7].

والذين كانوا يَقولونَ مِن العَرَبِ: إنَّ الملائكةَ بناتُ اللهِ، وَمَا نُقِلَ عَنهم

---

(١) الأنعام: (١٠٠).

(٢) «والأنعام» ساقطة من المطبوع.

(٣) ذكر هذا الأثر البغوي في «تفسيره» (٢/ ١١٩)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ٢٢١)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٣/ ٩٦).

(٤) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٤).

(٥) في المخطوط «وهم».

(٦) ذكره البغوي في «تفسيره» (٤/ ٤٤) ونسبه لابن عباس.

(٧) وهذا قول السدي كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٧) وعزاه لابن أبي حاتم.

مِن أنَّه صاهَرَ الجِنَّ ، فوَلَدَتْ له الملائكةَ ، فقَد نَفاه عنه بامْتِناعِ الصَّاحِبَةِ ، وبامتناعِ أنْ يكونَ منه جُزْءٌ ، فإنَّه صَمَدٌ.

وقولهُ: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ ، وَهذا لأنَّ الوِلادةَ لا تكونُ إلاَّ مِن أصْلَين ، سَواءٌ في ذلكَ تولُّدُ الأعيانِ ـ وَتُسَمَّى الجواهِرَ ـ وَتَوَلُّدُ الأعراضِ والصِّفاتِ ، بَلْ وَلا يَكونُ تولُّدُ الأعْيانِ إلاَّ بانفصالِ جُزْءٍ مِن الوالِدِ[1] ، فإذا امتَنَعَ أنْ تكونَ لَه صاحبةٌ ، امْتَنَعَ أنْ يَكونَ لَه وَلَدٌ ، وقد عَلِموا كُلُّهُم أنْ لا صاحِبَةَ له ، لا مِن الملائكةِ ، ولا مِن الجِنِّ ، ولا مِنَ الإنْسِ ، فلم يَقُلْ أحَدٌ مِنْهُم: إنَّ له صاحِبَةً؛ فَلِهذا احْتَجَّ بِذلكَ عَلَيهم ، وما حُكِيَ عَن بعضِ كُفَّارِ العَرَب أنَّهُ صاهَرَ الجِنَّ ، فهذا فيه نَظَرٌ ، وذلكَ إنْ كانَ قَدْ قيلَ ، فهوَ مِمَّا يُعْلَمُ انْتِفاؤهُ مِن وُجوهٍ كَثيرةٍ ، وكذلك ما قالَتْهُ النَّصارى مِن أنَّ المَسيحَ ابنُ اللهِ ، وما قالَه طائفةٌ مِنَ اليهودِ أنَّ العُزَيْرَ ابنُ اللهِ ، فإنَّه قد نَفاه ـ سُبحانه ـ بِهذا وَهذا[2] .

وتَمامُ الكَلامِ في هذا المَقامِ في كتابِ «الجَوابِ الصَّحيح لِمَنْ بَدَّلَ دِيْنَ المَسيحِ»[3] ، و«تَفْسير سورةِ الإخلاص»[4] وَغَيرِهِما مِن كُتُبِ شيخِ الإسلامِ تقيِّ الدِّينِ ـ قدس الله روحه ـ.

* * *

---

(١) في المطبوع «الولد» ، وما ذكرته موافق لما ذكره شيخ الإسلام في «تفسير سورة الإخلاص» (١٧/ ٢٧٢).

(٢) في المطبوع «بهذا».

(٣) (٣/ ٢٠٢ ـ ٢١٢).

(٤) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (١٧/ ٢٦٨ ـ ٢٧٦).

الحادية والثلاثون

تنْزِيهُ المَخْلوقِ عمَّا نَسَبوه لِلخالِقِ ، مِثْلُ: تَنزيهِ أحبارِهِم عَنِ الوَلَدِ والحاجَةِ؛ لأنهم يَقولونَ: إنَّ الرَّاغِبينَ في استِحصالِ الكَمالاتِ كالرُّهبانِ وأضْرابِهم يَتَرَفَّعون عَن أن يَتَدَنَّسوا بِدَناءَة التَّمتُّعِ بالنِّساءِ ، اقتداءً بِالمَسيحِ ـ عليه السلامُ ـ.

فانْظُرْ إلى سَخافةِ العُقولِ وما قادَهُم إليه ضَلالُهم حَتَّى اعتَرَضوا على سَيِّدِنا ومولانا مُحمَّدٍ ﷺ في زَواجِهِ.

وما أحْسَنَ ما قَالَه الفاروقِيُّ رداً على بعضِ أحبارِ النَّصارَى :

قُل لِلفِرِسْنَلِ قُدْوَةِ الرُّهبانِ ... الجاثَليقِ[1] البِتْرِكِ الرَّبَّاني
أنتَ الذي زَعَمَ الزَّواجَ نَقيصَةً ... مِمَّن حَماهُ اللهُ عَنْ نُقْصانِ
وَنَسيتَ تَزْويجَ الإلٰهِ بِمَرْيَمٍ ... في زَعْمِ كُلِّ مُثَلِّثٍ نَصْراني[2]

(١) الجاثليق ـ بفتح الثاء المثلثة ـ: رئاسة دينية للنصارى في بلاد المسلمين.
انظر: «معجم المصطلحات والألقاب التاريخية» مصطفى الخطيب (ص ١١٧).

(٢) ذكر هذه الأبيات نعمان الألوسي في «الجواب الفسيح لما لفَّقه عبد المسيح» (١/ ٥١٢) ونسبها للفاروقي.
والفرسنل الذي ذكره الفاروقي كان من مشهوري مدرسي النصارى ، ورد بغداد عام ١٢٦٩ هـ ، وأورد على محمد الألوسي والد نعمان أسئلة كان من ضمنها سؤاله عن زواج النبي ﷺ ، وزعمه أن ذلك ينافي الكمال ، فأجابه الألوسي بأجوبة مسكتة.
انظر: «الجواب الفسيح» (١/ ٥١١ ـ ٥١٢).

ومَن جَعَلَ مِنَ العَرَبِ الملائكةَ بناتِ اللهِ ، كانَ يأْنَفُ مِنْهُنَّ ، وَسَنَّ وَأْدَهُنَّ وَقَتْلَهُنَّ ، وَنَسَبوا للهِ ما يَكرهونَ.

والمقصودُ أنَّ هذهِ المَقَالاتِ وأشباهَها مَنْشَؤها الجهلُ بِما جاءَت بهِ الرُّسُلُ ، وعَدَمُ تَحْكيمِ العَقْلِ ، وإلاَّ فأهلُ البصائِرِ لا يَتَطَرَّقُ إليهم هذا الخَلَلُ ، واللهُ الموَفِّقُ.

* * *

الثانية والثلاثون

القولُ بِالتَّعطيلِ ، كما كانَ يقولُه آلُ فِرْعَونَ .

والتَّعطيلُ : إنكارُ أنْ يكونَ لِلعالَم صانِعٌ[1] ، كما قال فرعونُ لِقومِهِ: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[2] ، ونحو ذلكَ .

ولم يَخْلُ العالَمُ عن مثلِ هذهِ الجَهالاتِ في كُلِّ عَصْرٍ مِنَ العُصورِ .

وأبناءُ هذا الزَّمانِ - إلاَّ النَّادِرَ - على هذهِ العَقيدةِ الباطِلَةِ . ولو نَظَروا بعينِ الإنصافِ والتَّدَبُّرِ ، لَعَلِموا أنَّ كُلَّ مَوجودٍ في العالَمِ يَدُلُّ على خالِقِهِ وبارِئِهِ :

وَفي كُلِّ شَيءٍ لَهُ آيَةٌ ... تَدُلُّ على أَنَّهُ واحِدُ[3]

ومِنْ أينَ لِلطَّبيعَةِ إيجادُ مِثْلِ هذهِ الدَّقائقِ التي نَجِدُها في الآفاقِ والأنْفُسِ ، وهي عَديمَةُ الشُّعُورِ لا عِلْمَ لَها وَلا فَهْمَ ؟! تعالى اللهُ عَمَّا يَقولونَ عُلوّاً كَبيراً .

* * *

---

(١) انظر في التعطيل وأنواعه : «الجواب الكافي» لابن القيم (ص ١٥٣) .

(٢) القصص : (٣٨) .

(٣) هذا البيت لأبي العتاهية كما في ديوانه (ص ٦٢) .

الثالثة والثلاثون

الشَّرْكَةُ في المُلْكِ ، كما تَقولُهُ المَجوسُ .

والمجوسُ أُمَّةٌ تُعَظِّمُ الأنوارَ والنِّيرانَ والماءَ والأرضَ ، ويُقِرُّونَ بِنُبُوَّةِ زرادِشْتَ ، وَلَهُمْ شَرائِعُ يَصيرونَ إليها .

وهم فِرَقٌ شتَّى :

مِنهم المَزْدَكِيَّةُ أصحابُ مَزْدَكَ المُوْبَذ[1] . والمُوْبَذُ ـ عندهم ـ : العالِمُ القُدوةُ . وهؤلاءِ يَرونَ الاشتِراكَ في النِّساءِ والمَكاسِبِ كما يُشْتَرَكُ في الهَواءِ والطُّرُقِ وغيرِها .

ومِنهم الخُرَّمِيَّةُ : أصحابُ بابِكَ الخُرَّمِيِّ[2] ، وهُمْ شَرُّ طوائِفِهم ،

---

(١) وهو رجل إباحي ، ظهر زمن قباذ ، وادعى النبوة ، ثم دعا الناس إلى الاشتراكية في كل شيء ، وإلى الإباحية؛ لأنه زعم أن أكثر ما يقع بين الناس من البغضاء والمخالفة إنما سببه النساء والأموال؛ لذا أحلهما ، وجعل الناس فيها شركاء ، فأجابه قباذ ، ثم قتله أنوشروان.
انظر : «تاريخ اليعقوبي» (١/ ١٦٤) ، «تاريخ ابن جرير» (٢/ ٩٢ ـ ٩٣) ، «الفهرست» للنديم (ص ٤٠٦) ، «الفصل» (٢/ ٢٧٤) ، «الملل والنحل» (١/ ٢٤٩) ، «البدء والتاريخ» (٣/ ١٦٧ ـ ١٦٨) ، «تلبيس إبليس» (٨٨) ، «الكامل في التاريخ» (١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢) ، «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (ص ٨٩) ، «المختصر في أخبار البشر» (١/ ٥١) ، «تاريخ ابن خلدون» (٢/ ١٧٦) ، «أخبار الدول وآثار الأول» للقرماني (٣/ ١٥٢).

(٢) بابك الخرمي: من مجوس فارس ، ادعى الإسلام ، وتسمى بالحسن أو الحسين ، =

لا يُقِرُّونَ بِصانِعٍ ولا مَعادٍ ولا نُبُوَّةٍ ولا حَلالٍ ولا حَرامٍ.

وعلى مذهبِهِم طوائِفُ القَرامِطَـةِ[1] والإسماعيليَّـةِ[2] والنُّصَيْرِيَّـةِ[3]

= وخرج في بعض الجبال بناحية أذربيجان أيام المعتصم العباسي ، وتآمر معه أحد أبناء ملته وهو الإفشين قائد جند المعتصم ، وخافه الناس ، واشتدت وطأته على المسلمين ، وطالت أيامه ، حتى تمكن المعتصم من أسره ، ثم صلبه.

(١) القرامطة: إحدى الطوائف الباطنية ، وتنسب إلى رجل اسمه «حمدان قرمط» ، وقيل: بل تنسب إلى رئيس لهم يلقَّب «قرمطويه» ، لهم بدع كثيرة منها: القول بنبوة عبد الله بن الحارث الكندي وعبادته ، والقول بتناسخ الأرواح ، كان لهم دولة في الأحساء.

انظر في شأنها: «مقالات الإسلاميين» (١/ ١٠٠) ، «التنبيه والرد» للملطي (ص ٢٠) ، «فرق الشيعة» للنوبختي (ص ٧٢) ، «التبصير في الدين» للإسفراييني (ص ١٤١) ، «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (ص ٧٩) ، «البرهان» للسكسكي (ص ٨٠) ، «مختصر التحفة الاثني عشرية» (ص ١٨).

(٢) الإسماعيلية: إحدى فرق الباطنية ، تنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، الذي مات في حياة والده ، لهم بدع كثيرة ، منها تأليه أئمتهم ، والقول بالتناسخ ، والحلول ، وهي من الفرق الباطنية التي لا تزال موجودة.
انظر في شأنها: «مقالات الإسلاميين» (١/ ١٠٠) ، «التنبيه والرد» (ص ١٤١) ، «فرق الشيعة» (ص ٦٨).

«الفرق بين الفرق» (١/ ١٩٢) ، «الاعتقادات» (ص ٥٤) ، «البرهان» (ص ٨١) ، «مذاهب الفرق» لليافعي.

(٣) النصيرية: إحدى فرق الباطنية ، تنسب إلى نصير مولى علي بن أبي طالب ، وقيل: إلى ابن نصير ، وقيل: إلى أبي شعيب محمد بن نصير مولى الحسن العسكري ، لهم بدع كثيرة منها: القول بالباطن ، والقول بحلول الإله في علي وبنيه ، وهي من الطوائف التي لا تزال موجودة.

انظر في شأنها: «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم (٥٠) ، «الملل والنحل» (١/ ١٨٨) ، «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (ص ٦١) ، «البرهان» (ص ٦٧) ، «مذاهب الفرق الثنتين والسبعين فرقة» (ص ١٢٢) ، «مختصر التحفة الاثني عشرية» (ص ١٥).

والكَيْسَانِيَّـةِ[1] والزُّرَارِيَّـةِ[2] والحاكِمِيَّـةِ[3] وسائِرِ العُبَيْدِيَّـةِ الذين يُسَمُّونَ أنفُسَهم «الفاطِمِيَّةَ» ، فكُلُّ هؤلاءِ يَجمعُهُم هذا المَذْهَبُ ، ويَتَفاوَتونَ في التَّفصيلِ.

فالمجوسُ شُيوخُ هؤلاءِ كلِّهم وأئمتُهم وقُدوتُهم ، وإن كانَ المَجوسُ قد يَـتَـقَيَّدون بأصلِ دِينهم وشَرائِعِهِم ، وهؤلاءِ لا يَتَقَيَّدونَ بِدينٍ مِنْ دياناتِ العالَمِ ولا بِشَرِيعَةٍ مِن شرائِعِه.

* * *

---

(١) الكيسانية: إحدى طوائف الرافضة الضالة ، تنسب إلى كيسان ، وقد اختلف في كيسان من يكون؟ فقيل: إنه مولى لأمير المؤمنين علي ، وقيل: هو لقب للمختار بن أبي عبيد الثقفي ، وقيل: لقب لمحمد بن الحنفية ، لهم بدع كثيرة ، منها الغلو في محمد بن الحنفية ، وتأليهه ، ومنها القول بالتناسخ ، والحلول ، والرجعة ـ قبل القيامة ـ بعد الموت ، وتأويل الشريعة.
انظر في شأنها: «مقالات الإسلاميين» (١/ ٩١) ، «الفرق بين الفرق» (ص ٣٨) ، «التبصير في الدين» (ص ٣٠)، «الملل والنحل» (١/ ١٤٧)، «البرهان» (ص ٧٠) ، «مذاهب الفرق» (ص ١١٩) ، «خبيئة الأكوان» لصديق حسن خان (ص ٣٠).

(٢) الزرارية: إحدى طوائف الروافض ، ويدعون «التيمية» ، وهم أتباع زرارة بن أعين ، لهم بدع كثيرة ، منها: الغلو في الأئمة وتأليههم ، والقول بحدوث صفات الله ، وأنها كصفات الأجسام.
انظر في شأنها: «مقالات الإسلاميين» (١/ ١٠٢) ، «الفرق بين الفرق» (ص ٧٠) ، «التبصير في الدين» (ص ٤٠ ، ١٢١) ، «مختصر التحفة الاثني عشرية» (ص ١٧).

(٣) في المطبوعة «الحكمية».
والحاكمية: هي طائفة الدروز ، وهي من الطوائف الباطنية ، وتنسب إلى الحاكم العبيدي المتسمي «الحاكم بأمر الله»، لهم بدع كثيرة، منها: القول بتأليه الحاكم ، وأن للشريعة باطناً وظاهراً، والأخذ بدين المجوس. وهي من الطوائف التي لا تزال موجودة.
انظر في شأنها: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٣٤/ ١٦١ ـ ١٦٢) ، «تاريخ المذاهب الإسلامية» لأبي زهرة (١/ ٥٧) ، «أضواء على العقيدة الدرزية» لأحمد الفوزان ، «عقيدة الدروز» د. محمد الخطيب.

الرابعة والثلاثون

إنكارُ النُّبُوَّاتِ ، وَكانوا يَقولون: ما حَكى اللهُ عنهم بقولِهِ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٠ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ يَجعلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبدُونَهَا وَيُخفُونَ[1] كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ﴾[2] .

تَفْسيرُ هذه الآيةِ: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ شروعٌ في تَقْريرِ أمْرِ النُّبُوَّةِ ، بَعْدَ ما حَكى اللهُ ـ سبحانَه ـ عن إبراهيمَ ـ عليه السَّلامُ ـ أنَّه ذَكَرَ دَليلَ التَّوحيدِ وإبطالِ الشِّرْكِ ، وَقَرَّرَ ـ سبحانَه ـ ذلكَ بأوضحِ الدَّليلِ[3] وبِأوْضَحِ وَجهٍ.

﴿ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ ﴾ ، أيْ: حَقَّ مَعرفَتِهِ[4] .

وعن بعضِهِم: ما عَظَّموا اللهَ حَقَّ تَعظِيمِهِ[5] ، إذْ قالوا منْكِرينَ لبعثةِ

---

(١) قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَجعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبدُونَهَا وَيُخفُونَ﴾ كذا في المخطوط ، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو.
انظر: «المبسوط في القراءات العشر» لابن مهران (ص ١٧٢).

(٢) الأنعام: (٩٠ ـ ٩١).

(٣) في المطبوع «بأفصح الدليل».

(٤) وهذا قول أبي عبيدة معمر بن المثنى كما في: «مجاز القرآن» (١/ ٢٠٠) ، وانظر: «النكت والعيون» (٢/ ١٤١) ، و«زاد المسير» (٣/ ٨٣).

(٥) وهذا قول ابن عباس كما في «زاد المسير» (٣/ ٨٣) ، وأبي مالك أخرجه عنه =

الرُّسُلِ وإنزالِ الكُتُبِ ، كافِرِينَ بِنعمةِ اللهِ الجَليلةِ فِيهما : ﴿ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ ﴾ ، أي : شَيئاً مِن الأشياءِ .

واختُلِفَ في قائِلي ذلكَ القَولِ الشَّنيعِ : فَعَن مُجاهِدٍ أنَّهم مُشرِكو قُريشٍ[(١)] ، والجمهورُ على أنَّهمُ اليَهودُ[(٢)] ، ومُرادُهُم مِن ذلِكَ الطَّعْنُ في رِسالتِهِ ﷺ على سَبِيلِ المُبالَغَةِ .

فَقيلَ لَهم على سَبيلِ الإلزامِ : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾ ، فإنَّ المُرادَ أنَّه ـ تَعالى ـ قَد أنْزَلَ التَّوراةَ على موسى ـ عَلَيه السَّلامُ ـ وَلا سَبيلَ لَكُم إلى إنكارِ ذلِكَ ، فَلِمَ لا تُجَوِّزونَ إنزال القُرآنِ على مُحمَّدٍ ﷺ؟

والكلامُ في إثْباتِ النُّبُوَّةِ مُفَصَّلٌ في غيرِ هذا الموضِعِ .

والمقصودُ أنَّ إنكارَها مِن سَنَنِ الجاهِليَّةِ ومَعارِفِهِم[(٣)] . وفي النَّاسِ اليومَ[(٤)] كَثيرٌ مِمَّن هو على شاكِلَتِهِم ومُعْوَجِّ طَرِيقَتِهِم[(٥)] .

* * *

= أبو حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤١) رقم (٧٥٩٠) من طريق السدي ، وهو قول الحسن كما في «النكت والعيون» (٢/ ١٤١) ، و«زاد المسير» (٣/ ٨٣) ، والفراء «في معاني القرآن» (١/ ٣٤٣) ، والزجاج في «معاني القرآن وإعرابه» (٢/ ٢٧١) .

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤/ ١٣٤١) ، وأبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣٩) .

(٢) انظر : «تفسير البغوي» (١/ ١١٥) .

(٣) «ومعارفهم» ساقط من المطبوع .

(٤) «اليوم» ساقط من المخطوط .

(٥) في المطبوع «طريقهم» .

الخامسة والثلاثون

جحودُ(١) القَدَرِ ، والاحْتِجاجُ بِهِ على اللهِ ـ تَعالى ـ وَمُعارَضَةُ شَرْعِ اللهِ بِقَدَرِ اللهِ.

وهذهِ المَسألَةُ مِن غَوامضِ مَسائلِ الدِّينِ ، والوُقوفُ على سِرِّها عَسِرٌ إلاَّ على من وَفَّقَه اللهُ ـ تَعالى ـ.

ولابنِ القَيِّمِ كِتابٌ جَلِيلٌ في هذا البابِ سَمَّاه «شِفاءَ العَليل في القَضاءِ والقَدَر والحِكْمَةِ والتَّعْليلِ».

وقد أبْطَلَ اللهُ ـ سُبحانَه ـ هٰذهِ العَقيدةَ الجاهِلِيَّةَ بِقولِهِ ـ تَعالى ـ: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ(٢) شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(٣).

تَفسيرُ هذه الآيـةِ: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ﴾: حِكايةٌ لفَـنٍّ آخَرَ مِن أباطِيلِهِم.

---

(١) في المخطوط «حجة» ، والتصويب من النسخ الخطية لمسائل الجاهلية.

(٢) في المخطوط «ولو» ، وهو خطأ.

(٣) الأنعام: (١٤٨ ـ ١٤٩).

﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ : لَمْ يُرِيدوا بِهذا الكَلامِ الاعتذار عَنِ ارْتِكابِ القَبيحِ؛ إذْ لم يَعْتَقِدوا قُبحَ أفعالِهم ، بل هُم - كما نَطَقَتْ بِهِ الآياتُ - يَحْسَبونَ أنَّهم يُحْسِنونَ صُنعاً ، وأنَّهم إنَّما يَعْبُدونَ الأصنامَ لِيُقَرِّبوهُم إلى اللهِ زُلْفى ، وأنَّ التَّحريمَ إنما كانَ مِن اللهِ - عزَّ وجَلَّ - ، فَما مرادُهُم بِذلك إلاَّ الاحتجاجُ على أنَّ ما ارْتَكَبوهُ حَقٌّ ومَشروعٌ وَمَرْضِيٌّ عند اللهِ - تَعَالى - على أنَّ المشيئةَ والإرادةَ تُساوي الأمرَ ، وتَسْتَلْزِمُ الرِّضى[1] ، كما زَعَمَتِ المُعْتَزِلَةُ[2] ، فَيَكونُ حاصِلُ كَلامِهِم: أنَّ ما نَرْتَكِبُهُ مِنَ الشِّرْكِ والتَّحريمِ وغيرِهما تَعَلَّقَتْ بِهِ مَشيئَتُهُ - سُبحانَه - وإرادَتُه ، فَهو مَشروعٌ ومَرْضِيٌّ عندَ اللهِ - تَعالى - .

وبَعْدَ أنْ حَكى - سُبحانهُ وتَعالى - ذلكَ عَنهم ، رَدَّ عَلَيْهِم بِقولِهِ - عَزَّ مِنْ قائِلٍ -: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ ، وهم أسلافُهُم المُشرِكونَ.

وحاصِلُهُ: أنَّ كلامَهم يَتَضَمَّن تكذيبَ الرُّسُلِ - عليهم السلام - .

وَقَد دَلَّتِ المُعْجِزَةُ على صِدْقِهِم.

---

(١) انظر: «المغني في أبواب العدل والتوحيد» للقاضي عبد الجبار (٦/ القسم الثاني/ ص ٥١ ، ٥٤).

(٢) المعتزلة: فرقة ظهرت في الإسلام أوائل القرن الثاني ، وسلكت منهجاً عقلياً متطرفاً في بحث العقائد الإسلامية ، لهم بدع كثيرة ، منها ما ابتدعوه من أصولهم الخمسة: وهي التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وهم فرق شتى.
انظر في شأنها: «مقالات الإسلاميين» (١/ ٢٣٥) ، «التنبيه والرد» (ص ٣٥) ، «الفرق بين الفرق» (ص ١١٤) ، «الملل والنحل» للبغدادي (ص ١٨٣) ، «الفصل» (٥/ ٥٧) ، «التبصير في الدين» (ص ٦٣) ، «الملل والنحل» (١/ ٤٣) ، «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (ص ٣٨) ، «البرهان» (ص ٤٩) ، «مذاهب الفرق» (ص ٤٩) ، «خبيئة الأكوان» (ص ١٥).

أو نَقُولُ: حاصِلُهُ: أنَّ ما شاءَ اللهُ يَجِبُ، وما لَمْ يَشَأْ يَمْتَنِعُ، وكُلُّ ما هذا شأنُه فلا تكليفَ بِهِ؛ لِكونِهِ مَشروطاً بالاسْتِطاعةِ، فَيَنْتُجُ: أنَّ ما ارْتَكَبَهُ مِن الشِّركِ وغيرِهِ، لَم يُكَلَّفْ بِتَرْكِهِ، ولمْ يُبْعَثْ لَهُ نَبِيٌّ، فَرَدَّ اللهُ ـ تعالى ـ عَلَيهم بأنَّ هذهِ كَلِمَةُ صِدْقٍ أُريدَ بِها باطِلٌ؛ لأنَّهم أرادوا بِها أنَّ الرُّسُلَ ـ عليهم السلام ـ في دَعْواهُمُ البِعْثَةَ والتَّكليفَ كاذِبونَ، وقَد ثَبَتَ صِدْقُهُم بِالدَّلائِلِ القَطْعِيَّةِ، ولِكَوْنِ[1] ذَلِكَ صِدْقاً أُريدَ بِه باطِلٌ، ذَمَّهُمُ اللهُ ـ تَعالى ـ بِالتَّكْذِيبِ.

وَوجوبُ وُقوعِ مُتَعَلَّقِ المَشيئَةِ لا يُنافِي صِدقَ دَعْوى البِعثةِ والتَّكليفِ؛ لأنَّهما لإظهارِ المَحَجَّةِ وإبلاغِ الحُجَّةِ.

﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾، أيْ: نالوا عَذَابَنا الذي أنْزَلْناهُ عَلَيهم بِتكْذِيبِهم، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ لهم عَذاباً مُدَّخَراً عِندَ اللهِ ـ تعالى ـ؛ لأنَّ الذَّوقَ أوَّلُ إدْراكِ الشَّيء.

﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾، أيْ: هلْ لَكُمْ مِنْ عِلْمٍ بأنَّ[2] الإشراكَ وسائِرَ ما أنتُم عَلَيه مَرْضِيٌّ للهِ ـ فَتُظْهِروهُ لَنا بِالبُرْهانِ؟

وهذا دَليلٌ على أنَّ المُشرِكينَ أُمَمٌ اسْتَوجَبُوا التَّوبيخَ على قولِهم ذلك؛ لأنَّهم كانوا يَهْزَؤونَ بالدِّينِ، ويَبْغونَ رَدَّ دَعْوةِ الأنبياءِ ـ عليهم السلامُ ـ حَيْثُ قَرَعَ مَسامِعَهم مِن شَرائعِ الرسُلِ ـ عليهم السلامُ ـ تَفْويضُ الأمورِ إلَيْهِ ـ سُبحانَه وتَعالى ـ، فَحينَ طالَبوهُم بِالإسلامِ، والتزامِ الأحكام، احْتَجُّوا عَلَيهم بِما أخذوه مِن كَلامِهِم مُسْتَهْزِئينَ بِهِم ـ عليهم الصَّلاة والسَّلامُ ـ، ولم يَكُنْ غَرَضُهُمْ ذِكْرَ ما يَنْطَوي عَلَيْه عِقْدُهُم، كَيفَ لا والإيمانُ بِصفاتِ

---

(١) في المطبوع: «ولكونه».
(٢) في المخطوط: أي.

اللهِ ـ تَعالى ـ فَرْعُ الإيمانِ بِهِ ـ عَزَّ شَأْنُهُ ـ وَهُو عَنهم مناطُ العَيُّوقِ[١].

﴿إن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ، أيْ : تَكْذِبونَ على اللهِ ـ تَعالى.

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ ، أيْ: البَيِّـنَـةُ الواضِحَةُ التي بَلَغَتْ غايَـةَ المَتانَـةِ والقُوَّةِ على الإثباتِ. والمُرادُ بِها في المَشهورِ: الكتابُ والرَّسولُ والبَيانُ.

﴿فَلَوْ[٢] شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾: بِالتَّوفيقِ لَها ، والحَمْلِ عَليها ، وَلٰكِنْ شاءَ هِدايَةَ البَعْضِ الصَّارِفينَ اختِيارَهُم إلى سُلوكِ طَريقِ الحَقِّ ، وَضَلالَ آخَرينَ صَرَفوه إلى خِلافِ ذلكَ.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ ذَكَرَ وَجْهاً آخَرَ في توجيهِ ما في الآيةِ ، وهو أنَّ الرَّدَّ عَليهم إنَّما كانَ لاعْتِقادِهِم أنَّهم مُسَلِّمونَ اختِيارَهم وقُدْرَتَهم ، وأنَّ إشراكَهم إنَّما صَدَر مِنهم على وجْـهِ الاضْطرارِ ، وَزَعَموا أنَّهم يُقيمونَ الحُجَّة على اللهِ ـ تَعالى ـ ورسولِهِ ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ بِـذلك، فَرَدَّ اللهُ ـ تَعالى ـ قولَهم في دَعْواهُم عَدَمَ الاخْتيارِ لأنفُسِهِم ، وَشَبَّهَهُمْ بِمَنِ اغْتَرَّ قَبْلَهُم بِهذا الخَيالِ ، فَكَذَّبَ الرُّسُلَ ، وَأَشْرَكَ بِاللهِ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ، واعْتَمَدَ على أنَّه إنَّما يَفْعَلُ ذلك بِمَشِيْئَةِ اللهِ ـ تَعالى ـ وَرَامَ إفْحامَ الرُّسُلِ بِهٰذِهِ الشُّبْهَةِ.

ثُمَّ بَيَّنَ ـ سُبحانَه ـ أنَّهم لا حُجَّةَ لَهم في ذلكَ ، وأنَّ الحُجَّةَ البالِغَةَ لَه ـ تَعالى ـ لا لَهم ، ثُمَّ أوْضَحَ ـ سُبحانَه ـ أنَّ كُلَّ واقعٍ واقعٌ بِمشيئَتِهِ ، وأنَّه

---

(١) العَيُّوق: كوكب أحمر مضيء، بحيال الثريا من ناحية الشمال ، ويطلع قبل الجوزاء ، سمي بذلك لأنه يعوق الدبران عن لقاء الثريا.
«لسان العرب» «عيق».

(٢) في المخطوط: «ولو» وهو خطأ.

لم يَشَأ مِنهمْ إلاَّ ما صَدَرَ عَنهم ، وأنَّه ـ تَعالى ـ لو شاءَ مِنهمُ الهِدايةَ لاهْتَدَوا أجْمَعونَ[1].

والمقصودُ أنْ يَتَمَحَّضَ وجهُ الرَّدِّ عَليهم ، وَتَتَخَلَّصَ عَقيدةُ نُفوذِ المشيئةِ[2] وعُموم تَعَلُّقِها[3] بِكُلٍّ كائنٍ عن الرَّدِّ ، وَيَنْصَرِفَ الرَّدُّ إلى دَعواهُم سَلْبَ الاخْتِيارِ لأنفُسِهِم ، وأنَّ إقامَتَهم الحُجَّةَ بذلك خاصَّة .

وإذا تَدَبَّرْتَ الآيةَ وَجَدْتَ صَدرَها دَافِعاً لِصُدورِ الجَبْرِيَّةِ ، وعَجُزَها مُعْجِزاً للمُعْتَزِلَةِ ، إذِ الأوَّلُ مُثْبِتٌ أنَّ لِلْعَبْدِ اختياراً وقُدْرَةً على وجْهٍ يَقْطَعُ حُجَّتَه وعُذْرَهُ في المُخالَفَةِ والعِصيانِ ، والثَّاني مُثْبِتٌ نُفوذَ مَشيئَةِ اللهِ ـ تَعالى ـ في العبدِ ، وأنَّ جَميعَ أفعالِهِ على وَفْقِ المَشيئةِ الإلٰهيَّةِ ، وبذلكَ تَقومُ الحُجَّةُ البالغة[4] لأهلِ السُّنَّةِ على المُعتزلةِ ، والحمدُ لله ربِّ العالَمينَ .

ومِنهم مَن وجَّهَ الآيةَ بأنَّ مرادَهم رَدُّ دعوةِ الأنبياءِ ـ عليهم السلام ـ على مَعنى أنَّ اللهَ ـ تَعالى ـ شاءَ شِرْكَنا ، وَأرادَهُ مِنَّا ، وَأنْتُم تُخالِفونَ إرادَتَه ، حَيثُ تَدعونا إلى الإيمانِ ، فَوَبَّخَهُم ـ سُبحانَه وَتَعالى ـ بِوُجوهٍ عِدَّةٍ[5] :

منها : قولُه ـ سُبحانَه ـ : ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ ، فإنَّه بِتقديرِ الشَّرطِ ، أيْ : إذا كانَ الأمرُ كما زَعَمْتُم ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ .

---

(١) في المخطوط «أجمعون» .

(٢) في المخطوط والمطبوع «السنة» ، والتصويب من «روح المعاني» الذي نقل المؤلف عنه تفسير هذه الآيات .

(٣) في المخطوط والمطبوع «تغلغلها» ، والتصويب من «روح المعاني» .

(٤) «البالغة» ليست في المطبوع .

(٥) في «المخطوط «عد» ولعل الصواب ما في المطبوع .

وقولُه ـ سبحانَه ـ: ﴿فَلَوْ[1] شَآءَ﴾ بَدَلٌ[2] منه على سَبيلِ البَيانِ ، أيْ: لَو شاءَ لَدَلَّ كُلاًّ منكم ومِنْ مَخالِفيكم على دينِهِ ، لَو كانَ الأمرُ كَما تَزْعُمونَ، لَكان الإسلامُ ـ أيضاً ـ بِالمشيئةِ ، فَيَجبُ أنْ لا تَمْنَعوا[3] المُسلِمينَ من الإسلامِ ، كما وَجَبَ بِزعمكم ألا يمنَعَكُم الأنبياءُ عن الشِّركِ ، فَيَلْزَمُكُم أنْ لا يكونَ بَيْنَكم وَبَيْنَ المُسْلِمينَ مُخالَفَةٌ ومُعاداةٌ ، بَلْ موافَقَةٌ وموالاةٌ.

وحاصِلُه: أنَّ ما خالَفَ مَذْهَبَكم مِنَ النِّحَلِ يَجِبُ أنْ يَكونَ عِندكم حَقّاً؛ لأنَّه بِمشيئةِ اللهِ ـ تَعالى ـ فَيَلْزَمُ تصحيحُ الأديانِ المُتناقِضَةِ.

وَفي سورةِ «النَّحْلِ»: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[4].

الكلامُ عَلى هذِهِ الآيةِ كالكَلام على الآية السَّابِقةِ ، وَلا تَراهُمْ يَتَشَبَّثونَ بِالمشيئةِ إلاَّ عِنْدَ انخِزالِ الحُجَّةِ ، ألاَ تَرَى كَيفَ خَتَمَ بِنَحوِ آخِرِ مُجادَلاتِهِم في سورةِ «الأنعام» في الآية السَّابقةِ ، وكذلك في سورةِ «الزُّخْرُفِ» ، وهو قولُه ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[5].

---

(١) في المخطوط «ولو» وهو خطأ.
(٢) في المطبوع «بدلاً».
(٣) في المخطوط «يمنعوا» ولعل الأقرب ما أثبته ؛ وهو الموافق لما في «روح المعاني» الذي نقل عنه المؤلف.
(٤) النحل: (٣٥).
(٥) الزخرف: (١٩ ـ ٢٢).

وَيكْفي في الانقِلابِ ما يُشيرُ إليه قَولُه ـ سُبحانه ـ: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ ، والمُرادُ بِما حَرَّموهُ: السَّوائِبُ والبَحائرُ وغَيْرُها.

وَفي تَخْصيصِ الاشْتِراكِ والتَّحريمِ بالنَّفي؛ لأنَّهما أعْظَمُ وأشْهَرُ ما هُمْ عَلَيْهِ ، وَغَرَضُهُم مِنْ ذلِكَ تَكْذيبُ الرَّسولِ ـ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ والطَّعْنُ في الرِّسالَةِ رَأْساً؛ فَإنَّ حاصِلَهُ: أيْ ما شاءَ اللهُ يَجِبُ ، وما لَمْ يَشَأْ يَمْتَنِعُ ، فَلَو أنَّهُ ـ سُبحانَه وتَعالى ـ شاءَ أنْ نُوَحِّدَه ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيئاً ، وَنُحَلِّلَ ما أَحَلَّهُ ، ولا نُحَرِّمَ شَيئاً مِمَّا حَرَّمْنا ـ كَما تَقولُ الرُّسُلُ وَيَنْقُلونَهُ مِنْ جِهَتِهِ تَعالى ـ لَكانَ الأمرُ كَما شاءَ مِنَ التَّوحِيدِ ونَفْيِ الإشْراكِ ، وتَحْليلِ ما أحَلَّهُ ، وَعَدمِ تَحْريمِ شَيءٍ مِنْ ذلِكَ ، وحَيْثُ لَم يَكُنْ كذلِكَ ، ثَبَتَ أنَّـه لَم يَشَأْ شَيْئاً مِن ذلك ، بلْ شاءَ ما نحنُ عليهِ ، وتَحَقَّقَ أنَّ ما يَقُولُهُ الرُّسُلُ ـ عليهِمُ السَّلامُ ـ مِن تِلْقاءِ أنْفُسِهِمْ.

فَرَدَّ اللهُ ـ تَعالى ـ عليهِمْ بقَوْلِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِنَ الأُمَمِ ، أيْ: أشْرَكوا باللهِ ـ تعالى ـ ، وحَرَّموا مِنْ دونِهِ ما حَرَّموا ، وجادَلُوا رُسُلَهُمْ بِالباطِلِ لِيُدْحِضوا بِهِ الحَقَّ.

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ ، أي: ليستْ وَظيفَتُهُم إلاَّ البَلاغَ لِلرِّسالَةِ ، المُوَضِّحَ طَرِيقَ الحَقِّ ، والمُظْهِرَ أَحْكامَ الوَحْيِ التي مِنها تَحَتُّمَ تَعَلُّقُ مَشيئَتِهِ ـ تَعالى ـ باهْتِداءِ مَنْ صَرَفَ قُدْرَتَهُ واخْتِيارَهُ إلى تَحْصيلِ الحَقِّ؛ لقولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1].

وأمَّا إلْجاؤُهُمْ إلى ذلكَ ، وتَنْفيذُ قَوْلِهِم عليهِ شاؤوا أوْ أبَوْا ـ كما هو مُقْتَضى اسْتِدْلالِهِم ـ فليسَ ذلكَ مِنْ وَظيفَتِهِم ، ولا مِنَ الحِكْمَةِ التي يَتَوَقَّفُ

---

(١) العنكبوت: (٦٩).

علَيْها التَّكْليفُ ، حتَّى يُسْتَدَلَّ بعدمِ ظُهورِ آثارِهِ على عدمِ حَقِّيَّةِ[1] الرسلِ عليهِمُ السَّلامُ أو على عدمِ تَعَلُّقِ مَشيئَتِهِ ـ تَعالى ـ بِذلكَ ، فإنَّ ما يَتَرَتَّبُ عليهِ الثَّوابُ والعِقابُ مِن الأَفْعالِ لا بُدَّ في تَعَلُّقِ مَشيئَتِهِ ـ تَعالى ـ بِوقوعِهِ مِن مُباشَرَتِهِم الاخْتِيارِيَّةِ ، وَصَرْفِ اخْتِيارِهِم الجُزْئِيِّ إلى تَحْصيلِهِ ، وإلاَّ لَكانَ الثَّوابُ والعِقابُ اضْطِراريينِ.

والكلامُ على هذهِ الآيةِ ونحوِها مُسْتَوْفَىً في تفسير «روح المعاني»[2] وغيرِهِ.

فجُحودُ القَدَرِ ، والاحتجاجُ بهِ على اللهِ ، ومُعارَضةُ شرعِ اللهِ بِقَدَرِهِ ، كُلُّ ذلكَ مِن ضلالاتِ الجاهِلِيَّةِ.

والمَقْصودُ أنَّهُ لا جَبْرَ وَلا تَفْويضَ ، ولكنْ أمْرٌ بَيْنَ أمْرَيْنِ ، فمَنْ زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنْ هذِهِ الجادَّةِ كانَ على ما كانَ عليهِ أهلُ الجاهِلِيَّةِ ، وهِيَ الطَّريقَةُ التي رَدَّ عَلَيْها اللهُ ـ سُبحانَهُ ـ ورَسُولُهُ ﷺ.

* * *

---

(١) في المطبوع «حقيقة».
(٢) (٨/ ٥١ ـ ٥٣).

السادسة والثلاثون

مسَبَّةُ الدَّهْرِ، كقولِهم في سورةِ «الجاثية»[1]: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[2].

وذلكَ أنَّ اللهَ ـ تَعالى ـ أرادَ بَيانَ أحْكامِ ضلالِهم، والخَتْمِ على سَمْعِهِم وقُلوبِهِم، وجَعْلِ غِشاوةٍ على أبصارِهِم، فَحَكَى عنهم ما صَدَرَ عَنهم بقولِه ـ سُبحانَه وتعالىٰ ـ:

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نَحْنُ فيها.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، أيْ: تَموتُ طائِفةٌ، وتَحْيا طائِفةٌ، ولا حَشْرَ أصلاً.

وَمِنهم مَن قالَ: إنَّ كَثيراً مِن عُبَّادِ الأصنامِ كانَ يَقولُ بِالتَّناسُخِ[3]، وعَلَيه؛ فالمُرادُ بِالحياةِ: إعادةُ الرُّوحِ لِبَدَنٍ آخَرَ.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، أيْ: طولُ الزَّمانِ.

وإسنادُهُمُ الإهلاكَ إلى الدَّهْرِ إنكارٌ مِنهم لِمَلَكِ الموتِ وقَبْضِهِ الأرواحَ

---

(١) في المخطوط «الأحقاف»، وهو خطأ.

(٢) الجاثية: (٢٤).

(٣) عرَّف الجرجاني التناسخ بقوله في «التعريفات» (ص ٧٢): «هو عبارة عن تعلق الروح بالبدن بعد المفارقة من بدن آخر، من غير تخلل زمان بين التعلقين للتعشق الذاتي بين الروح والجسد».
وانظر فيما ينقل عن القول بالتناسخ لدى العرب: «الملل والنحل» (٢/ ٢٧٣)، «في الفكر الديني الجاهلي قبل الإسلام» د. محمد الفيومي (٢٤١ ـ ٢٤٢).

بِأمرِ اللهِ ـ تَعالى ـ ، وكانوا يُسْنِدونَ الحوادِثَ مُطْلَقاً إلَيْهِ؛ لِجَهْلِهِم أنَّها مُقَدَّرَةٌ مِن عندِ اللهِ ـ تَعالى ـ وَأشْعَارُهُم لِذلكَ مَمْلوءَةٌ مِن شَكْوى الدَّهْرِ ، مثل قولهم:

أشـاب الصغيـر وأفنـى الكبيـر ... كـر الغـاداة ومـر العشـي[1]

ومثل قول الآخر:

منـع البقـاء تقلـب الشمـس ... وطلـوعهـا مـن حيـث لا تمسـي[2]

وقول الآخر:

رمـانـي الـدهـر بـالأرزاء حتـى ... فـؤادي فـي غشـاء مـن نبـالـي
وكنـت إذا أصـابتنـي سهـام ... تكسـرت النصـال علـى النصـال[3]

والشعر في ذلك قديماً وحديثاً كثير.

وهؤلاءِ مُعْتَرِفون بِوجودِ اللهِ ـ تعالى ـ ، فَهُمْ غَيْرُ الدُّهْرِيَّةِ ، فإنَّهم ـ مَعَ إسنادِهِمُ الحوادِثَ إلى الدَّهْرِ ـ لا يَقولونَ بِوجُودِهِ ـ سُبْحانَه وتَعالى عَمَّا يَقولونَ عُلُوّاً كَبيراً.

والكُلُّ يَقولُ بِاسْتِقْلالِ الدَّهْرِ بِالتَّأثيرِ.

---

(١) هذا البيت مع أبيات أخرى ذكرها ابن قتيبة في «الشعر والشعراء» (١/ ٥٠٢) ، وأبو تمام في «الحماسة» (٣/ ١١١) مع شرح التبريزي ، والمبرد في «الكامل» (٢/ ١٥٦) ، وابن عبد ربه في «العقد الفريد» (٣/ ١٨٨) ، والعباسي في «معاهد التنصيص» (١/ ٧٣) ، والبغدادي في «خزانة الأدب» (٢/ ١٦٠) ونسبوها إلى الصلتان العبدي. وذكرها الجاحظ في «الحيوان» (٣/ ٤٧٧) ونسبها إلى الصلتان السعدي وقال: هو غير الصلتان العبدي.

(٢) ذكره ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١١/ ١٩) ، والزمخشري في «ربيع الأبرار» (١/ ١٢٧) ، ونسباه إلى تبع ، وذكره أبو هلال العسكري في «الصناعتين» (ص ٢٢٢) ونسبه إلى بعض ملوك اليمن.

(٣) هذان البيتان للمتنبي وهما في «ديوانه» (ص ٢٦٥).

وَقَدْ جاءَ النَّهيُ عَنْ سبِّ الدَّهْرِ.

أخْرَجَ مُسلِمٌ[1]: «لا يَسُبُّ أَحَدُكُم الدَّهْرَ، فَإِنَّ اللهَ هو الدَّهْرُ».

وفي رِوايةٍ لأبي داودَ[2] والحاكِمِ[3]: «قالَ اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: يُؤذيني ابنُ آدمَ يقولُ: يا خيبةَ الدَّهرِ، فلا يَقُلْ أَحَدُكُم يا خيبةَ الدَّهرِ، فإنِّي أنا الدَّهْرُ، أُقَلِّبُ لَيْلَهُ وَنَهارَهُ».

وَرَوى الحاكِمُ[4] ـ أيضاً ـ: «يقولُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: اسْتَقْرَضْتُ عَبْدِي فلم يُقْرِضْني، وَشَتَمَني عبدي وهو لا يَدْرِي، يَقولُ: وادَهْراهُ! وَأنا الدَّهْرُ».

وَرَوى البَيْهَقِيُّ[5]: «لا تَسُبُّوا الدَّهْرَ، قال اللهُ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ: أنا الأيَّامُ والليالِي، أُجَدِّدُها وأُبْليها، وآتي بِمُلوكٍ بَعْدَ مُلوكٍ».

وَمَعنى ذلكَ أنَّ اللهَ ـ تَعالى ـ هو الآتي بالحوادِثِ، فَإذا سَبَبْتُمُ الدَّهرَ على أنَّهُ فاعِلٌ، وَقَعَ السَّبُّ على اللهِ ـ عَزَّ وجلَّ ـ.

---

(١) في «صحيحه» ـ كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها ـ باب كراهية تسمية العنب كرماً ـ (٤/ ١٧٦٣) ح ٢٢٤٧.

(٢) في «سننه» ـ كتاب الأدب ـ باب في الرجل يسب الدهر ـ (٥/ ٤٢٣) ح ٥٢٧٤، ولفظه عنده: «يقول الله ـ عز وجل ـ: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار».

(٣) في «مستدركه» ـ كتاب التفسير ـ باب تفسير سورة حم الجاثية ـ (٢/ ٥٤٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه هكذا».

(٤) في «مستدركه» ـ كتاب التفسير ـ باب تفسير سورة حم الجاثية ـ ٢/ ٤٥٣)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السياقة».

(٥) في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٦٥)، وفي «شعب الإيمان» (٣/ ٣١٦) ح و(٤/ ٣١٦) ح، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٩٦)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٧١): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح»، وصحح الحافظ ابن حجر إسناده في «فتح الباري» (١٠/ ٥٦٥).

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ ، أيْ : لَيْسَ لَهم بِما ذُكِرَ مِن قَصْرِ الحياةِ على ما في الدُّنيا وَنِسْبَةِ الإهلاكِ إلى الدَّهْرِ عِلمٌ مُسْتَنِدٌ إلى عَقْلٍ أو نَقْلٍ.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ ، أيْ : ما هُمْ إلا قَوْمٌ قُصارَى أمرِهِم الظَّنُّ والتَّقْليدُ مِنْ غيرِ أنْ يكونَ لَهُمْ ما يَصِحُّ أنْ يُتَمَسَّكَ بِهِ في الجُمْلَةِ.

وَقَدْ ذَكَرْنا في غَيرِ هذا المَوْضِعِ ما يَتَعَلَّقُ بالدُّهْرِيينَ.

والمقصودُ أنَّ مَنْ يقول بِإسنادِ الحوادِثِ إلى غير اللهِ - تعالى - كالدَّهْرِ ، فَليسَ لَه مُسْتَنَدٌ عَقلي ولا نَقْلِيٌّ ، بَل هو مَحْضُ جَهْلٍ ، وقائِلُهُ جاهلٌ في أيِّ عَصْرٍ كانَ.

وَلأهلِ زَمانِنا حظٌّ وافِرٌ مِن هذا الاعتِقَادِ الباطلِ ، واللهُ المُسْتَعانُ.

* * *

السابعة والثلاثون

إضافةُ نِعَمِ اللهِ إلى غَيرِهِ.

قال اللهُ ـ تَعالى ـ في سورةِ «النَّحْلِ»: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(1).

وقدْ عَدَّدَ اللهُ ـ تَعالى ـ نِعَمَهُ على عِبادِهِ في هذهِ السُّورةِ، إلى أنْ قالَ: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(2).

فقولُه: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ...﴾ إلخ، اسْتِئنافٌ لِبيانِ أنَّ تَوَلِّيَ المُشرِكينَ وإعراضَهم عن الإسلامِ، لَيْسَ لِعَدَمِ مَعْرِفَتِهِم نِعمةَ اللهِ ـ سُبحانَه وتَعالى ـ أصلاً، فإنَّهم يَعرِفونَ أنَّها مِن اللهِ ـ تَعالى ـ، ثمَّ يُنْكِرونَها بأفعالِهِم، حيثُ لم يُفْرِدوا مُنْعِمَها بِالعِبادةِ، فَكَأنَّهم لمْ يَعْبُدُوه ـ سُبْحانه وتَعالى ـ أصْلاً، وذلكَ كُفْرانٌ مُنَزَّلٌ مَنْزِلَةَ الإنْكارِ.

---

(1) النحل: (83).

(2) النحل: (81 ـ 83).

وأخرجَ ابنُ جريرٍ وغيرُه عنْ مُجاهِدٍ أنَّه قالَ: «إنكارُهُم إيَّاها قولُهم: وَرِثْناها مِن آبائِنا»[1].

وأخرجَ هو وغيرُهُ ـ أيضاً ـ عن عونِ بنِ عبدِ اللهِ أنَّه قالَ: «إنكارُهم إيَّاها أنْ يقولَ الرَّجُلُ: لَولا فلانٌ أصابَني كَذا وكَذا، ولَوْلاَ فلانٌ لم أُصِبْ كَذا وكَذا»[2].

وفي لفظٍ «إنكارُها: إضافتُها إلى الأسبابِ».

وبعضُهُم يقولُ: إنكارُهُم: قولُهم: هي بشفاعةِ آلهتِهم عند اللهِ ـ تعالى ـ[3].

وَمِنْهم مَن قالَ: النِّعمةُ ـ هنا ـ مُحَمَّدٌ ﷺ[4]، أيْ: يَعْرِفونَ أنَّه ـ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ نَبِيٌّ بِالمُعْجِزاتِ، ثمَّ يُنكِرون ذلكَ، وَيَجْحَدونَه عِناداً.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أيْ: المُنكِرون بِقُلوبِهِم، غيرُ المُعْتَرِفين بِما ذُكِرَ، والتَّعبيرُ بالأكثرِ إمَّا لأنَّ بعضَهم لم يَعْرِفِ الحقَّ؛ لِنُقصانِ عقلِه، وعدمِ اهتدائِهِ إليه، أو لِعدمِ نَظَرِهِ في الأدلَّةِ نَظَراً يؤدِّي إلى

---

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» بنحوه (١٤/ ١٥٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٦) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ١٥٨)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٧).

(٣) هذا قول الكلبي، كما ذكر ذلك البغوي في «معالم التنزيل» (٣/ ٨٠)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٤٧٩)، وقول الفراء كما في «معاني القرآن» (٢/ ١١٢)، وابن قتيبة كما في «زاد المسير» (٤/ ٤٧٩).

(٤) وهذا قول الفراء كما في «معاني القرآن» له (٢/ ١١٢)، وقول ابن قتيبة كما في «زاد المسير» (٤/ ٤٧٩)، وعزاه ابن جرير في «تفسيره» (١٤/ ١٥٧) إلى السدي، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٤/ ١٢٧) وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم.

المَطْلوبِ ، أو لأنَّه لمْ تَقُمْ عليهِ الحُجَّةُ؛ لِكونِهِ لم يَصِلْ إلى حَدِّ المُكَلَّفينَ لِصغَرٍ ونحوِه ، وإمَّا لأنَّه يُقامُ مقامَ الكُلِّ ، فإسنادُ المعرفةِ والإنكارِ المتفرِّعِ عَلَيْها إلى ضَميرِ المشرِكينَ على الإطلاقِ مِن بابِ إسنادِ حالِ البعضِ إلى الكلِّ.

وَمِمَّا يَجْرِي هذا المَجْرى قولُهُ ـ تَعالى ـ في سورةِ «الواقِعةِ»: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ۝٨١ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[١] ، أيْ: تَقولونَ: مُطِرْنا بِنَوْءِ كَذا وكذا.

رَوَى مُسلِمٌ وغيرهُ عن ابنِ عبَّاسٍ ، قالَ: «مُطِرَ النَّاسُ على عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، فقَالَ ـ عَلَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ: أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شاكرٌ ، ومِنهم كافِرٌ ، قالوا: هذهِ رحمةٌ وَضَعَها اللهُ ، وقالَ بعضُهم: لَقَد صَدَقَ نَوْءُ كَذا ، فنَزَلَتْ هٰذهِ الآيةُ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ . . .﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[٢]».

إلى غيرِ ذلك مِنَ الآثارِ.

وَقَد ذَكَرْنا مَذهبَ العربِ في الأنواءِ في غيرِ هذا الموضِعِ[٣] ، وَفَصَّلْناه تَفْصيلاً ، وَذَكَرْنا شِعْرَهُم الدَّالَّ على مَذهَبِهِم هذا ، واللهُ المُوَفِّقُ[٤].

* * *

(١) الواقعة (٨١ ـ ٨٢).
(٢) الواقعة: (٧٥ ـ ٨٢).
(٣) وذلك في كتابه «بلوغ الأرب».
(٤) وانظر أيضاً كتاب «القول في النجوم» للخطيب البغدادي ، وكتاب «الأنواء ومواسم العرب» لابن قتيبة.

الثامنة والثلاثون

الكفرُ بآياتِ اللهِ.

والنُّصوصُ الدَّالَّةُ على ذلكَ في القرآنِ كثيرةٌ:

مِنها قولُهُ ـ تَعالى ـ في «الكَهْفِ»: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾[1] بَعْدَ قولِهِ ـ سُبحانَه ـ: ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم[2] بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ . . .﴾[3] إلخ.

فقولُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ كلامٌ مُسْتَأنَفٌ منهُ مسوقٌ لتكْميلِ تعريفِ الأخْسَرِينَ، وَتَبْيِينِ خُسرانِهِم وضَلالِ سَعْيِهِم وتَعْيِينِهِم، بِحيثُ يَنْطَبِقُ التَّعريفُ على المُخاطَبينَ، أيْ: أولئكَ المَنْعوتُونَ[4] بِما ذُكِرَ من ضَلالِ السَّعْي والحُسْبانِ المذكورِ.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾: بِدلائِلِهِ ـ سُبحانَه ـ الدَّاعِيَةِ إلى التَّوحِيدِ، الشَّامِلَةِ للسَّمعيَّةِ والعقلِيَّةِ.

---

(١) الكهف: (١٠٥ ـ ١٠٦).

(٢) في المخطوط «أنبئكم»، وهو خطأ.

(٣) الكهف: (١٠٣ ـ ١٠٤).

(٤) في المخطوط «المبعثون».

﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾: هو كِنايةٌ عن البَعثِ والحَشْرِ وما يَتْبَعُ ذلك من أُمورِ الآخِرةِ، أيْ: لم يؤمِنوا بِذلِك على ما هو عَلَيهِ.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾، أيْ: فَنَزْدَري بِهِم، وَنَحْتَقِرُهُم.

ومِنَ النُّصوصِ ما يَدُلُّ على أنَّ مِنهم مَن كان يُنْكِرُ بَعضَ الآياتِ، ومِنهم مَن كانَ مُعْرِضاً عَنْها وهاجراً لها.

ولا يَخْفاك[1] أنَّ مِنَ النَّاسِ اليومَ مَن هُوَ أدْهى وأمَرُّ مِمَّا كانَ عَلَيه أهلُ الجاهِلِيَّةِ في هٰذَا البابِ.

* * *

(١) في المطبوع: «ولا يخفى عليك».

التاسعة والثلاثون

اشْتِراءُ كُتُبِ الباطِلِ ، واخْتِيارُها عليها ، أيْ : عَلى الآياتِ .

قالَ ـ تَعالى ـ : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ . . . ﴾[1] .

إلى قوله : ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾[2] .

ومَعنى قولِهِ : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ ﴾ ، أيْ : اسْتَبْدَلَ ما تَتْلوا الشَّياطينُ بِكتابِ اللهِ .

﴿ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ ، أيْ : نَصيبٍ .

﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ ، أيْ : واللهِ لَبِئسَ شَيئاً شَرَوا به

(١) البقرة : (٩٩ ـ ١٠٢) .
(٢) البقرة : (١٠٢ ـ ١٠٣) .

حُظوظَ أنفُسهم ، أي: باعوها أو شَرَوْها في زعْمِهِم ذلكَ الشِّراءَ.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا ﴾ ، أي: بالرَّسولِ ، أوْ بِما أُنْزِلَ إلَيه مِنَ الآياتِ ، أو بالتَّوْراةِ.

﴿ وَاتَّقَوْا ﴾ ، أي: المَعاصيَ التي حُكِيَتْ عَنْهُمْ.

﴿ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ ، أي: أنَّ ثَوابَ اللهِ ـ تَعالى ـ خَيْرٌ لهُمْ.

وبِمَعْنى هذهِ الآيةِ قولُه ـ تَعالى ـ: ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾(١).

وَهٰذِهِ الآيةُ نَزَلَتْ في أحبارِ اليهودِ الذينَ خافُوا أنْ تَذهبَ رِئاسَتُهُم بإبْقاءِ صِفَةِ النَّبِيِّ ﷺ على حالِها ، فَغَيَّروها.

* * *

---

(١) البقرة: (٧٨ ـ ٧٩).

الأربعون

القَدْحُ في حِكْمَتِهِ ـ تعالى ـ.

أقولُ: مِنْ خِصالِ أهلِ الجاهِلِيَّةِ: القَدْحُ في حِكْمَتِهِ ـ تَعالى ـ ، وأنَّهُ لَيسَ بِحَكيمٍ في خَلْقِهِ ، بِمعنى أنَّه ـ سُبحانَهُ ـ يَخْلُقُ ما لا حِكْمَةَ لَهُ فيهِ ، وَيأمُرُ وَيَنْهى بِما لا حِكْمَةَ فيهِ.

وقد حَكى اللهُ ـ تَعالى ـ ذلِكَ بِقولِهِ في سورةِ «صَ»: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[1].

وَقالَ ـ سُبحانَه ـ في سورةِ «المؤمنين»: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾[2].

وفي سورةِ «الدُّخانِ»: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

وفي سورةِ الأنبياء»: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[4].

---

(١) صَ: (٢٧).

(٢) المؤمنون: (١١٥ ـ ١١٦).

(٣) الدخان: (٣٨ ـ ٣٩).

(٤) الأنبياء: (١٦ ـ ١٧).

وفي سورةِ «الحِجْر»: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[1].

إلى غيرِ ذلكَ من الآياتِ النَّاصَّةِ على أنَّ اللهَ ـ تَعالى ـ لَم يَخْلُقْ شَيئاً مِن غيرِ حِكمةٍ وَلا عِلَّةٍ، على خِلافِ ما يَعْتَقِدُهُ أهلُ الباطِل مِنَ الجاهِلِيِّينَ، وَمَنْ نَحا نَحْوَهُمْ مِن هذهِ الأمَّةِ مِمَّنْ نَفى الحِكمةَ عَن أفعالِهِ ـ سُبحانَه وتَعالى ـ.

وهذهِ مَسألةٌ طويلةُ الذَّيلِ، قَدْ كَثُرَ فيها الخِصامُ بَيْنَ فِرَقِ المُسلِمينَ، والحقُّ ما كانَ عَلَيه السَّلَفُ مِن إثباتِ الحِكمةِ والتَّعليلِ.

وقدْ أطْنَبَ الكلامَ عليها الحافِظُ ابنُ القَيِّم في كِتابهِ «شِفاءِ العليلِ في مسائلِ القَضاءِ والقَدَرِ والحِكْمَةِ والتَّعْليلِ»، وَعَقَدَ باباً مُفَصَّلاً في طُرُقِ إثباتِ حِكمةِ الرَّبِّ ـ تَعالى ـ في خَلْقِهِ وَأمْرِهِ، وإثباتِ الغاياتِ المَطلوبةِ والعواقِبِ الحَميدَةِ الَّتي فَعَلَ وَأمَرَ لأجْلِها.

ومِنْ جُملةِ ما قالَ في هذا البابِ: «إنَّه ـ سُبحانَه وتَعالى ـ أنْكَرَ[2] على مَنْ زَعَمَ أنَّه لم يخلُقِ الخَلْقَ لِغايةٍ ولا بِحِكمةٍ، كَقَولِهِ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾، وقَوْلِهِ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾، وقولِهِ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، والحَقُّ: هو الحِكَمُ والغاياتُ المحمودةُ، التي لأجلِها خَلَقَ ذلكَ كُلَّهُ، وهو أنواعٌ كثيرةٌ:

منها: أنْ يُعْرَفَ اللهُ بأسمائِهِ، وصِفَاتِهِ، وأفعالِهِ، وآياتِهِ.

وَمِنْها: أنْ يُحَبَّ، وَيُعْبَدَ، وَيُشْكَرَ، ويُذْكَرَ، ويُطاعَ.

---

(١) الحجر: (٨٥).

(٢) في «شفاء العليل»: «إنكاره ـ سبحانه ـ».

ومِنها: أنْ يأمُرَ، ويَنْهَى، وَيُشَرِّعَ الشَّرائِعَ.

ومِنها: أنْ يُدَبِّرَ الأمرَ، ويُبْرِمَ القَضاءَ، وَيَتَصَرَّفَ في المَمْلَكَةِ بأنواعِ التَّصَرُّفاتِ.

ومِنها: أنْ يُثِيبَ ويُعاقِبَ، فَيُجازِيَ المُحْسِنَ بإِحْسانِهِ والمُسيءَ بإِسَاءَتِهِ، فَيَكونَ[1] أَثَرُ عَدْلِهِ وَفَضْلِهِ موجوداً مُشاهَداً، فَيُحْمَدَ على ذلك ويُشْكَرَ.

ومِنْها: أنْ يُعْلِمَ خَلْقَهُ أنَّه لا إلٰهَ غَيْرُهُ ولا رَبَّ سِواهُ.

ومِنها: أنْ يَصْدُقَ الصَّادِقُ فَيُكْرِمَهُ، وَيَكْذِبَ الكاذِبُ فَيُهينَهُ.

ومِنْها: ظُهُورُ آثارِ أسْمائِهِ وَصِفَاتِهِ عَلى تَنَوُّعِها وَكَثْرَتِها في الوُجودِ الذِّهْنِيِّ والخارجِيِّ، فَيَعْلَمُ عِبادُهُ ذلكَ عِلْماً مُطابِقاً لِما في الواقع.

ومِنْها: شَهادةُ مَخْلوقاتِهِ كُلِّها بِأَنَّهُ وَحْدَهُ رَبُّها وَفاطِرُها ومَلِيكُها، وأَنَّهُ وَحْدَهُ إلٰهُها وَمَعْبودُها.

ومِنْها: ظُهورُ آثارِ كَمالِهِ المُقَدَّسِ، فإِنَّ الخَلْقَ والصُّنْعَ لازِمُ كَمالِهِ، فَإِنَّه حَيٌّ قديرٌ، ومَنْ كان كَذلكَ لم يَكُنْ إلَّا فاعِلاً مُختاراً.

ومِنها: أنْ يُظْهِرَ أثَرَ حكمتِهِ في المخلوقاتِ بوضعِ كُلٍّ مِنها في مَوضِعِه الذي يَليقُ بِهِ، ومَجيئِهِ على الوجهِ الذي تَشْهَدُ العُقُولُ والفِطَرُ بِحُسْنِهِ، فَتَشْهَدَ حِكْمَتَهُ الباهِرةَ.

ومِنها: أنَّه ـ سُبحانَه ـ يُحِبُّ أنْ يَجودَ ويُنْعِمَ، وَيَعْفُوَ وَيَغْفِرَ وَيُسامِحَ، ولا بُدَّ مَن لوازِمِ ذلكَ خَلْقاً وشَرْعاً.

ومِنها: أنَّه يُحِبُّ أنْ يُثْنى عليهِ، ويُمْدَح ويُمَجَّدَ، وَيُسَبَّحَ وَيُعَظَّمَ.

---

(١) في «شفاء العليل»: «فيوجد».

ومِنها: كثرةُ شواهدِ رُبوبِيَّتِهِ وَوَحْدانِيَّتِهِ وإلٰهِيَّتِهِ... إلى غير ذلك. من الحِكمِ التي تَضَمَّنَها الخَلْقُ، فَخَلَقَ مَخْلوقاتِهِ بِسببِ الحَقِّ، ولأجلِ الحَقِّ، وَخَلْقُها مُلْتَبِسٌ بالحَقِّ، وهو في نفسهِ حَقٌّ، فَمَصْدَرُهُ حَقٌّ، وغايتُه حَقٌّ، وهو يَتَضَمَّنُ الحَقَّ.

وقَدْ أثْنَى على عِبادِهِ المؤمِنينَ حَيْثُ نَزَّهوهُ عنْ إيجادِ الخَلْقِ، لا لِشيءٍ ولا لِغايةٍ، فقَالَ ـ تَعالى ـ: ﴿[إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ][1] وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ﴾[2].

وأخْبَرَ أنَّ هٰذا ظَنُّ أعدائِهِ، لا ظَنُّ أوليائِهِ، فقالَ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وكيفَ يَتَوَهَّمُ أنَّه عَرَفَهُ مَن يقولُ: إنَّه لم يَخْلقْ الخَلْقَ لِحكمةٍ مطلوبةٍ لَه، ولا أمَرَ لِحكمةٍ، ولا نَهَى لِحكمةٍ، وإنَّما يَصْدُرُ الخَلْقُ والأمرُ عن مشيئَةٍ وقُدْرَةٍ مَحْضَةٍ، لا لِحكمةٍ ولا لِغايةٍ مقصودةٍ؟!

وهلْ هذا إلا إنكارٌ لحقيقةِ حَمْدِهِ؟!

بَلِ الخَلْقُ والأمرُ إنَّما قامَ بالحِكَمِ والغاياتِ، فَهُما مَظْهَرانِ لِحمدِهِ[3] وحِكمتِهِ.

فإنكارُ الحكمةِ إنكارٌ لِحَقيقةِ خَلْقِهِ وأمرِهِ؛ فإنَّ الذي أثبَتَهُ المُنكِرونَ مِن ذلكَ يُنَزَّهُ عنه الرَّبُّ ويَتَعالى عَن نسبتِهِ إليهِ، فإنَّهم أثْبَتوا خَلْقاً وَأمْراً لا رَحْمَةَ فيهِ ولا مَصْلَحَةَ ولا حِكمةَ، بَلْ يَجوزُ عِنْدَهُم ـ أو يَقَعُ ـ أنْ يَأمُرَ

---

(١) ما بين المعكوفتين ليس في «شفاء العليل».

(٢) آل عمران: (١٩٠ ـ ١٩١).

(٣) في «شفاء العليل»: «بحمده».

بِما لا مَصلحةَ لِلْمُكَلَّفِ فيه ألبتَّةَ ، ويَنْهى عَمَّا فيه مَصلحةٌ ، والجميعُ بالنِّسبةِ إليه سواءٌ.

ويَجوزُ ـ عِنْدَهم ـ أنْ يَأْمُرَ بِكُلِّ ما نَهى عَنه ، ويَنْهَى عن جَميعِ ما أمَرَ بِهِ ، ولا فَرْقَ بَيْنَ هٰذا وهٰذا إلاَّ بِمُجَرَّدِ[1] الأمْرِ والنَّهْيِ.

وَيَجوزُ ـ عِنْدَهم ـ أنْ يُعَذِّبَ مَنْ لَم يَعْصِهِ طَرْفَةَ عَينٍ ، [بلْ أفنى عُمُرَه في طاعِتِه وشُكْرِهِ][2] ، ويُثيبَ مَن عَصاهُ[3] بلْ أفْنى عُمُرَهُ في الكُفرِ بِهِ والشِّرْكِ والظُّلْمِ والفُجورِ؛ فلا سَبيلَ إلى أنْ يُعْرَفَ خِلافُ ذٰلِكَ منه إلاَّ بِخبَرِ الرَّسولِ ، وإلاَّ فهو جائزٌ عليهِ.

وهٰذا مِنْ أقْبَحِ الظَّنِّ وأسوئِهِ بالرَّبِّ ـ سُبحانَه ـ ، وتَنْزيهُهُ عَنه كَتَنزيهِهِ عن الظُّلْمِ والجَوْرِ ، بَلْ هذا هو عَيْنُ الظُّلْمِ الذي يَتَعالَى اللهُ عَنْهُ.

والعَجَبُ العُجابُ أنَّ كثيراً مِن أربابِ هٰذا المَذْهَبِ يُنَزِّهونَه عَمَّا وَصَفَ بِهِ نَفْسَه مِن صِفاتِ الكمالِ وَنُعوتِ الجَلالِ ، ويَزْعُمونَ أنَّ إثباتَها تَجْسيمٌ وَتَشْبيهٌ، ولا يُنَزِّهونَه عَن هذا الظُّلْمِ ، والجَوْرِ ، وَيَزعُمونَ أنَّهُ عَدْلٌ وَحَقٌّ ، وأنَّ التَّوحيدَ ـ عِنْدَهُم ـ لا يَتِمُّ إلا بِهِ ، كما لا يَتِمُّ إلاَّ بإنْكارِ اسْتِوائِهِ عَلى عَرْشِهِ، وعُلُوِّهِ فَوْقَ سَماواتِه ، وتَكَلُّمِهِ وتَكْليمِهِ ، وصِفَاتِ كمالِهِ! فلا يَتِمُّ التَّوحيدُ عند هذِهِ الطَّائِفةِ إلاَّ بهذا النَّفْيِ وذلكَ الإثْباتِ، واللهُ وليُّ التَّوفيقِ»[4].

انتهى المقصودُ من نَقْلِهِ ، وتَمامُ الكلامِ في هذا البابِ مِن ذلكَ الكِتابِ ، وإليه ـ سُبحانَه ـ المآبُ.

* * *

---

(١) في «شفاء العليل»: «المجرد».

(٢) ما بين المعكوفتين زيادة من «شفاء العليل».

(٣) في «شفاء العليل»: «وينعم على من لم يعصه طرفة عين».

(٤) «شفاء العليل» (١٩٨ ـ ١٩٩).

الحادية والأربعون

الكُفرُ بِالملائِكَةِ والرُّسُلِ والتَّفْريقُ بَيْنَهُم.

قالَ ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

إلى أنْ قالَ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ﴾(٢).

---

(١) البقرة: (٨٧ ـ ٩١).

(٢) البقرة: (٩٧ ـ ٩٩).

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذهِ الآياتِ أنَّ بَعضَ الكِتابِيِّينَ كانُوا يَكْفُرونَ بِالمَلائِكَةِ والرُّسُلِ ، وَيُفَرِّقُونَ بَيْنَهُمْ ، أيْ: يؤمِنونَ بِبَعضٍ وَيَكْفُرونَ بِبَعضٍ ، وهم طائفةٌ مِن جاهليَّةِ اليَهودِ ، وَلِهَذا أمَرَنا اللهُ ـ تَعالى ـ بالإيمانِ بِهم وَعَدَمِ التَّفرِقَةِ بَيْنَهُم ، فَقالَ: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[1].

* * *

---

(١) البقرة: (٢٨٥).

الثانية والأربعون

الغُلُوُّ في الأنبياءِ والرُّسُلِ ـ عليهم السلام ـ.

قالَ ـ تعالى ـ في سورةِ «النِّساءِ»: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ﴾(١).

وَالغُلُوُّ في المخلوق أعظمُ سَبَبٍ لعبادةِ الأصنام والصَّالِحينَ ، كَما كانَ في قوم نوحٍ من عبادةِ نَسْرٍ وسُواعٍ وَيَغوثَ ونَحْوِهِم ، وكما كان مِنَ عبادةِ النَّصارى لِلمسيحِ ـ عليه السلام ـ.

ومِثلُ ذلكَ : القولُ على اللهِ بِغيرِ الحَقِّ.

* * *

---

(١) النساء: (١٧١).

الثالثة والأربعون

الجِدالُ بِغيرِ العِلمِ ، كما تَرى كثيراً مِنْ أهلِ الجَهْلِ يَجادِلونَ أهلَ العِلْمِ عِنْدَ نَهْيِهِم عَمَّا أَلِفوه مِنَ البِدَعِ والضَّلالاتِ ، وهي صِفَةٌ جاهِلِيَّةٌ ، نَهانا اللهُ ـ تَعالى ـ عَنِ التَّخلُّقِ بِها.

قالَ ـ تَعالى ـ في سورةِ «آل عمرانِ»: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ[1] فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾[2].

أَخْرَجَ ابنُ إسحاقَ وابنُ جَريرٍ عنِ ابنِ عبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ تَعالى عَنْهُما ـ قالَ: «اجْتَمَعَتْ نَصارى نَجْرانَ وأحبارُ يهودَ عِندَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، فَتَنازَعوا عِنْدَهُ ، فَقَالَتِ الأحبارُ: ما كانَ إبراهيمُ إلاَّ يَهودِيّاً ، وقالتِ النَّصارى: ما كان إبراهيمُ إلاَّ نَصْرانِيّاً ، فَأَنْزَلَ اللهُ فيهم هٰذه الآيةَ»[3] المُنادِيَةَ على جَهْلِهِم وعِنادِهِم ، كَما لا يَخْفى على مَنْ راجَعَ التَّفْسيرَ.

* * *

---

(١) في المخطوط «تجادلون» وهو خطأ.

(٢) آل عمران: (٦٥ ـ ٦٦).

(٣) أخرجه ابن إسحاق في السيرة «سيرة ابن هشام» (٢/ ٥٥٣) ، وابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٣٠٥) ، والبيهقي في «دلائل النبوة» ـ باب وفد نجران ـ (٥/ ٣٨٤).

الرابعة والأربعون

قالَ الشَّيخُ: الرَّابِعةُ والأربعونَ: الكَلامُ في الدِّين بِلا عِلْمٍ.

أقولُ: أجْمَلَ الشَّيخُ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعالى ـ الكَلامَ في هذِهِ المسألةِ كُلَّ الإجمالِ، كَما فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ في كَثيرٍ مِنَ المَسائِلِ، وما أَحَقَّها بِالتَّفصيلِ.

وَذَلِكَ أنَّ أهلَ الجاهِلِيَّةِ مِنَ العَرَبِ وغيرِهِم مِنَ الكِتابِيِّينَ شَرَعوا في الدِّينِ ما لَمْ يَأذَنْ بِهِ اللهُ:

أمَّا العَرَبُ فقد كانَ الكثيرُ مِنهُم على دينِ إبراهيمَ وإسماعيلَ ـ عَلَيْهِما السَّلامُ ـ إلىٰ أنْ ظَهَرَ فِيهِمُ الخُزاعِيُّ[1] ـ وهو عمرو بن لحي وكان الحجازيون يتخذونه رَبّـا في امتثال أمره وطاعته، والانتهاء عما نهى ـ، فَغَيَّرَ وَبَدَّلَ، وابْتَدَعَ بِدَعاً كَثيرةً، وَأغْرى العَرَبَ عَلى عِبادةِ الأصنامِ، وَبَحَرَ البَحيرَةَ، وَحَمى الحام، واسْتَقْسَمَ بِالأزلامِ، إلى غير ذٰلكَ مِمَّا فَصَّلْناه في غيرِ هٰذا الموضِع.

وإنْ شِئْتَ أنْ تَعرِفَ جَهْلَ العرَبِ وما ابْتَدَعوهُ فاقْرأْ سورةَ «الأنعامِ»، فَإنَّ فيها كَثيراً مِن ضَلالاتِهِم ومُبْتَدَعاتِهِم[2].

---

(١) هو عمرو بن عامر الخزاعي، ولحي نعت لعامر، رآه النبي ﷺ يجر قصبه في النار. انظر: «صحيح البخاري» ـ كتاب التفسير ـ باب ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ ـ (٥/ ١٩١)، «الأصنام» للكلبي (ص ٨)، «الاشتقاق» لابن دريد (ص ٤٦٨).

(٢) يعني فإن فيها ذكراً لكثير من ضلالاتهم ومبتدعاتهم.

وأمَّا الجاهِلِيُّونَ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى ، فَقَدِ اتَّخَذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أرباباً مِن دونِ اللهِ والمسيحَ ابنَ مَريَمَ ، وذلكَ أنَّ أحبارَهم ورُهبانَهمُ ابْتَدَعوا لَهُمْ في الدِّينِ بِدَعاً ، وَحَلَّلوا وَحَرَّموا ما اشْتَهَتْهُ أنْفسُهُم ، فقَبِلوا ذلِكَ مِنهم وأطاعوهُم عليه ، مع أنَّ الدِّينَ إنَّما يَكونُ بِتَشْرِيعِ اللهِ ووحْيِهِ إلى أنْبيائِهِ ورُسُلِهِ ، ولا يَكونُ بآراءِ الرِّجالِ وبِحَسَبِ أهْوائِهِمْ ، فَكُلُّ ما لا دَليلَ عَلَيه مِنْ كِتابٍ ولا سُنَّةٍ مَرْدودٌ على صاحِبِهِ.

وَقَدْ ذَمَّ اللهُ ـ تعالى ـ اليَهودَ عَلى مِثْلِ ذَلِكَ ، فَقال ـ عَزَّ اسْمُهُ ـ في سورةِ «آل عِمـرانَ» : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1] .

فَمَنْ أَوَّلَ نُصوصَ الكِتابِ والسُّنَّةِ على حَسَبِ شَهَواتِهِ وبِمُقْتَضى هَواهُ فَهو ـ أيضاً ـ مِنْ قَبيلِ الذينَ يَلْوونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالكِتابِ.

وَأنتَ تَعْلَمُ ما اشْتَمَلَتْ[2] عَلَيْهِ ـ اليومَ ـ كثيرٌ مِن كُتُبِ الشَّريعَةِ مِنَ الآراءِ التي لَيْسَ لَها مُسْتَنَدٌ مِنْ دَلائِلِ الشَّريعَةِ ، فإلى اللهِ المُشْتكى مِنْ صَوْلَةِ الباطِلِ وخُمولِ الحَقِّ.

* * *

(١) آل عمران : (٧٨).

(٢) في المطبوع : «ما اشتمل».

الخامسة والأربعون

الكُفرُ باليومِ الآخِرِ ، والتَّكذيبُ بِلقاءِ اللهِ ، وبَعْثِ الأزواحِ ، وَبِبَعْضِ ما ذَكَرَتْهُ الرُّسُلُ مِنْ صِفاتِ الجَنَّةِ والنَّارِ.

قالَ - تعالى - في سورةِ «الكهفِ» : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝١٠٣ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾[1] الآيةَ ، وقد مَرَّ الكلامُ عَليها قَريباً.

وَقالَ - تَعالى - في سورةِ «النَّحْلِ» : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾[2].

إلى غَيرِ ذٰلِكَ مِنَ النُّصوصِ الوارِدَةِ في ذلكَ كُلِّهِ.

ولِقومِ عَصْرِنا مِنْ هذا الاعْتِقادِ الجاهِلِيِّ حَظٌّ وافِرٌ وَنَصيبٌ كامِلٌ ، ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلا هاديَ لَهُ ، وَيَذَرُهُمْ في طُغْيانِهِم يَعْمَهونَ ، نَسْألُهُ - تَعالى - التَّوْفيقَ للهِدايةِ.

* * *

---

(١) الكهف : (١٠٣ ـ ١٠٥).

(٢) النحل : (٣٨ ـ ٣٩).

السادسة والأربعون

التَّكذيبُ بِقَوْلِهِ ـ تَعالى ـ: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[1] ، وَهو اليومُ الذي يَدينُ اللهُ ـ تَعالى ـ العِبادَ فيهِ بأعمالِهم ، فَيُثِيبُهُمْ عَلى الخَيْراتِ ، ويُعاقِبُهُم على المَعاصِي والسَّيِّئاتِ.

والتَّكذيبُ بِهذا اليومِ مَتَفَرِّعٌ على إنكارِ البعثِ والحِسابِ والجَنَّةِ والنَّارِ.

* * *

(١) الفاتحة: (٤).

السابعة والأربعون

التَّـكذيبُ بقولِهِ ـ تَعالى ـ: ﴿ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾[1] مِنْ قَوْلِهِ ـ سُبْحانَهُ ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾.

والخُلَّةُ: المَوَدَّةُ والصَّداقَةُ.

ومَعْنى ﴿ وَلَا شَفَٰعَةٌ ﴾، أي: لا أَحَدَ يَشْفَعُ لأَحَدٍ إلاَّ مِن بَعْدِ أنْ يَأْذَنَ الرَّحْمَنُ لِمَنْ يَشاءُ ويَرْضى.

وأرادَ بِذلك يومَ القِيامَةِ.

والمُرادُ مِن وصْفِهِ بِما ذُكِرَ: الإشارةُ إلى أنَّه لا قدرةَ لأحَدٍ فيهِ على تَحصيلِ ما يُنْتَفَعُ بِهِ بِوجْهٍ مِنَ الوُجوهِ؛ لأنَّ مَنْ في ذِمَّتِهِ حَقٌّ ـ مَثَلاً ـ إمَّا أنْ يأخُذَ بالبيعِ ما يُؤَدِّيهِ بِهِ، وإمَّا أنْ يُعينَهُ أصدقاؤُه، وإمَّا أنْ يَلْتَجِيءَ إلى مَنْ يَشفعُ لَهُ في حَطِّهِ، والكُلُّ مُنْتَفٍ، ولا مُسْتعانَ إلاَّ باللهِ ـ عَزَّ وجلَّ ـ.

* * *

---

(١) البقرة: (٢٥٤).

الثامنة والأربعون

التَّكذيبُ بِقولِهِ ـ تَعالى ـ في سورةِ «الزُّخْرُفِ»: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ[1] مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

قَولُـهُ: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ[3]﴾، أيْ: ولا يملكُ آلِهَتُهُمُ الذين يَـدْعـونَهـم مِـن دونـهِ الشَّفـاعَـةَ، كَمـا زَعَمـوا أنَّهُـم شُفعـاؤُهُـمْ عِنـدَ اللهِ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ الَّذي هو التَّوحيدُ.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، أيْ: يَعْلَمونَهُ، والمُرادُ بِهِم: الملائِكَةُ وعِيسى وعُزَيرٌ وَأضْرابُهُمْ.

وَأنتَ تَرَى النَّاسَ اليومَ عاكِفينَ على أصنامٍ لهُمْ يَدْعونَهُمْ مِن دونِ اللهِ، وعُذْرُهُم عِنْدَ تَوبيخِهِم: أنَّ هؤلاءِ شُفَعاؤُهم ـ تَعالى اللهُ عَمَّا يُشْرِكونَ ـ.

* * *

---

(١) في المخطوط «تدعون».

(٢) الزخرف: (٨٦).

(٣) في المخطوط «تدعون».

التاسعة والأربعون

قَتْلُ أولياءِ اللهِ ، وقَتْلُ الذينَ يأْمُرون بِالقِسْطِ مِنَ النَّاسِ .

قالَ ـ تَعالى ـ في سورة «البَقَرَةِ» : ﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ[1] ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾[2] .

وقال في سورةِ «آلِ عِمرانَ» : ﴿ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[3] . .

إلى آياتٍ أُخرى في هذا المَعْنى صَرَّحَتْ بما لاقاهُ الأنْبِياءُ والرُّسُلُ عَلَيْهِمُ السَّلامُ وأتْباعُهُم المُخْلِصونَ ودُعاةُ الحَقِّ[4] ، وبِما كابَدوهُ مِن أعداءِ اللهِ والجَهَلَةِ الطُّغاةِ ، مِمَّا تَنْهَدُّ لَهُ الصَّياصِي ، وتَبْيَضُّ مِنْهُ النَّواصِي .

هؤلاءِ أكابِرُ الأمَّةِ المُحَمَّدِيَّةِ وعُلَماؤُها الأعلامُ ، قد صَادَفوا عِندَ

---

(١) في المخطوط «بغير حق» وهو خطأ .

(٢) البقرة : (٦١) .

(٣) آل عمران : (١٨٣) .

(٤) جاء في حاشية المخطوط : «من ذلك أن الشيخ المصنِّف لاقى من أبناء زمانه كبيرهم وصغيرهم ، لما دعاهم إلى التوحيد التي جاءت به الرسل ما تنهدُّ له الصياصي ، وتشيب له النواصي ، كما لا يخفى على من طالع سيره المقدسة ، تغمده الله برحمته ورضوانه» .

دَعوتِهِم إلى الحَقِّ والمُحافظَةِ عَلَيه ما يَسْوَدُّ منه وجهُ القِرْطاسِ ، وتَشيبُ منه لِمَمُ المِدادِ.

والأنبياءُ[1] ـ صلواتُ اللهِ عليهِم ـ وأتباعُهُم المُؤمنون وإنْ كانوا يُبْتَلَوْنَ في أوَّلِ الأمْرِ ، فالعَاقِبَةُ لَهم:

كما قال ـ تعالى ـ لَمَّا قَصَّ قصةَ نوحٍ: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وفي الحَديثِ المُتَّفَقِ على صِحَّتِهِ لما أرسلَ النَّبيُّ ﷺ رسولاً إلى مَلِكِ الرُّومِ ، فَطَلَبَ مَنْ يُخْبِرُهُ بسيرتِهِ ـ وكانَ المُشرِكونَ حِيْنَئذٍ أعداءَهُ ، لم يَكونوا آمَنوا بِهِ ـ فقالَ: «كيفَ الحربُ بَيْنَكُم وَبَيْنَهُ؟ قالوا: الحَرْبُ بَيْنَنا وبَيْنَهُ سِجالٌ ، يُدالُ علينا المَرَّةَ ، ونُدالُ عَليه الأخْرَى. فقالَ: كذلكَ الرُّسُلُ تُبْتَلَى ، وتكونُ لها العَاقِبَةُ»[3].

فإنَّه كانَ يومَ بدرٍ نَصْرَ اللهِ المُؤمِنينَ ، ثُمَّ يَوْمَ أُحُدٍ ابتُلِيَ المُؤمِنونَ ، ثم لم يُنْصَرِ الكُفَّارُ بَعْدَها ، حَتَّى أظْهَرَ اللهُ ـ تَعالى ـ الإسْلامَ.

فإنْ قِيلَ: ففي الأنبياءِ مَن قد قُتِلَ ، كما أخْبَرَ اللهُ ـ تعالى ـ في الآياتِ السَّابِقَةِ أنَّ بَني إسرائيلَ يَقْتُلونَ النَّبِيِّينَ بِغيرَ الحَقِّ ، وفي أهلِ الفُجورِ مَنْ يُؤْتيهِ اللهُ مُلكاً وسُلْطاناً وَيُسَلِّطُهُ على المُتَدَيِّنينَ كما سَلَّطَ بُخْتَ نَصَّرَ على بَني إسرائيلَ ، وكما سَلَّطَ كفَّارَ المُشرِكينَ وأهلِ الكتابِ ـ أحياناً ـ على المُسْلِمينَ؟

---

(١) من هنا يبدأ النقل من كتاب «الجواب الصحيح» (٦/ ٤١٢ ـ ٤٢٥) ، وسأشير إلى نهايته في موضعه.

(٢) هود: (٤٩).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب بدء الوحي ـ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/ ٥ ـ ٧).

قيلَ: أمَّا مَنْ قُتِلَ مِن الأنبياءِ فهم كمَنْ يُقْتَلُ مِنَ المُؤْمِنينَ في الجِهادِ شَهيداً.

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ[1] ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

ومعلومٌ أنَّ مَنْ قُتِلَ مِنَ المُؤمِنينَ شَهيداً[3] في القتال، كان حالُه أكملَ من حالِ مَنْ يَموتُ حَتْفَ أنفِهِ.

قالَ ـ تَعالى ـ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[4].

ولهذا قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[5]، أيْ: إما النصر والظفر، وإما الشهادة والجنة.

ثُمَّ إنَّ الدِّينَ الذي قاتَلَ عليه الشُّهَداءُ يَنْتَصِرُ وَيَظْهَرُ، فَيَكون لِطائفتهِ السَّعادةُ في الدُّنيا والآخرةِ: مَن قُتِلَ مِنهم كان شهيداً، ومَن عاشَ مِنهم كانَ منصوراً سَعيداً، وهذا غايةُ ما يكونُ مِن النَّصرِ، إذْ كان الموتُ لا بُدَّ منهُ، فالموتُ على الوجهِ الذي تَحصُلُ به سعادةُ الدُّنيا والآخرةِ أكملُ، بِخلافِ مَنْ يَهلِكُ هو وطائفتُه، فلا يفوزُ لا هو ولا هم بمطلوبِهِم لا في الدُّنيا ولا في الآخِرَةِ.

---

(١) في المخطوط «فأثابهم» وهو خطأ.

(٢) آل عمران: (١٤٦ ـ ١٤٨).

(٣) في المخطوط «شهيد» والصواب ما أثبته.

(٤) آل عمران: (١٦٩).

(٥) التوبة: (٥٢).

والشُّهَداءُ مِن المؤمِنين قاتَلوا باختيارِهِم ، وَفَعَلوا الأسبابَ التي بِها قُتِلوا ، كالأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عنِ المُنْكَرِ ، فَهُمُ اخْتاروا هٰذا المَوْتَ ، إمَّا أنَّهم قَصَدوا الشَّهادةَ ، وإمَّا أنَّهم قَصَدوا ما به يَصيرون شُهَداءَ عالِمِينَ بأنَّ لهُم السَّعادةَ في الآخِرَةِ ، وفي الدُّنيا بِانتصارِ طائِفَتِهم وبِبَقاءِ لِسانِ الصِّدْقِ لهم ثَناءً ودُعاءً ، بِخِلافِ مَن هَلَكَ مِن الكُفَّارِ ، فَإنَّهم هَلَكوا بِغيرِ اختيارِهِم هَلاكاً لا يرجونَ مَعه سَعادَةَ الآخِرَةِ ، ولم يَحصلْ لَهُمْ ولا لِطائِفَتِهِم شَيءٌ مِن سعادةِ الدُّنيا ، بَلْ أُتبِعوا في هذهِ الدُّنيا لَعْنَةً ويومَ القِيامةِ هُمْ مِنَ المَقْبوحينَ ، وَقيلَ فيهِمْ: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾(١) .

وقد أخْبَرَ ـ سُبحانَه ـ أنَّ كثيراً مِن الأنبياءِ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كثيرٌ ، أيْ: أُلوفٌ كثيرةٌ ، وأنَّهم ما ضَعفُوا ولا اسْتَكانوا لذلِكَ ، بلِ اسْتَغْفَروا مِنْ ذُنوبِهِم التي كانتْ سَبَبَ ظُهورِ العدوِّ ، وأنَّ اللهَ ـ تَعالى ـ آتاهُمْ ثَوابَ الدُّنيا وحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ .

فإذا كان هذا قَتْلَ المُؤْمِنينَ ، فَما الظَّنُّ بِقتلِ الأنْبياءِ؟ ففيه لهم ولأتباعِهِم مِن سَعادةِ الدُّنيا والآخرةِ ما هو مِن أعظمِ الفَلاحِ .

وظُهورُ الكُفَّارِ على المُؤمِنينَ ـ أحْياناً ـ هو بِسَبَبِ ذُنوبِ المُسْلِمينَ ، كيَومِ أُحُدٍ ، فإنْ تابوا انْتَصَروا على الكفَّارِ ، وكانتِ العاقِبةُ لهم ، كما قد جَرَى مِثْلُ هذا لِلمُسْلِمين في عامَّةِ ملاحِمِهِم معَ الكُفَّارِ .

وهٰذا من آياتِ النُّبُوَّةِ وأعْلامِها وَدَلائِلِها ، فإنَّ النبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم إذا قاموا بِعُهودِهِ وَوصاياهُ ، نَصَرَهُمُ اللهُ ، وأظْهَرَهُمْ على

(١) الدخان: (٢٥ ـ ٢٩).

المُخالِفينَ لَهُ ، فإذا ضَيَّعوا عُهودَهُ ظَهَرَ أُولئكَ عَليهم.

فمَدارُ النَّصرِ والظُّهورِ مَعَ مُتابَعَةِ النَّبي ﷺ وُجوداً وعَدَماً مِن غير سَبَبٍ يزاحِمُ ذلك ، ودورانُ الحُكْمِ مَعَ الوصفِ وجوداً وعدماً مِن غير مزاحَمَةِ وصفٍ آخَرَ يوجِبُ العِلْمَ بأنَّ المَدارَ عِلَّةٌ للدائِرِ ، وقولُنا: «مِن غيرِ وصفٍ آخَرَ»: يُزيلُ النُّقوضَ الواردَةَ.

فهذا الاستقراءُ والتَّتَبُّعُ يُبَيِّنُ أنَّ نَصْرَ اللهِ وإظهارَه هو بسبب اتِّباعِ النَّبِيِّ ، وأنَّه ـ سُبحانَه ـ يُريدُ إعْلاءَ كَلِمَتِهِ وَنَصْرَهُ وَنَصْرَ أتْباعِهِ على مَن خالَفَه ، وأنْ يَجعلَ لهم السَّعادةَ ولِمَن خالَفَهم الشَّقاءَ ، وهذا يوجِبُ العِلْمَ بنُبوَّتِهِ ، وأنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ كانَ سَعيداً ، ومَن خالَفه كانَ شَقِيّاً.

ومن هذا: ظُهورُ بُخْتَ نَصَّرَ على بَني إسرائيلَ ، فإنَّه مِن دلائلِ نُبُوَّةِ موسى؛ إذ كانَ ظهورُ بُخْتَ نَصَّرَ إنَّما كانَ لَمَّا غَيَّروا عُهودَ موسى ، وَتَرَكوا اتِّباعَهُ ، فَعُوقِبوا بِذلكَ ، وكانوا ـ إذْ كانوا مُتَّبِعينَ لِعُهودِ موسى ـ مَنْصورينَ مُؤَيَّدينَ ، كما كانوا في زَمَنِ داودَ وسُلَيمانَ وغيرِهما.

قالَ ـ تَعالى ـ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤ فَإِذَا[1] جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ[2] عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ۝٥ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ[3] نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟

(١) في المخطوط «فلما» وهو خطأ.
(٢) في المخطوط «عليهم» وهو خطأ.
(٣) في المخطوط «أكبر» وهو خطأ.

ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيرًا ۝٧ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ﴾(١).

فكانَ ظُهورُ بَني إسرائيلَ على عَدُوِّهم تارةً ، وظُهورُ عَدُوِّهم عَلَيهم تارةً من دَلائلِ نُبُوَّة موسى ﷺ وآياته ، وكَذلكَ ظُهورُ أُمَّة محمَّد صلى الله تعالى عَلَيه وسلَم على عَدُوِّهم تَارةً ، وظَهورُ عَدُوِّهم تارةً(٢)، هو من دلائلِ رِسالة محمَّد صلى الله تعالى عليه وسلم وأعلامِ نُبُوَّتـه.

وكانَ نَصْرُ الله لموسى وقومه على عَدُوِّهم في حَياته وَبَعْدَ مَوْته ، كما جَرَى لَهُمْ مِنْ يوشَعَ وغيره مِنْ دَلائلِ نُبُوَّة موسى ، وكذلكَ انتصارُ المؤمنين مَعَ مُحَمَّد صَلى الله تعالىَ عَليه وسَلم في حياته وبَعْدَ مماته مع خُلفائه مِنْ أعلامِ نبوَّته وَدَلائلها.

وهذا بخلاف الكُفَّار الذين يَنْتَصرُونَ عَلى أهلِ الكتَاب أحياناً ، فإنَّ أولئكَ لا يَكونُ مُطاعُهم إلى نَبيٍّ ، ولا يُقاتلونَ أتْباعَ الأنبياء على دين ، ولا يَطلُبونَ من أولئكَ أنْ يَتَّبعوهُم على دينهم ، بَلْ قد يُصَرِّحونَ بأنَّا إنما نُصِرْنا عَلَيكم بِذُنوبكَم ، وأنْ لَو اتَّبَعْتُم دينَكَم لم نُنْصَرْ عَليكم.

وأيضاً فلا عَاقبَةَ لهم ، بَل اللهُ يُهلكُ الظَّالمَ بالظَّالمِ ، ثُمَّ يهلكُ الظَّالمينَ جميعاً ، ولا قَتيلُهم يَطلبُ بِقَتْله سَعَادةً بعدَ الموتَ ، ولا يَختارونَ القَتْلَ لِيَسعَدوا بعد المَوت.

فهذا وأمثالُه مِمَّا يُظْهِرُ الفَرْقَ بَيْنِ انتصارِ الأنبياء وأتْباعهم ، وَبَيْنَ ظُهورِ

---

(١) الإسراء: (٤ ـ ٨).

(٢) في المطبوع «وظهور عدوهم عليهم تارة» وما أثبته موافق للمطبوع من الجواب الصحيح ، وما في المطبوع موافق لبعض النسخ الخطية للجواب الصحيح كما بين ذلك محقيق الكتاب.

بعضِ الكفَّارِ على المُؤْمِنينَ ، أو ظهورِ بعضِهم على بعضٍ ، وبَـيَّنَ[1] أنَّ ظُهورَ محمَّدٍ ﷺ وأُمَّتِهِ على أهلِ الكِتابِ: اليهودِ والنَّصارى ، هو من جِنسِ ظُهورِهِم على المُشرِكينَ: عباد الأوثانِ ، وذلك مِن أعلام نُـبُـوَّتِـهِ ودلائلِ رِسالَتِه ، لَيس هو كَظُهورِ بُخْتَ نَصَّرَ على بني إسرائيلَ وظُهورِ الكُفَّارِ على المُسْلِمينَ.

وهذه الآيةُ مِمَّا أخبَرَ بِهَا[2] موسى ، وبَيَّنَ أنَّ الكذَّابَ المُدَّعي لِلنُّبُوَّةِ لا يَتِمُّ أمرُهُ ، وإنَّما يَتِمُّ أمرُ الصَّادِقِ.

فإنَّ مِن أهلِ الكِتابِ مَن يَقولُ: محمَّدٌ وأُمَّتُه سُلِّطوا عَلَيْنا بِذُنوبِنا مَعَ صِحَّةِ دِينِنا الذي نَحنُ عَلَيه ، كَما سُلِّطَ بُخْتَ نَصَّرَ وغيرُه مِن الملوكِ.

وهذا قِياسٌ فاسِدٌ ، فإنَّ بُخْتَ نَصَّرَ لَم يَدَّعِ نُبُوَّةً ، ولا قَاتَلَ على دينٍ ، ولا طَلَبَ مِن بني إسرائيلَ أنْ يَنْـتَـقِلوا عَن شَريعةِ موسى إلى شَريعتِهِ ، فلم يَكن في ظُهورِهِ إتمامٌ لِما ادَّعاهُ مِن النُّـبُـوَّةِ وَدَعا إلَيه مِنَ الدِّينِ ، بَل كانَ بِمَنْزِلَةِ المُحارِبينَ قُطَّاع الطَّريقِ إذا ظَهَروا على القَوافِلِ ، بِخِلافِ مَنِ ادَّعى نُـبُـوَّةً وديناً ، ودَعا إليه ، وَوَعَدَ أهلَهُ بِسعادَةِ الدُّنيا والآخرةِ ، وَتَوَعَّدَ مُخالِفيه بِشَقاوةِ الدُّنيا والآخرَةِ ، ثُمَّ نَصَرَهُ اللهُ ، وأظْهَرَهُ ، وَأتَمَّ دِينَهُ ، وأعلى كَلِمَتَهُ ، وَجَعَلَ لَه العاقِبَةَ ، وأَذَلَّ مُخالِفيهِ.

فَإنَّ هذا مِن جنسِ خَرقِ العاداتِ المُقْتَرِنِ بِدَعوى النُّـبُـوَّةِ ، فإنَّـهُ دليلٌ عَلَيْها ، وذاك من جنس خرق العادات التي لم تقترن بدعوى النبوة[3] فإنه ليس دليلاً عليها.

---

(١) في المطبوع «ويبين» وما أثبته هو الموافق لما في الجواب الصحيح.
(٢) في المطبوع «به» وما أثبته هو الموافق لما في الجواب الصحيح.
(٣) في المطبوع «المقترن بدعوى النبوة» وهو خطأ.

وَقَدْ يَغْرَقُ[1] في البَحْرِ أُمَمٌ كثيرةٌ ، فلا يَكونُ ذلك دَليلاً على نُبُوَّةِ نَبِيٍّ ، بِخِلافِ غَرَقِ فِرْعَونَ وَقَومِهِ ، فَإِنَّه كانَ آيةً بَـيِّـنَـةً لموسى .

وهذا مُوافِقٌ لِما أَخْبَرَ بِهِ موسى ـ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ مِن أَنَّ الكذَّابَ لا يَتِمُّ أَمْرُهُ ، وذلكَ بِأَنَّ اللهَ حَكيمٌ لا يَليقُ بِهِ تأييدُ الكَذَّابِ على كَذِبِهِ مِن غيرِ أَنْ يُـبَـيِّنَ كَذِبَـهُ .

ولِهذا أَعْظَمُ الفِتَنِ: فِتْنَةُ الدَّجَّالِ الكَذَّابِ ، لَمَّا اقْتَرَنَ بِدَعْواهُ الألوهِيَّةَ بعضُ الخَوارِقِ ، كان مَعَها ما يَدُلُّ على كَذِبِهِ مِن وجوهٍ:

مِنها: دَعْواهُ الألوهِيَّةَ ، وهو أَعْوَرُ ، واللهُ ليس بأعْوَرَ[2] ، مَكتوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ: كافرٌ[3] ، يَقْرَؤهُ كُلُّ مُؤمِنٍ قارِىءٍ وغير قارىءٍ[4] ، واللهُ ـ تعالى ـ لا يَراه أَحَدٌ حتَّى يموتَ[5] ، وقد ذَكَرَ النَّبِيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم هذهِ العلاماتِ الثلاثَ في الأحاديثِ الصَّحيحةِ .

فَأَمَّا[6] تَأْيِيدُ الكَذَّابِ ، ونَصْرُهُ ، وإظهارُ دعوتِهِ دائماً ، فهذا لم يَقَعْ قَطُّ ، فَمَنْ يَستدلُّ على ما يَفْعَلُهُ الرَّبُّ ـ سُبحانَه ـ بالعادةِ والسُّنَّةِ ، فهذا هو

---

(١) في المطبوع «تغرق» وما أثبته هو الموافق لما في «الجواب الصحيح» .

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الفتن ـ باب ذكر الدجال ـ (٨/ ١٠٢) ، ومسلم في «صحيحه» ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب ذكر الدجال (٤/ ٢٢٤٧) ح ١٦٩ .

(٣) أخرجه البخاري ـ كتاب الفتن ـ باب ذكر الدجال (٨/ ١٠٣) ، ومسلم ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب ذكر الدجال (٤/ ٢٢٤٨) ح ٢٩٣٣ .

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» ـ كتاب الفتن ـ باب ذكر الدجال (٤/ ٢٢٤٨) ح ٢٩٣٣ .

(٥) أخرجه مسلم في «صحيحه» ـ كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب ذكر الدجال ـ (٤/ ٢٢٤٥) ح ١٦٩ .

(٦) في المخطوط «فإن» وما أثبته من المطبوع ، وهو الموافق لما في «الجواب الصحيح» .

الواقعُ على ذلك ـ أيضاً ـ بِالحِكمةِ ، فحِكمتُهُ تُناقِضُ أنْ يَفعلَ ذلكَ ، إذ الحَكيمُ لا يَفعلُ هذا.

وَقَدْ قالَ ـ تَعالى ـ: ﴿ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾[1].

فَأخبَرَ أنَّ سُنَّةَ اللهِ التي لا تَبديلَ لَها: نصرُ المُؤمنينَ على الكافِرينَ.

والإيمانُ المُسْتَلْزِمُ لِذلِكَ يَتَضَمَّنُ طاعةَ اللهِ ورسولِهِ ، فإذا نَقَصَ الإيمانُ بِالمَعاصي كانَ الأمْرُ بِحَسَبِهِ ، كَما جَرَى يومَ أُحُدٍ.

وقالَ ـ تَعالى ـ: ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ[2] نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾[3].

فَأخبَرَ أنَّ الكفارَ لا يَنْظُرونَ إلا سُنَّةَ الأوَّلين ، ولا يوجَدُ لِسُنَّةِ اللهِ تبديلٌ ، لا تُبَدَّلُ بغيرِها ، ولا تَتحوَّلُ ، فكيفَ النَّصْرُ لِلكُفَّارِ على المُؤْمِنينَ الَّذين يَسْتَحِقُّونَ هذا الاسمَ ؟!

وكذلك قال في المنافِقِينَ ـ وهم الكفَّارُ في الباطِنِ دونَ الظَّاهرِ ـ ومَنْ فيه شُعبةُ نِفاقٍ: ﴿ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا

(١) الفتح: (٢٢ ـ ٢٣).
(٢) في المخطوط والمطبوع «جاءكم» ، وهو خطأ.
(٣) فاطر: (٤٢ ـ ٤٣).

﴿ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ۝٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾[1].

والسُّنَّةُ هي العادةُ ، فهذهِ عادةُ اللهِ المعلومةُ ، فإذا نَصَرَ مَنْ ادَّعى النُّبُوَّةَ وأتْباعَه على مَنْ خالَفَه، إمَّا ظاهِراً وإمَّا باطِناً نَصْراً مستقرّاً، فإنَّ ذلكَ دليلٌ على أنَّه نَبيٌّ صادقٌ ، إذ كانت سُنَّةُ اللهِ وعادتُه نصرَ المؤمنين بالأنبياء الصَّادقين على الكافرين والمنافقين ، كما أنَّ سُنَّتَه تأييدُهم بالآيات البيِّنات ، وهذه منها.

ومن ادَّعى النُّبُوَّةَ وَهو كاذبٌ ، فَهو مِنْ أكْفرِ الكُفَّارِ وأظْلَمِ الظَّالِمينَ:

قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمۡ يُوحَ إِلَيۡهِ شَيۡءٞ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثۡلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۗ﴾[2].

وقالَ ـ تَعالى ـ: ﴿۞فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾[3].

وقالَ ـ تَعالى ـ: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ﴾[4].

وقالَ ـ تَعالى ـ: ﴿فَمَنۡ[5] أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[6].

ومَنْ كانَ كذلكَ ، كان اللهُ يَمقُتُـهُ ، ويُبغضُه ، ويُعاقِبُه ، ولا يَدومُ

---

(1) الأحزاب: (٦٠ ـ ٦٢).
(2) الأنعام: (٩٣).
(3) الزمر: (٣٢).
(4) العنكبوت: (٦٨).
(5) في المخطوط «ومن» وهو خطأ.
(6) الأنعام: (١٤٤).

أمرُهُ ، بَلْ هو كما قالَ النَّبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم في الحديثِ الصَّحيح عن أبي هريرةَ قالَ: «إنَّ اللهَ يُمْلِي لِلظَّالمِ ، فإذا أخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» ، ثُمَّ قَرَأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1] ، وقالَ ـ أيضاً ـ في الحديثِ الصَّحيحِ عن أبي موسى أنَّه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِ كَمَثَلِ الخامَةِ مِنَ الزَّرعِ ، تُفَيِّـؤُها الرِّياحُ ، تُقيمُها تارةً وتُميلُها أُخرى ، وَمَثَلُ المُنافِقِ كَمَثَلِ شَجَرَةِ الأرْزِ ، لا تَزَالُ ثابِتَةً على أصلِها ، حَتى يكونَ انْجِعَافُها مرَّةً واحدةً»[2] .

فالكاذبُ الفَاجِرُ وإنْ عَظُمَتْ دَولتُهُ ، فلا بُدَّ من زوالِها بالكُلِّيَّةِ ، وبقاءِ ذَمِّهِ ولِسانِ السَّوْءِ لَه في العالَمِ ، وهو يَظْهَرُ سَريعاً ، ويَزولُ سَريعاً ، كَدَوْلَةِ الأسودِ العنسيِّ ، ومُسَيْلِمَةَ الكذَّابِ ، والحارثِ الدِّمَشقيِّ[3] ، وبابا الرومي[4] ونحوِهم.

---

(١) لم أجدهُ من حديث أبي هريرة ، وإنما أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب التفسير ـ باب ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ـ (٥/ ٢١٤) ، ومسلم في «صحيحه» ـ كتاب البر والصلة والآداب ـ باب تحريم الظلم ـ (٤/ ١٩٩٧) ح ٢٥٨٣ من حديث أبي موسى.

(٢) لم أجده من حديث أبي موسى ، وإنما أخرجه مسلم في «صحيحه» ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ـ باب مثل المؤمن كالزرع ومثل الكافر كشجر الأرز ـ(٤/ ٢١٦٣) ح ٢٨٠٩ من حديث أبي هريرة ، وأخرجه ـ أيضاً ـ في نفس الكتاب والباب من حديث كعب بن مالك.

(٣) هو الحارث بن سعيد الدمشقي ، دجال كذاب ، ادعى النبوة زمن عبد الملك بن مروان ، فطلبه ، فهرب إلى بيت المقدس ، وفتن بعض الناس بمخاريق شيطانية كانت معه ، ثم تمكن عبد الملك من القبض عليه وصلبه ، وذلك عام ٨٠ هـ.
انظر في شأنه: «الوافي بالوفيات» (١١/ ٢٥٤) ، «تهذيب تاريخ دمشق» (٣/ ٤٤٢)، «تاريخ الإسلام» (حوادث سنة ٨٠ ص ٣٨٦).

(٤) في المطبوع «وبابك الخرمي» وما أثبته من المخطوط هو الموافق لما في «الجواب الصحيح». =

وأمَّا الأنبياءُ ، فإنَّهم يُبْتَلَونَ كثيراً لِيُمَحَّصوا بالبَلاءِ ، فإنَّ اللهَ ـ تَعالى ـ إنَّما يُمَكِّنُ لِلْعَبْدِ إذا ابْتَلاهُ ، ويُظْهِرُ أمرَهُ شَيئاً فشيئاً ، كالزَّرع ، قال ـ تعالى ـ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ ﴾ ، أيْ : فِراخَهُ ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ ، أيْ : قَوَّاهُ ﴿ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾[1] .

ولِهذا كان أوّلَ مَنْ يَتَّبِعُهُمْ[2] ضُعَفاءُ النَّاسِ بِاعْتِبارِ هذه الأمورِ .

وسُنَّةُ اللهِ في أنبياءِ اللهِ وأوليائِه الصَّادقين ، وفي أعداء اللهِ والمُتَنَبِّئِينَ الكذّابينِ مِمَّا يوجِبُ الفرقَ بين النَّوعَينِ ، وبَيْنَ دَلائلِ النَّبيِّ الصَّادقِ ودَلائلِ المُتَنَبي الكذّابِ .

وقد ذُكِرَ ابتلاءُ النَّبيِّ والمؤمنينَ ثُمَّ كَونُ العاقِبَةِ لهم في غير موضِعٍ :

كَقَولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمۡ نَصۡرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدۡ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾[3] .

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾[4] .

= وباب الرومي هذا لم أجد له ترجمة .

(١) الفتح : (٢٩).

(٢) في المطبوع : «اتبعهم» .

(٣) الأنعام : (٣٤).

(٤) البقرة : (٢١٤).

وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْـَٔاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ[1] ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

والمقصودُ أن إيذاءَ القائِمينَ بالحَقِّ ، والنَّاصِرينَ له مِن سَنَنِ أهْلِ الجاهِلِيَّةِ ، وكَثيرٌ مِن أهلِ عصرِنا على ذلك ، واللهُ المُستعَانُ.

* * *

(١) في المخطوط «يعقلون».

(٢) يوسف: (١٠٩ ـ ١١١) ، وهنا انتهى النقل الذي بدأه (ص ١٦٠) من كتاب «الجواب الصحيح».

الخمسون

الإيمانُ بِالجِبْتِ والطَّاغوتِ ، وتَفْضيلُ المُشرِكينَ على المُسْلِمينَ.

قال ـ تعالى ـ في سورةِ «النِّساءِ»: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾[1].

هذه الآيةُ نَزَلَتْ في حُيَيِّ بنِ أخطَبَ وَكَعْبِ بنِ الأشرَفِ في جَمْعٍ مِن يهودَ ، وذلك أنَّهم خَرَجوا إلى مكَّةَ بَعْدَ وقْعَةِ أُحُدٍ؛ لِيُحالِفوا قُريشاً على رسولِ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم ، وَيَنْقُضوا العَهْدَ الذي بَيْنَهم وَبَيْنَ رسولِ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم ، فَنَزَلَ كعبٌ على أبي سُفيانَ ، فَأَحْسَنَ مَثْواهُ ، وَنَزَلَتِ اليهودُ في دورِ قرَيْشٍ ، فقالَ أهلُ مَكَّةَ: أَنْتُمْ أهلُ كِتابٍ ، ومحمَّدٌ صلى الله تعالى عليه وسلم صاحِبُ كِتابٍ ، فلا يُؤْمَنُ هذا أنْ يكونَ مَكْراً مِنكُمْ ، فإنْ أرَدْتَ أَنْ نَخْرُجَ مَعَكَ فَاسْجُدْ لِهذَينِ الصَّنَمَينِ وآمِنْ بِهِما ، فَفَعَلَ ، ثُمَّ قال كعبٌ: يا أهلَ مَكَّةَ! لِيَجِيءْ مِنكم ثلاثونَ ومِنَّا ثلاثونَ ، فَنُلْزِقْ أكْبادَنا بالكعبةِ ، فنعاهِدْ ربَّ البيتِ لَنَجْهَدَنَّ على قِتالِ مُحَمَّدٍ ، فَفَعَلوا ذلك.

فَلَمَّا فَرَغُوا قال أبو سُفيانَ لِكَعبٍ: إنَّك امرؤٌ تَقْرأُ الكتابَ وتَعْلَمُ ،

---

(١) النساء: (٥١).

ونحنُ أُمِّيُّونَ لا نَعْلمُ ، فَأيُّنا أهْدى طَريقاً وأقرَبُ إلى الحَقِّ: نَحْنُ[1] أمْ مُحَمَّدٌ؟ قال كعبٌ: اعرِضوا عليَّ دِينكم ، فَقالَ أبو سُفيانَ: نَحنُ نَنْحَرُ لِلْحَجيجِ الكَوْماءَ[2] ، وَنَسْقِيهِمُ اللَّبَنَ ، ونَقْرِي الضَّيفَ ، ونَفُكُّ العَانيَ ، ونَصِلُ الرَّحِمَ ، ونَعْمُرُ بيتَ رَبِّنا ، وَنَطوفُ بِهِ ، وَنَحْنُ أهلُ الحَرَمِ ، ومحمَّدٌ فارَقَ دِينَ آبائِهِ ، وَقَطَعَ الرَّحِمَ ، ودينُنا القديمُ ، ودينُ محمَّدٍ الحديثُ ، فقال كَعبٌ: أَنْتُمْ واللهِ أهدىٰ سَبيلاً مِمَّا عَلَيْهِ مُحمَّدٌ ، فَأنْزَلَ اللهُ في ذلكَ الآيةَ[3] .

والجِبْتُ في الأصلِ: اسمُ صَنَمٍ ، فاسْتُعْمِلَ في كُلِّ مَعْبودٍ غَيْرِ اللهِ.

والطَّاغوتُ: يُطْلَقُ على كُلِّ باطِلٍ مِنْ معبودٍ أو غَيْرِهِ.

ومَعنى الإيمانِ بِهِما: إمَّا التَّصْديقُ بأنَّهُما آلهةٌ ، وإشراكُهُما بِالعِبادةِ مَعَ اللهِ ـ تعالى ـ ، وإمَّا طاعَتُهُما وموافَقَتُهُما على ما هُما عَلَيه مِنَ الباطِلِ ، وإمَّا القَدْرُ المُشْتَرَكُ بَيْنَ المَعْنَيَيْنِ كالتَّعْظِيمِ ـ مَثَلاً .

والمُتَبادِرُ المَعْنَى الأوَّلُ ، أيْ: أنَّهُم يُصَدِّقُونَ بِأُلوهِيَّةِ هذيْنِ الباطِلَيْنِ ، وَيُشْرِكونَهما في العِبادةِ مَعَ الإِلٰهِ الحَقِّ ، وَيَسْجُدونَ لَهُما.

* * *

---

(١) في المطبوع «أنحن».

(٢) الكوماء: الناقة عظيمة السنام. انظر: لسان العرب «كوم».

(٣) في المطبوع «الآيات» والحديث أخرجه ابن شبة في «أخبار المدينة» (٢/ ٥٩) ، وابن جرير في «تفسيره» (٥/ ١٢٣) ، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣/ ١٩٣) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢٥١).

الحادية والخمسون

لَبْسُ الحَقِّ بِالباطِلِ ، وَكِتْمانُهُ.

قالَ ـ تَعالى ـ في سورةِ «آلِ عمرانَ»: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وفي المُرادِ أقوالٌ:

أَحَدُها: أنَّ المُرادَ تَحريفُهُم التَّوراةَ والإنجيلَ[2].

ثانِيها: أنَّ المُرادَ إظهارُهُم الإسلامَ ، وإبطانُهُم النِّفاقَ[3].

ثالِثُها: أنَّ المُرادَ الإيمانُ بِموسى وعِيسى ، والكُفرُ بِمحمَّدٍ[4] عليه السلام.

---

(١) آل عمران: (٧١).

(٢) وهذا قول الحسن وابن زيد.
انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٠١) ، «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١/ ٣٤٢) ، «البحر المحيط» (٢/ ٤٩١) ، «روح المعاني» (٣/ ١٩٩).

(٣) وهذا قول ابن عباس وقتادة وابن جرير.
انظر: «تفسير ابن جرير» (٣/ ٣١٠) ، «البحر المحيط» (٢/ ٤٩١) ، «روح المعاني» (٣/ ١٩٩).

(٤) انظر: «النكت والعيون» (١/ ٤٠١) ، «تفسير النسفي» (١/ ١٦٢) ، «البحر المحيط» (٢/ ٤٩١) ، «روح المعاني» (٣/ ١٩٩).

رَابِعُها: أنَّ المُرادَ ما يَعْلَمونَـه في قُلوبِهِـم مِن حَقيقةِ رِسالتِـهِ ﷺ، وما يُظْهِرونَهُ مِن تكْذِيبِهِ[1].

* * *

(١) وهو قول أبي علي وأبي مسلم.
انظر: «البحر المحيط» (٢/ ٤٩١)، «روح المعاني» (٣/ ١٩٩).

الثانية والخمسون

التَّعَصُّبُ لِلْمَذْهَبِ ، والإقرارُ بالحَقِّ لِلتَّوَصُّلِ إلى دَفْعِهِ.

قالَ ـ تَعالى ـ في سورة «آلِ عِمرانَ»: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ[1] قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾[2].

قالَ الحسنُ والسُّدِّيُّ[3]: تَوَاطَأَ اثنا عَشَرَ رَجُلاً مِن أحبارِ يَهودِ خَيْبَرَ وقُرى عَرِينِ ، وقال بعضُهُم لِبَعْضٍ: ادْخُلوا في دِينِ محمَّدٍ أوَّلَ النَّهارِ باللِّسانِ دونَ الاعتقادِ ، واكفُروا آخِرَ النَّهارِ ، وقولوا: إنَّا نَظَرْنا في كُتُبِنا ، وشاوَرْنا عُلَماءَنا ، فَوَجَدْنا مُحمَّداً ليس بِذاكَ ، وَظَهَرَ لنا كَذِبُهُ ، وبُطلانُ دِينِهِ ، فإذا فَعَلْتُم ذلك شَكَّ أصحابُهُ في دِينِهِم ، وقالوا: إنَّهم أهلُ كِتابٍ ، وهُمْ أعْلَمُ بِهِ ، فَيَرْجِعونَ عَن دِينِهِم إلى دِينِكم[4].

* * *

(١) في المخطوط «أو يحاجوكم به عند ربكم» وهو خطأ.

(٢) آل عمران: (٧٢ ـ ٧٤).

(٣) في المطبوع: «السعدي».

(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٣١١) ، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٣٧).

الثالثة والخمسون

تسمِيَةُ اتِّباعِ الإسلامِ شِرْكاً.

قال ـ تعالى ـ: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1].

أخرَجَ ابنُ إسحاقَ بِسَنَدِهِ: حِيْنَ اجْتَمَعَتِ الأحْبارُ مِنَ اليهودِ والنَّصارى من أهلِ نَجْرانَ عِنْدَ رسولِ اللهِ ﷺ، وَدَعاهُم إلى الإسلامِ، قالوا: أتُريدُ يا محمدُ أنْ نَعْبُدَكَ كَما تَعْبُدُ النَّصارىٰ عِيسى بنَ مَرْيَمَ؟ فقالَ رَجُلٌ مِن أهلِ نَجْرانَ نَصْرَانِيٌّ يُقالُ لَهُ الرَّئيسُ: أوَذاكَ تُريدُ مَنَّا يا محمَّدُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَعَاذَ اللهِ أن نَعْبُدَ غَيْرَ اللهِ، أوْ نَأْمُرَ بِعِبَادَةِ غيرِهِ، وما بِذلِكَ بَعَثَني، وَلاَ بِذلِكَ أمَرَني»، فَأَنْزَلَ اللهُ ـ تَعالى ـ هذه الآية[2].

* * *

---

(١) آل عمران: (٧٩ ـ ٨٠).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في «السيرة» (مختصر ابن هشام ١/ ٥٥٤)، وابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٦٩ ـ ٣٧٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٣٨٤)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ٤٦) وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

الرابعة والخمسون

تحْريفُ الكَلِمِ عَنْ مواضِعِهِ ، وَلَيُّ الألْسِنَةِ بِالكِتابِ .

قالَ ـ تَعالى ـ في سورةِ «آلِ عِمرانَ» : ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾(١) .

رُوِيَ أَنَّ الآيةَ نَزَلَتْ في اليهودِ والنَّصارى جَميعاً ، وَذٰلِكَ أَنَّهم حَرَّفوا التَّوراةَ والإِنْجيلَ ، وَأَلْحَقوا بِكِتابِ اللهِ ـ تعالى ـ ما لَيْسَ مِنْهُ(٢) .

واخْتَلَفَ النَّاسُ في أَنَّ المحرَّفَ هَلْ كان يُكْتَبُ في التَّوراةِ أَمْ لا؟ فَذَهَبَ جَمْعٌ إلى أَنَّه لَيْسَ في التَّوراةِ سِوى كلام اللهِ ـ تعالى ـ ، وأَنَّ تَحْريفَ اليهودِ لم يَكُنْ إلاَّ تَغْييراً وَقْتَ القِراءَةِ ، وتَأْويلاً باطِلاً للنُّصوصِ ، وأَمَّا أَنَّهم يَكْتُبونَ ما يَرومونَ في التَّوراةِ على تَعَدُّدِ نُسَخِها فَلا .

واحْتَجُّوا لِذلِكَ بِما رُوِيَ أَنَّ التَّوراة والإنجيلَ كما أَنْزَلَهُما اللهُ ـ تَعالى ـ لم يُغَيَّرْ منهما حَرْفٌ ، وَلَكِنَّهُم يُضِلُّونَ بِالتَّحْريفِ والتَّأويلِ وَكُتُبٍ كانوا يَكْتُبونَها مِن عِنْدِ أَنْفُسِهِم ، وَيَقولونَ : إِنَّ ذلكَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ، وما هو مِن عِنْدِ اللهِ ، فَأَمَّا كُتُبُ اللهِ ـ تعالى ـ فَإِنَّها مَحفوظَةٌ لا تُحَوَّلُ .

وبِأَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يَقولُ لِليهودِ إلزاماً لهم : «ائتوا بِالتَّوراةِ فَاتْلوها إنْ

---

(١) آل عمران : (٧٨) .

(٢) قاله وهب بن منبه ، كما أخرج ذلك ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٢) . وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (٢/ ٤٦) .

كُنْتُمْ صادِقينَ» ، وهم يَمْتَنِعُونَ عن ذلِكَ ، فَلَو كانَتْ مُغَيَّرَةً إلى ما يُوافِقُ مَرامَهُمْ ما امْتَنَعوا ، بَلْ وما كانَ يَقولُ لَهُمْ ذلِكَ رَسولُ اللهِ ﷺ؛ لأنَّهُ يَعودُ على مَطْلَبِهِ الشَّريفِ بالإبطالِ.

وذَهَبَ آخَرُون إلى أنَّهم بَدَّلوا ، وَكَتَبُوا ذَلك في نَفْسِ كِتابِهِم ، واحْتَجُّوا على ذلك بكثيرٍ مِنَ الظَّواهِرِ.

ولا يَمْنَعُ مِن ذلكَ تَعَدُّدُ النُّسَخِ؛ لاحْتِمالِ التَّواطُؤِ ، أو فُعِلَ ذلكَ في البَعْضِ دُونَ البَعْضِ ، وكَذلِكَ لا يَمْنَعُ مِنه قولُ الرَّسولِ لَهُمْ ذلِكَ؛ لاحْتِمالِ عِلْمِهِ بِبقاءِ بَعضٍ ما يَفِي بِغَرَضِهِ سالِماً عَنِ التَّغْيِيرِ ، إمَّا لِجَهلِهِم بوَجْهِ دِلالَتِهِ ، أو لِصَرْفِ اللهِ ـ تَعالى ـ إيَّاهُمْ عن تَغْييرِهِ.

وتَمامُ الكَلامِ في تفسيرِ الجَدِّ عندَ الكلامِ على هذه الآيةِ[1] ، وكذا في «الجَوابِ الصَّحيحِ»[2] لِشَيخِ الإسلامِ.

وكثيرٌ مِنَ الأُمَّةِ المحمَّدِيَّةِ سَلَكوا مَسْلَكَ الكِتابِيِّينَ في التَّحريفِ ، والتَّأويلِ ، واتِّباعِ شَهَواتِهِم.

وقال ـ تعالى ـ في سورةِ «النِّساءِ»: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

والكلامُ عَلى هذه الآيةِ ـ أيضاً ـ مستوفىً في التَّفسيرِ.

* * *

(١) «روح المعاني» (٣/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧).
(٢) (٢/ ١٨ ـ ٢٧) ، وانظر: «إغاثة اللهفان» لابن القيم (٢/ ٣٥١ ـ ٣٥٤).
(٣) النساء: (٤٦).

الخامسة والخمسون

تَلْقيبُ أهلِ الهُدى بالصَّابئةِ والحَشْوِيَّةِ.

فَقَدْ كانَ أهلُ الجاهِليةِ يُلَقِّبونَ مَن خَرَجَ عن دِينِهم بالصَّابىء ، كما كانوا يُسَمُّون رسولَ اللهِ ﷺ بذلكَ ، كما وَرَدَ في عِدَّةِ أحاديثَ مِن «صحيح» البخاري[1] ومسلم[2] وغيرِهما؛ تنفيراً للنَّاسِ عنِ اتِّباعِ سبيلِهم.

وهٰكذا تَجِدُ كَثيراً مِن هذهِ الأمَّةِ يُطْلِقونَ على مَنْ خالَفَهُمْ في بِدَعِهم وأهْوائِهم أسْماءً مكروهةً للناسِ.

والصَّابئةُ أمةٌ قديمةٌ على مذاهِبَ مختلفَةٍ ، قدْ تكَلَّمَ عليها أهلُ المَقالاتِ بِما لا مَزيدَ عَلَيْهِ[3].

وَأمَّا الحَشوِيَّةُ ، فَهُمْ قَومٌ كانوا يَقولونَ بِجَوازِ وُرودِ ما لا مَعنى لَهُ في الكِتابِ والسُّنَّةِ؛ كالحُروفِ في أوائِلِ السُّوَرِ وَكذا قَالَ بَعْضُهُمْ ، وَهُمُ الذينَ

---

(١) انظر «صحيح البخاري» ـ كتاب المناقب ـ باب قصة زمزم ـ (٤/١٥٨ ـ ١٥٩) ، وكتاب مناقب الأنصار ـ باب إسلام عمر ـ (٤/ ٢٢٤).

(٢) انظر: «صحيح مسلم» ـ كتاب فضائل الصحابة ـ باب فضائل أبي ذر ـ (٤/١٩١٩ ـ ١٩٢٢) ح ٢٤٧٣.

(٣) انظر في شأنها: «التبصير في الدين» (ص ١٥٠) ، «الملل والنحل» للشهرستاني (٢/ ٩ ـ ٥٨) ، «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (ص ٩٠) ، «الرد على المنطقيين» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٤٥٤ ـ ٤٥٦)، «البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان» (ص ٩٢ ـ ٩٤) ، كتب التفاسير عند تفسير الآية (٦٢) من سورة البقرة.

قالَ فيهِمُ الحَسَنُ البَصْرِيُّ لَمَّا وَجَدَ قَوْلَهُمْ ساقِطاً ، وَكانوا يَجْلِسونَ في حَلْقَتِهِ أمامَهُ: «رُدُّوا هٰؤلاءِ إلى حَشا الحَلْقَةِ» ، أيْ: جانِبَها.

وخُصومُ السَّلَفِيِّينَ يَرْمونَهُمْ بِهذا الاسْمِ؛ تَنْفيراً للنَّاسِ عَن اتِّباعِهِمْ والأخْذِ بِأقوالِهِم ، حَيْثُ يَقولونَ في المُتَشابِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

وَقَدْ أخطأَتِ اسْتُهُمُ الحُفْرَةَ[1] ، فَالسَّلَفُ لا يَقولونَ بِوُرودِ ما لا معنى لَهُ لا في الكِتابِ ولا في السُّنَّةِ ، بَلْ يَقولونَ في الاسْتِواءِ مَثَلاً: «الاسْتِواءُ غَيْرُ مَجْهولٍ ، والكَيْفُ غَيْرُ مَعْقولٍ ، والإقرارُ بِهِ إيمانٌ ، والجُحودُ بِهِ كُفْرٌ»[2].

---

(١) قولهم: «أخطأت استه الحفرة» مَثَلٌ يضرب لمن رام شيئاً ، فلم ينله ، ولمن توخى الصواب ، فجاء بالخطأ.
انظر: «جمهرة الأمثال» لأبي هلال العسكري (١/ ١٦٠) ، «المستقصى في أمثال العرب» للزمخشري (١/ ١٠٢) ، «مجمع الأمثال» للميداني (٤/ ٤٣٤).

(٢) روي معنى هذا الأثر عن جماعة من السلف ، فقد رواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٣٩٧) ح ٦٦٤ ، والصابوني في «عقيدة السلف» (ص ١٦) ح ٢٣ ، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (ص ١٥٨) ح ٦٧ ، عن أم سلمة ، وقد ضعف إسناده شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٦٥).
ورواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٣٩٨) ح ٦٦٥ ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١٥١) ، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» (ص ١٦٤) ح ٧٤ ، والذهبي في «العلو» (المختصر ١٣٢) ح ١١١ ، عن ربيعة بن أبي عبد الرحمن.
قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٦٥): «ومثل هذا ـ يعني جواب مالك ـ ثابت عن ربيعة شيخ مالك».
ورواه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٣٩٨) ح ٦٦٤ ، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٢/ ١٥٠ ـ ١٥١) ، وفي «الاعتقاد» (ص ٤٣) ، والصابوني في «عقيدة السلف» (ص ١٧ ـ ١٩) ح ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٦ ، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٢٥) ، والدارمي في «الرد على الجهمية» (ص ٥٥ ـ ٥٦) ، وابن عبد البر في «التمهيد» (٧/ ١٣٨) ، وابن قدامة في «إثبات صفة العلو» =

وَقَدْ أطالَ الكَلامَ في هَذِهِ المَسْأَلَةِ شَيْخُ الإسلامِ ابنُ تَيْمِيَّةَ في كَثيرٍ مِنْ كُتُبِهِ[1] ، وَلَخَّصَ ذلِكَ في كِتابِهِ: «جَوابُ أهْلِ الإيمانِ في التَّفاضُلِ بَيْنَ آياتِ القُرْآنِ» .

وَمِـنَ النَّاسِ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ مَـذْهَبِ السَّلفِ وَمَـذْهَبِ الحَشوِيَّـةِ ، بأنَّ مَذْهَبَ الحَشوِيَّةِ وُرودُ ما يَـتَعَذَّرُ التَّوصُّلُ إلى مَعْنَاهُ المُرادُ مُطْلَقاً ، فالاسْتِواءُ ـ مَثَلاً ـ عِنْدَهُمْ لَـهُ مَعْنىً يَتَوَصَّـلُ إلَيْهِ بِمُجَرَّدِ سَماعِهِ كُلُّ مَنْ يَعْرِفُ المَوْضوعاتِ اللُّغَوِيَّةَ ، إلاَّ أنَّـهُ غَيْرُ مُرادٍ؛ لأنَّـهُ خِلافُ ما يَقْتَضِيهِ دَليلُ العَقْلِ والنَّقْلِ ، ومَعَنىً آخَرُ يَليقُ بِهِ ـ تَعالى ـ لا يَعْلَمُهُ إلاَّ هو ـ عزَّ وجَلَّ ـ.

وكَيْفَ يَكونُ مَذْهَبُ السَّلَفِ هو مَذْهَبَ الحَشوِيَّةِ ، وَقَدْ رَأى الحَسَنُ البَصْرِيُّ الذي هو مِنْ أكابِرِ السَّلَفِ سُقوطَ قَوْلِ الحَشْوِيَّةِ ، ولَمْ يَرْضَ أنْ يَقْعُدَ قائِلُهُ تُجاهَهُ؟!

والمَقْصودُ أنَّ أهْلَ الباطِلِ مِنْ المُبْتَدِعَةِ رَمَوا أهْلَ السُّنَّةِ والحَديثِ بِمِثْلِ هذا اللَّقَبِ الخَبيثِ.

قالَ أبو مُحَمَّدٍ عبدُ اللهِ بنُ قُتَيْبَةَ في «تأويلِ مُخْتَلِفِ الأحاديثِ»: «إنَّ أصْحابَ البِدَعِ سَمَّوا أهْلَ الحَديثِ بِالحَشْوِيَّةِ ، والنَّابِتَةِ ، والمُتَجَبِّرَةِ ، والجَبْرِيَّةِ ، وسَمَّوهُم الغُثاءَ ، وهذِهِ كُلُّها أنبازٌ لمْ يأتِ بِهَا خَبَرٌ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ كما أتى:

= (ص ١٧٢ ـ ١٧٣)، والذهبي في «العلو» (المختصر ص ١٤١) ح ١٣١ و١٣٢ عن مالك بن أنس.

(١) ومنها «رسالة الإكليل في المتشابه والتأويل» ، «الفرقان بين الحق والباطل» ضمن «مجموع الفتاوى» (١٣/ ١٤٣ ـ ١٤٧) ، «الرسالة التدمرية».

فِي القَدَرِيَّةِ[1] أَنَّهُمْ: «مَجوسُ هِذهِ الأُمَّةِ ، فإنْ مَرِضوا فَلا تَعودُوهُمْ ، وإنْ ماتوا فلا تَشْهَدوا جَنائِزَهُمْ»[2].

وفي الرَّافِضَةِ[3]: «يَكونُ قَوْمٌ في آخِرِ الزَّمان يُسَمَّونَ الرَّافِضَةَ ، يَرْفُضون

---

(١) القدرية ليست طائفة بذاتها كالأشاعرة مثلاً ، وإنما تطلق على كل من نفى القدر ، كالمعتزلة ومن أنكره من الرافضة وغيرهم.

(٢) رواه أبو داود في «سننه» ـ كتاب السنة ـ باب في القدر ـ (٥/ ٦٦ ـ ٦٧) ح ٤٦٩١ ، ومن طريقه الحاكم في «مستدركه» (١/ ٨٥) ، وقال الحاكم: «وهذا حديث صحيح على شرط الشيخين إن صح سماع أبي حازم من ابن عمر».
قال ابن حجر في «الأجوبة على أحاديث المصابيح» (٣/ ١٧٧٩): «قلت: ورجاله رجال الصحيح ، لكن في سماع أبي حزم ـ واسمه سلمة بن دينار ـ من ابن عمر نظر ، وجزم المنذري بأنه لم يسمع منه ، وقال أبو الحسن بن القطان: قد أدركه ، وكان معه بالمدينة ، فهو متصل على رأي مسلم».
وأخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٣/ ٦٣٩) ح ١١٥٠ ، والآجري في «الشريعة» (ص ١٩٠) ، وابن عدي في «الكامل في الضعفاء» (٣/ ٢١٢).
والحديث حسنه بمجموع طرقه الألباني في «تخريج الطحاوية» (ص ٣٠٤).

(٣) الرافضة: واحدة من طوائف أهل البدع والضلالة ، سموا بذلك لكونهم رفضوا زيد بن علي لما تولى الشيخين أبا بكر وعمر ، وهم الذين يعرفون اليوم بالشيعة والإمامية والاثني عشرية والجعفرية ، وأصولهم أربعة: التوحيد ، ويعنون به نفي الصفات ، والعدل ويقصدون به نفي القدر ، والنبوة ، والإمامة ، ويغلب عليهم الغلو في أئمتهم ، حتى بلغ بهم الأمر إلى أن عبدوهم من دون الله ـ تعالى ـ وهم فرق شتى ، يجمعهم ما ذكرت آنفاً.
انظر: «فرق الشيعة» للنوبختي ، «مقالات الإسلاميين» (١/ ٦٥ ـ ١٤٠) ، «الملل والنحل» (١/ ١٤٦ ـ ١٩٠) ، «الفَرْق بين الفِرَق» (ص ٢٩ ـ ٧٢) ، «الفصل» (٥/ ٣٥ ـ ٥٠) ، «التبصير في الدين» (ص ٢٧ ـ ٤٣) ، «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (ص ٥٢ ، ٦٦) ، «البرهان في معرفة عقائد أهل الأديان» (ص ٦٥ ـ ٨٥) ، «الرد على الرافضة» لأبي حامد المقدسي ، و«مختصر التحفة الاثني عشرية» ، «تاريخ الفرق الإسلامية» لمحمد خليل الزين (١٠٨ ـ ١٢٩) ، =

الإسلامَ ، وَيَلْفُظُونَهُ ، فاقتلوهم ، فإنهم مشركون»[1].

وفي المرجئة[2]: «صِنْفانِ مِنْ أُمَّتي لا تَنالُهُم شَفاعَتي ، لُعِنوا على لِسانِ سَبْعينَ نَبِيّاً: المُرْجِئَةُ والقَدَرِيَّةُ»[3].

= «أصل الشيعة وأصولها» لمحمد حسين آل كاشف الغطا ، «تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة» د. عبد الله فياض ، «الشيعة والتصحيح» د. موسى الموسوي.

(1) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤٧٥) ح ٩٨١ ، وأبو يعلى في «مسنده» (٤/ ٤٥٩) ح ٢٥٨٦ ، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ٢٤٢) ح ١٢٩٩٧ ، وابن عدي في «الكامل» (٥/ ٩٠) ، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٩٥) وقال: «غريب تفرد به الحجاج عن ميمون» ، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٥٤٨) ، من حديث ابن عباس ، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢): «ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف» ، وضعفه الألباني في «ظلال الجنة» (٢/ ٤٧٦).
وعنه بنحوه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٢٤٢) ح ١٢٩٩٨ ، قال الهيثمي (١٠/ ٢٢): «وإسناده حسن».
وأخرجه بنحوه ابن أبي عاصم في «السنة» (٤/ ٤٧٤) ح ٩٧٨ ، وعبد الله بن أحمد في «السنة» (٢/ ٥٤٧) ح ١٢٧٠ ، وفي «زوائد المسند» (١/ ١٠٣) عن علي مرفوعاً.
قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٢): «وفيه كثير بن إسماعيل النواء ، وهو ضعيف».

(2) المرجئة: إحدى الفرق الضالة ، وإن كان الإرجاء ـ كالقدر ـ ليس فرقة بعينها ، وإنما في طوائف متعددة ، والإرجاء على معنيين: أحدهما: التأخير ، بمعنى تأخير العمل عن مسمى الإيمان ، ثانيهما: إعطاء الرجاء ، بقولهم: لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة.
انظر: «الملل والنحل» (١/ ١٣٩ ـ ١٤٦) ، «اعتقادات فرق المسلمين والمشركين» (٧٠ ـ ٧١).

(3) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤٦١) ح ٦٤٩ من حديث ابن عباس مرفوعاً بلفظ: «صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: المرجئة والقدرية».
وبمثل حديث ابن عباس أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٢٥٤) ، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ١٥٦) ح ٢٤٩ من حديث أنس. =

وفي الخوارجِ[1] : «يَمْرُقونَ مِنَ الإسلامِ كَما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ»[2] و«كِلاب أهْل النَّارِ»[3] .

هذهِ أسماءٌ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ ، وتِلْكَ أسْماءٌ مَصْنوعَةٌ»[4] انتهى .

= قال ابن الجوزي : «وهذا لا يصح عن رسول الله ﷺ» .
وأخرجه ابن أبي عاصم (٢/ ٤٦٢) ح ٥٩٢ من حديث معاذ مرفوعاً بلفظ : «ما بعث الله نبيّاً قط ، إلا جعل في أمته قدرية ومرجئة ، وإن الله ـ تعالى ـ لعن على لسان سبعين نبيّاً القدرية والمرجئة» .
وأخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٢/ ٦٤٣) ١١٥٩ من حديث محمد بن كعب القرظي عن عبد الله .

(١) الخوارج : إحدى الفرق الضالة ، نشأت قديماً ، وحذر النبي ﷺ من فتنتها ، وحث على قتلهم ، وهم طوائف كثيرون ، يجمعهم القول بالتبري من عثمان وعلي ، وتكفير صاحب الكبيرة ، والخروج على الإمام إذا فعل كبيرة .
انظر في شأنها : «التنبيه والرد» (ص ٥١) ، «مقالات الإسلاميين» (١/ ١٦٧) ، «الفَرْق بين الفِرَق» (ص ٧٢) ، «والتبصير في الدين» (ص ٤٥) ، و«الملل والنحل» (١/ ١١٤) ، «الفصل» (٤/ ٥١ ـ ٥٧) ، «الاعتقادات» (ص ٤٦) ، «البرهان» (ص ١٧) ، «خبيئة الأكوان» (ص ٥٧) .

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب استتابة المرتدين ـ (٨/ ٥٢) ، ومسلم في «صحيحه» ـ كتاب الزكاة ـ باب ذكر الخوارج وصفاتهم ـ (٢/ ٧٤٢) وباب التحريض على قتل الخوارج ـ(٢/ ٧٤٦ـ٧٤٧) ح ١٠٦٦ من حديث أبي سعيد وعلي .

(٣) أخرجه ابن ماجه في «سننه» ـ المقدمة ـ (١/ ٦١) ح ١٧٣ ، وأحمد في «مسنده» (٤/ ٣٥٥) ، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢/ ٤٣٨) ح ٩٠٤ ، والطبراني في «الكبير» (٨/ ٣٢٤) ح ٨٠٤٢ ، وفي «الصغير» (٢/ ١١٧) ، والخطيب في «التاريخ» (٦/ ٣١٩) ، وابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١/ ١٦٣) ح ٢٦١ ، وقال : «قال أحمد : لم يسمعه الأعمش من ابن أبي أوفى ، قال الدارقطني : لم نر شيوخنا يقولون : إن إسحاق تفرد به عن الأعمش حتى وجدنا أهل خراسان قد رووه [عن] شيخ له عن أبي بكر بن عياش عن الأعمش» .

(٤) «تأويل مختلف الحديث» (ص ٥٥) .

وفي «الغُنْيَةِ» أنَّ البَاطِنيَّةَ تُسَمِّي أهلَ الحديثِ «حَشْوِيَّةً» لِقولِهم بالأخبارِ وتَعَلُّقِهِم بالآثارِ[1].

وفي كتابِ «حُجَّةِ اللهِ البالِغَة»: «واسْتطالَ هؤلاءِ الخائِضونَ على مَعْشَرِ أهْلِ الحديثِ، وسَمَّوْهُمْ مُجَسِّمَةً، ومُشَبِّهَةً، وقالوا: هُمُ المُتَسَتِّرونَ بِالبَلْكَفَةِ، وقد وَضَحَ لَدَيَّ[2] وُضوحاً بيِّناً أنَّ اسْتِطالَتَهُمْ هذهِ ليستْ بشيءٍ، وأنَّهم مُخطئونَ في مَقالَتِهِم[3] رِوايةً وَدِرايةً، وخاطِئونَ في طَعْنِهِمْ أئمَّةَ الهُدى»[4] انتهى.

وَقَدْ قالَ العَلَّامَةُ ابنُ القَيِّم في «كافِيَتِهِ الشَّافِيَةِ»: «فَصْلٌ في تَلْقيبِهِم أهلَ السُّنَّة بِالحَشْوِيَّةِ وبيان[5] مَنْ أوْلى بِالوصفِ المَذمومِ مِنْ[6] هذا اللَّقَبِ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ، وذِكْرِ أوَّلِ مَنْ لَقَّبَ بِهِ أهْلَ السُّنَّةِ مِنْ أهْلِ البِدَعِ:

وَمِنَ العَجائِبِ قَوْلُهُمْ لِمَنِ اقْتَدى ... بِالوَحْيِ مِنْ أثَرٍ وَمِنْ قُرْآنِ
حَشْوِيَّةٌ يَعْنونَ حَشْواً في الوُجو ... دِ وفَضْلَةً في أمَّةِ الإنْسانِ
وَيَظُنُّ جاهِلُهمْ بأنَّهُمُ حَشَوْا ... رَبَّ العِبادِ بِداخِلِ الأكْوانِ
إذْ قَوْلُهُمْ فَوْقَ العِبادِ وَفي السَّما ... ءِ الرَّبُّ ذُو المَلَكوتِ والسُّلْطانِ
ظَنَّ الحَميرُ بَأنَّ في لِلظَّرفِ والرَّ ... حْمنَ مَحْوِيٌّ بِظَرْفِ مَكانِ
وَاللهِ لَمْ يُسْمَعْ بِذَا مِنْ فِرْقَةٍ ... قالَتْهُ في زَمَنٍ مِنَ الأزْمانِ
لا تَبْهَتوا أهْلَ الحَديثِ بِهِ فَما ... ذَا قَوْلُهُمْ تَبّاً لِذي البُهْتانِ

---

(١) «الغنية» لعبد القادر الجيلاني (١/ ٨٥).
(٢) في «حجة الله البالغة»: «علي».
(٣) في المخطوط والمطبوع «روايتهم»، وما أثبته من «حجة الله البالغة».
(٤) «حجة الله البالغة» لشاه ولي الله الدهلوي (١/ ٦٤).
(٥) في المطبوع «ويقال»، وما أثبته هو الموافق لما في «الكافية الشافية».
(٦) في المطبوع «في»، وما أثبته هو الموافق لما في «الكافية الشافية».

بَلْ قَوْلُهُمْ: إنَّ السَّماواتِ العُلى   فــي كَـفٍّ خـالِـقِ هٰـذِه الأكْـوانِ
حَقّاً كَخَرْدَلَةٍ تُرى في كَفِّ مُمْـ   ـسِكِهـا تَعـالـى اللهُ ذُو السُّلْطـانِ
أَتَرَوْنَهُ المَحْصورَ بَعْدُ أم السَّما   يـاقَـوْمَنـا ارْتَـدِعـوا عَـنِ العُـدْوانِ
كَـمْ ذا مُشَبِّهَـة وَكَـمْ[1] حَشْـوِيَّـة   فَالْبَهْتُ لا يَخْفَى على الرَّحْمٰنِ[2]
[يا قَوْمُ إنْ كانَ الكِتابُ وسُنَّةُ الْـ   ـمُخْتـارِ حَشْـواً فَـاشْهَـدوا بِبَيـانِ]
[أنَّــا بِحَمْــدِ إلٰهِنــا حَشْــوِيَّــةٌ   صِـرْفٌ بـلا جَحْـدٍ ولا كِتْمـانِ][3]
تَدْرونَ مَنْ سَمَّتْ شُيُوخُكُمْ بِهٰـ   ـذَا الاسْمِ في الماضي مِنَ الأزْمانِ
سَمَّى بِهِ ابْنُ عُبَيْدٍ عَبدَ اللهِ[4] ذا   كَ ابـنَ الخَليفـةِ طـارِدِ الشَّيطـانِ[5]
فَـوَرِثْـتُـمُ عَمْـراً كَمـا وَرِثـوا لِعَبْـ   ــدِ اللهِ أَنَّــى يَسْتَــوِي الإرْثــانِ
تَدْرونَ مَنْ أَولى بِهذا الاسمِ وَهْـ   ــوَ مُنـاسِــبٌ أَحْــوالَــهُ بِــوزانِ
مَنْ قَدْ حَشا الأوراقَ والأذْهانَ مِنْ   بِـدَعٍ تُخـالِـفُ مُـوْجَـبَ[6] القُـرْآنِ
هٰذا هو الحَشوِيُّ لا أهلُ الحَديـ   ــثِ أئمَّــةُ الإسْــلامِ والإيمــانِ
وَرَدوا عِذابَ مَناهِلِ السُّنَنِ التي   لَيْسَــتْ زُبــالَــةَ هٰــذِهِ الأذهــانِ
وَوَرَدْتُمُ القَلُّوطَ[7] مَجْرى كُلِّ ذي الْـ   أوســـاخِ والأقْـــذارِ والأنْتـــانِ

---

(١) في المخطوط «وذا» وما أثبته من المطبوع، وهو الموافق لما في «الكافية الشافية».

(٢) في المخطوط «صرف بلا جحد ولا كتمان» وما أثبته من المطبوع، وهو الموافق لما في «الكافية الشافية».

(٣) البيتان اللذان بين معكوفتين ليسا في المخطوط ولا في المطبوع، وإنما أضفتها من الكافية.

(٤) في المخطوط والمطبوع «عمرٌو لعبد الله» وما أثبته من «الكافية الشافية».

(٥) انظر: «منهاج السنة النبوية» (٢/ ٥٢٠)، حيث ذكر شيخ الإسلام أنَّ عمرو بن عبيد سمى عبد الله بن عمر حشوياً، وانظر: «شذرات الذهب» لابن العماد.

(٦) في المخطوط والمطبوع «مقتضى»، وما أثبته من «الكافية الشافية».

(٧) قال ابن عيسى في شرح «الكافية الشافية» (٢/ ٨٦): «القلوط ـ بفتح القاف وتشديد =

وَكَسِلْتُمُ أنْ تَصْعَدوا لِلْورْدِ مِن رأسِ الشَّريعَةِ[1] خَيْبَةَ الكَسْلانِ[2]

وحاصِلُ هذهِ الأبياتِ أنَّ أَعْداءَ الحَقِّ وخُصومَ السُّنَّةِ وأضْدادَ الكِتابِ والسُّنَّةِ يُلقِّبونَ سَلَفَ الأمَّةِ المُتَمَسِّكِينَ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ بِلَقَبِ «الحَشوِيَّةِ» :

فالخَواصُّ مِنْهُمْ يَقصدونَ بِهٰذا الاسمِ أنَّ المُسَمَّى بِهِ حَشْوٌ في الوُجودِ وفَضْلَةٌ في النَّاسِ ، لا يُعْبأ بِهِمْ ، ولا يُقامُ لَهُمْ وَزْنٌ؛ إذ لَمْ يَتَّبِعوا آراءَهُمُ الكاسِدَةَ وأفكارَهُمُ الفاسِدَةَ.

وأمَّا العَوامُّ مِنهُمْ فَيَظُنُّونَ أنَّ تَسْمِيَةَ السَّلَفِ بِالحَشْوِيَّةِ لِقَوْلِهِم بِالفَوْقِيَّةِ ، وَكَوْنِ الإلٰهِ في السَّماءِ ، بِمَعْنى أنَّهُمُ اعْتَقَدوا ـ وحاشاهُم ـ أنَّ اللهَ ـ تعالى ـ حَشْوُ هذا الوُجودِ ، وأنَّهُ داخِلَ الكَوْنِ ـ تعالى اللهُ عَمَّا يَقولُ الظَّالِمونَ عُلُوّاً كَبيراً ـ. وهذا بُهتانٌ عَظيمٌ عَلى أهْلِ الحَديثِ.

على أنَّ هذا القولَ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ.

وأعداءُ الحَقِّ في عَصْرِنا هذا عَلى هذا المَسْلَكِ الجاهِلِيِّ ، فَتَراهُمْ يَرْمونَ كُلَّ مَنْ تَمَسَّكَ بِالكِتابِ والسُّنَّةِ بِكُلِّ لَقَبٍ مَذمومٍ بَيْنَ المُسْلِمينَ ، واللهُ المُسْتَعان عَلى ما تَصِفونَ.

* * *

= اللام وبالطاء المهملة ـ: هو نهر بدمشق الشام يحمل أقذار البلد وأوساخه وأنتانه ، ويسمى في هذا الوقت: قليطاً بالتصغير».

(١) في المخطوط والمطبوع «أثر الشرائع» ، وما أثبته من «الكافية الشافية».

(٢) «الكافية الشافية» (ص ١٠٨) ، وبشرح العلامة ابن عيسى (٢/ ٧٩) ، وبشرح الدكتور: محمد خليل هراس (١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٥).

السادسة والخمسون

افْتراءُ الكَذِبِ على اللهِ ، والتَّكذيبُ بِالحَقِّ .

وَشواهِدُ هذهِ المَسألةِ مِنَ الكتابِ والسُّنَّةِ كثيرٌ ، وهذا دَأْبُ المُخالِفينَ لِلدِّينِ المُبينِ ، كاليهودِ والنَّصارى ، يَدَّعونَ أنَّ ما هُمْ عَلَيه هو الحَقُّ ، وأنَّ اللهَ أَمَرَهُم بِالتَّمَسُّكِ بِهِ ، وأنَّ الدِّينَ المُبينَ ليس بِحَقٍّ ، وأنَّ اللهَ ـ تَعالى ـ أَمَرَهُمْ[1] بِتكْذيبِهِ ، كُلُّ ذٰلِكَ لاتِّباعِ أَسلافِهِم ، لا يَنْظُرونَ إلى الدَّليلِ ، وهٰكذا أهلُ البِدَعِ والضَّلالاتِ يَعْتَقِدونَ بِدَعَهُم الحَقَّ ، وأنَّ اللهَ أَمَرَهُم بِها ، وأنَّ ما عَلَيه أهلُ الحَقِّ مُفْتَرىً ، لا يُصَدِّقونَ بِهِ .

وَكُـلٌّ يَـدَّعِـي وَصْـلاً لِلَيْلـى وَلَيْلـى لا تُقِـرُّ لَهُـمْ بِـذاكـا[2]

* * *

(١) في المخطوط «أمرنا» .

(٢) سبق (ص ٩٦) تخريجه .

السابعة والخمسون

رمْيُ المُؤمِنينَ بِطَلَبِ العُلُوِّ في الأرض.

قالَ ـ تَعالى ـ في سورةِ «يُونُسَ»: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا[1] بِمُؤْمِنِينَ﴾[2].

هذا الكلامُ مَسوقٌ لبَيانِ أنَّ موسى ـ عليه السلام ـ أَلْقَمَهُمُ الحَجَرَ، فانْقَطَعوا عن الإتيانِ بِكلامٍ لَهُ تَعَلُّقٌ بكلامِهِ ـ عليه السلام ـ فَضلاً عَن الجَوابِ الصَّحيح، واضْطُرُّوا إلى التَّشَبُّثِ بِذَيْلِ التَّقليدِ الذي هو دَأبُ كُلِّ عاجِزٍ مخجوج، ودَيْدَنُ كُلِّ معالج لَجوجٍ.

على أَنَّه اسْتِئْنافٌ وَقَعَ جَواباً عَمَّا قَبْلَه مِن كلامه ـ عليه السلام ـ على طَريقَةِ: قال موسى، كأَنَّهُ قِيلَ: فَماذا قالوا لِموسى ـ عليه السلام ـ حِيْنَ قالَ لَهُم ما قالَ؟ فَقِيلَ: قالوا عاجِزينَ عن المُحاجَّةِ: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، أيْ: المُلكُ. كَما رُوِيَ عَنْ مُجاهِدٍ[3]، وَعَنِ الزَّجَّاجِ أنَّه إنما سُمِّيَ المُلْكُ كِبْرِياءَ؛ لأنَّهُ أكبرُ ما يُطلَبُ مِن أمرِ الدُّنيا[4].

---

(١) في المخطوط «وما نحن لك» وهو خطأ.

(٢) يونس: (٧٨).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ كما في «الدر المنثور» (٣/ ٣١٤).

(٤) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٢٩).

فَكُلٌّ مَن دعا إلى الحَقِّ رَماهُ مَن كان على المَسْلَكِ الجاهِليِّ أنَّ قَصْدَه مِنَ الدَّعْوةِ طَلَبُ الرِّئاسَةِ والجاهِ ، مِن غَيرِ أنْ يَنْظُروا إلى ما دَعا إليه ، ومَا قَامَ عليهِ مِنَ البَراهِينِ.

* * *

الثامنة والخمسون

رمْيُ المؤمِنينَ بالفسادِ في الأرْضِ.

شاهِدُ هٰذِهِ المَسْأَلـةِ آياتٌ كَثِيْـرَةٌ ، حاصِلُها أَنَّ المخالِفينَ لَـهُمْ مِنَ المؤمِنين مُفْسِدونَ في الأرْضِ.

انظُر إلى قَولِهِـم في أَوائِلِ سورةِ «البَقَرَةِ» ، كَيْفَ ادَّعَوا أَنَّـهُم هُم مُصْلِحونَ، وقـد رَدَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[1].

وَهَكذا من هو على شاكِلَةِ أولئِكَ ، مِنَ الذينَ اسْتَحَلُّوا غَيَّهُمْ ، وتَمَكَّنَتْ بِدَعُهُمْ مِنْ قُلوبِهِمْ.

وَمَـنْ يَـكُ ذا فَـمٍ مُـرٍّ مَـريـضٍ   يَجِـدْ مُـرّاً بِـهِ المـاءَ الـزُّلالا[2]

نسأله ـ تعالى ـ أَنْ يُثَبِّتَ قُلوبَنا على دِينِهِ القَويمِ ، وأقدامَنا على الصِّراطِ المُستقيمِ.

* * *

(١) البقرة: (١٢).

(٢) البيت للمتنبي ضمن قصيدة له يمدح بها أبا الحسين بدر بن عمار الطبرستاني ، وهو في ديوانه (ص ١٤١).

التاسعة والخمسون

رمْيُ المؤمِنينَ بِتَبْدِيلِ الدِّينِ.

قال ـ تعالى ـ في سورةِ «مؤمن»[1]: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾[2].

اعتقدوا ما هُمْ[3] عَلَيه مِنَ الضَّلالِ هو الدِّيْنُ الحقُّ، وَمَنْ أراد تَحْويلَهُمْ عَنِ اعْتِقادِهِمُ الكاسِدِ، وصَرْفَهُمْ عَمَّا هُمْ عليهِ مِنَ الغَيِّ، فَقَدْ أرادَ[4] إخراجَهُمْ من الدِّينِ، وإفساداً في الأرْضِ.

وهَكذا دَيْدَنُ أعْداءِ الحَقِّ في كُلِّ عَصْرٍ.

* * *

(١) في المطبوع: «غافر» وكلاهما اسم لهذه السورة.
(٢) غافر: (٢٦).
(٣) في المطبوع «اعتقدوا أن ما هم».
(٤) «فقد أراد» ليست في المخطوط.

الستون

كَونُهُمْ إذا غُلِبوا بِالحُجَّةِ ، فَزِعوا إلى السَّيْفِ والشَّكوى إلى المُلوكِ ، وَ[دَعْوى][1] احْتِقارِ السُّلْطانِ ، وَ[تَحْويلِ][1] الرَّعِيَّةِ عَنْ دِيْنِهِ.

قال - تعالى - في سورة «الأعراف»: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2].

فانظُرْ إلى شَكْوى آلِ فِرْعَونَ وَقَومِهِ إلَيْهِ ، وَتَحْرِيشِهِمْ[3] إيَّاهُ عَلى مُقاتَلَةِ موسى - عليه السلام - وَتَهْييجِهِ ، ومَا ذُكِرَ في آخِرِ الآيةِ مِنْ احْتِقارِ[4] ما كانوا عَلَيْهِ.

* * *

(١) ما بين الحاصرتين ليس في المخطوط ، وقد وضع في المطبوع بين حاصرتين ، وهما علامة الإضافة إلى النص.

(٢) الأعراف: (١٢٧).

(٣) في المخطوط «وتحريسهم».

(٤) في المخطوط «الاحتقار».

الحادية والستون

تناقضُ مَذهَبِهِمْ لَمَّا تَرَكوا الحَقَّ.

قال ـ تعالى ـ في سورة «قٓ»: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾(١).

فَقَولُهُ: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ . . .﴾ إلخ ، إضرابٌ أُتبِعَ الإضرابَ الأوَّلَ للدَّلالةِ على أنَّهم جاءوا بِما هو أفْظَعُ من تَعَجُّبِهِمْ ، وهو التَّكذيبُ بالحَقِّ، الذي هو النُّبُوَّةُ الثَّابتةُ بالمُعْجِزاتِ ، في أوَّلِ وَهْلَةٍ ، مِن غيرَ تَفَكُّرٍ ولا تَدَبُّرٍ.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مُضطَرِبٍ ، وذٰلِكِ بسبب نَفْيِهِمُ النُّبُوَّةَ عنِ البَشَرِ بالكُلِّيَّةِ تارةً ، وَزَعْمِهِمْ أنَّ اللاَّئقَ بِها أهلُ الجاهِ والمالِ كما يُنْبِىءُ عَنْهُ قَولُهُم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(٢) تارةً أُخرى ، وَزَعْمِهِمْ أنَّ النُّبُوَّةَ سِحْرٌ مرَّةً أُخرى ، وأنَّها كِهانَةٌ أخرى ، حيثُ قالوا في النبيِّ ﷺ مَرَّةً: ساحِرٌ ، ومَرَّةً: كاهِنٌ ، أوْ هو اختِلافُ حالِهِم ما بَيْنَ تَعَجُّبٍ مِنَ البَعْثِ واستبعادٍ لَهُ ، وتكذيبٍ وَتَرَدُّدٍ فيه ، أو قولُهم في القرآن: هو شِعْرٌ تارةً ، وَهو سِحْرٌ أخرى.

وقال ـ تعالى ـ في «الذَّارياتِ»: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ

---

(١) قٓ: (٤ ـ ٥).

(٢) الزخرف: (٣١).

مُّخۡتَلِفٖ ۝٨ يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾[١].

﴿ٱلۡحُبُكِ﴾: جمع حَبيكَةٍ، كَطَرِيقَةٍ، أوْ حِباك، كَمِثال وَمُثُلٍ، والمرادُ بها إمَّا الطُّرُقُ المحسوسةُ التي تَسيرُ فيها الكَواكبُ، أو المعقولةُ التي تُدْرَكُ بالبَصيرةِ، وهي ما يدلُّ على وَحْدَةِ الصَّانعِ وقُدْرَتِهِ وعِلْمِهِ وحِكمتِهِ إذا تأمَّلَها النَّاظرُ.

وقوله: ﴿إِنَّكُمۡ لَفِي قَوۡلٖ مُّخۡتَلِفٖ﴾، أيْ: مُتخالِفٍ، مُتَناقِضٍ في أمْرِ اللهِ ـ عز وجل ـ، حيثُ تقولونَ: إنَّهُ ـ جلَّ شأنُهُ ـ خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ، وَتَقولونَ بِصِحَّةِ عبادةِ الأصنام مَعَهُ ـ سُبحانَه ـ، وفي أمْرِ الرَّسولِ، فَتَقولونَ تارةً: إنَّهُ مَجْنونٌ، وأُخرى: إنه ساحِرٌ، ولا يَكونُ الساحِرُ إلاَّ عاقلاً، وفي أمْر الحَشْرِ، فتَقولونَ تارةً: لا حَشْرَ ولا حَياةَ بَعْدَ المَوتِ أصلاً، وَتَزْعمونَ أُخرى أنَّ أصنامَكم شُفَعاؤُكم عِنْدَ اللهِ ـ تعالى ـ يومَ القيامةِ، إلى غير ذلك من الأقوالِ المتخالفةِ فيما كُلِّفوا بالإيمانِ بِهِ[٢].

وقولُهُ: ﴿يُؤۡفَكُ عَنۡهُ مَنۡ أُفِكَ﴾، أي: يُصْرَفُ عَنِ الإيمانِ بِما كُلِّفـوا الإيمانَ بِهِ.

﴿قُتِلَ ٱلۡخَرَّٰصُونَ﴾، أي: الكذَّابونَ مِنْ أصحابِ القولِ المُخْتَلِفِ.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي غَمۡرَةٖ سَاهُونَ﴾: الغَمْرَةُ: الجَهْلُ العظيمُ يَغْمرُهُم وَيَشْمَلهُمْ شُمولَ الماءِ الغامِرِ لِما فيه، والسَّهو: الغَفْلَةُ.

وقال ـ تعالى ـ في أواخر سورة «الأنعام»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[٣].

---

(١) الذاريات: (٧ ـ ١١).
(٢) انظر: «روح المعاني» (٢٩/ ٥).
(٣) الأنعام: (١٥٩).

هذه الآيةُ استئنافٌ لبيانِ أحوالِ أهلِ الكتابَيْنِ إثْرَ بيانِ حالِ المشركين ، بنـاءً على ما رُويَ عن ابنِ عبّاسٍ[1] وقتادَةَ[2] : أنَّ الآيـةَ نـزَلَت في اليهودِ والنَّصارى.

أيْ: بَدَّدوا دِينَهم ، وبعَّضوه ، فتمسَّكَ بِكُلٍّ بعضٍ منه فرقةٌ مِنهم.

﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ أي: فِرَقاً تُشايعُ كُلُّ فِرْقَةٍ إماماً ، وتَتْبَعُهُ ، أيْ: تُقَوِّيهِ ، وَتُظْهِرُ أمْرَهُ.

أخرجَ أبو داودَ والتِّرمِذِيُّ عن أبي هُريرَةَ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «افْتَرَقَتِ اليهودُ على إحْدى وسَبْعينَ فِرْقَةً ، كُلُّهم في الهاوَيَةِ إلاَّ واحدةً ، وافْتَرَقَتِ النَّصارى على ثِنْتَيْنِ وسَبعينَ فِرْقَةً ، كُلُّهُم في الهاوِيَةِ إلاَّ واحدةً ، وسَتَفْتَرِقُ أُمَّتي على ثَلاثٍ وسَبْعينَ فِرْقَةً ، كُلُّهُم في الهاوِيَةِ إلاَّ واحدةً»[3].

واستثناءُ الواحدةِ من فِرَقِ كُلٍّ مِن أهلِ الكِتابَيْنِ إنَّما هو بالنَّظَرِ إلى العَصْرِ الماضي قَبْلَ النَّسْخِ ، وأمَّا بَعْدَهُ؛ فالكُلُّ في الهاوِيَةِ ، وإنِ اختَلَفَتْ أسبابُ دُخولِهِم.

﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ ، مِنَ السُّؤالِ عَنهم ، والبَحثِ عَن تَفَرُّقِهِمْ ، أوْ مِنْ عِقابِهِمْ ، أوْ أنتَ بَرِيءٌ مِنْهم.

﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾: تَعْليلٌ للنَّفْي المذكورِ ، أيْ: هو يَتَولَّىٰ وَحْدَهُ أمرَهم: أُوْلاهُم وَأُخْراهُمْ ، وَيُدَبِّرُهُ حَسْبَما تَقْتَضِيهِ الحِكْمَةُ.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ، كما في «الدر المنثور» (٣/ ٦٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «تفسيره» (ج ١/ق ٢/ص ٢٢٢) ، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ٦٣) ، وزاد نسبته إلى عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) لم أجد هذا الحديث بهذا اللفظ عند أبي دواد والترمذي ، وإنما وجدته عند المروزي في «السنة» (ص ٢٤) ، رقم ٦١ من حديث علي موقوفاً عليه.

ومِنَ النَّاسِ مَنْ قال: المُفرِّقونَ: أهْلُ البِدَعِ مِنْ هذهِ الأمَّةِ:

فقد أخرجَ الحَكيمُ التِّرمِذيُّ[(١)] وابنُ جَريرٍ[(٢)] والطَّبَرانيُّ[(٣)] وغيرُهم عن أبي هُريرةَ عَن النَّبيِّ ﷺ في قولِهِ ـ سُبْحانه ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ . . .﴾ إلخ: «هُمْ أهلُ البِدَعِ والأهواءِ مِنْ هذهِ الأمَّةِ».

فَيَكونُ الكلامُ ـ حِينَئِذٍ ـ استِئْنافاً لِبيانِ حالِ المُبْتَدِعينَ، إثْرَ بَيانِ حالِ المُشركينَ، إشارةً إلى أنَّهم ليسوا مِنْهُم بِبَعيدٍ[(٤)].

والمقصودُ أنَّ أهلَ الجاهليةِ سواءً كانوا أُمِّيِّينَ أوْ كِتابِيِّينَ قد فَرَّقوا دينَهم، وتَغايَروا في الاعتقادِ، فكانَ عُبَّادُ الأصنامِ كُلُّ قَومٍ لَهُمْ صَنَمٌ يَدينونَ لَهُ، وَلَهُمْ شرائعُ مُخْتَلِفَةٌ في عِبادتِها، وَمِنْهم مَنْ كان يَعْبُدُ كَوْكَباً، ومِنهم مَنْ كانَ يَعْبُدُ الشَّمْسَ، ومِنهم، ومنهم، وكذلك الكِتابِيُّونَ على ما بَيَّنَّا.

فالافْتِراقُ ناشىءٌ عن الجَهْلِ، وإلاَّ فالشَّريعةُ الحَقَّةُ في كُلِّ زمان لا تَعَدُّدَ فيها ولا اختِلافَ، ولذلك تَرى القُرآنَ يُوَحِّدُ الحَقَّ وَيُعَدِّدُ الباطِلَ:

قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾[(٥)].

---

(١) في «نوادر الأصول» (ص ٢٠٩)، لكنه من حديث عائشة.

(٢) في «تفسيره» (٨/ ١٠٥).

(٣) في «الأوسط» (١/ ٢٠٧) رقم (٦٦٤) وقال: «لم يروِ هذا الحديث عن سفيان إلا موسى، تفرد به معلل»، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣): «رجاله رجال الصحيح، غير معلل بن نفيل، وهو ثقة».
وانظر: «العلل» للدارقطني (٨/ ٣٢١) رقم ١٥٩٢.

(٤) تفسير هذه الآية نقله المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ من «روح المعاني» (٨/ ٦٨).
وانظر: «تفسير أبي السعود» (٣/ ٢٠٦).

(٥) البقرة: (٢٥٧).

فانظُرْ كَيفَ أفْرَدَ النُّورَ الذي هو الحَقُّ ، وَجَمَعَ الظُّلُماتِ التي هِيَ الباطِلُ والزَّيغُ ، فَتَفْرِقَةُ الآراءِ ، والاخْتِلافُ في الاعتقاد مِنْ خِصالِ الجاهليَّةِ وما كان عَلَيه أهلُ الباطِلِ ، والاتفاقُ على العَقيدةِ الحَقَّةِ هو مِنْ دَأبِ أتْباعِ الرُّسُلِ والمُتَمَسِّكِينَ بِما شَرَعَهُ اللهُ ـ تَعالى ـ.

* * *

الثانية والستون

دَعْواهُمُ العَمَلَ بِالْحَقِّ الَّذي عِنْدَهُمْ.

كَما قال ـ تعالى ـ في سورة «البَقَرة»: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[1].

أيْ: نَسْتَمِرُّ عَلى الإيمانِ بِالتَّوراةِ وما في حُكْمِها مِمَّا أُنْزِلَ لِتَقْرِيرِ حُكْمِها.

ومُرادُهم بِضَميرِ المُتَكَلِّمِ إمَّا أنبياءُ بني إسرائيلَ وهو الظَّاهرُ، وفيه إيماء إلىٰ أن عدم إيمانهم بالقرآن كان بغياً وحسداً على نُزولِهِ على مَنْ ليس مِنهم، وإمَّا أنْفُسُهُمْ، ومعنى الإنزالِ عليهم: تَكْليفُهُمْ بِما في المُنَزَّلِ مِنَ الأَحكامِ.

وَذُمُّوا[2] على هذه المَقالةِ لِما فيها مِنَ التَّعْريضِ بِشأنِ القرآنِ. ودَسَائِسُ اليهودِ مشهورةٌ[3] وتمامُ الكَلامِ في التَّفسيرِ.

* * *

---

(١) البقرة: (٩١).

(٢) في المخطوط والمطبوع «وندموا»، وما أثبته هو الموافق لما في «روح المعاني».

(٣) تفسير هذه الآية نقله الشارح من «روح المعاني» (١/ ٣٢٣).

الثالثة والستون

الزِّيادةُ في العِبادةِ ، كَفِعْلِهِمْ يَوْمَ عاشوراءَ[1] .

* * *

(١) وهذه الخصلة الجاهلية لا تزال موجودة إلى يومنا هذا ، فأنت ترى المستدركين على الله ـ تعالى ـ فيما شرعه على لسان نبيه محمد ﷺ من زنادقة الصوفية والرافضة كل يوم يأتون بشرع جديد ، وكل شيخ وآية له دينه الذي لا يشركه فيه أحد ، حتى أصبح الدين بسبب هؤلاء سبة ، وغدوا عائقاً كبيراً أمام من يريد معرفة الإسلام على وجهه الصحيح ، فاللهم يا ولي الإسلام وأهله أرح العباد من شرهم وكيدهم.
أما بالنسبة لبدع يوم عاشوراء ، فهي لا تزال ، وخاصة عند الرافضة ، ويكفي أن ننقل لك أحد نصوص واحد من الرافضة المعاصرين ، وهو عبد الله نعمة ، حيث يقول في كتابه «روح التشيع» (ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠): «ومن هذه العادات السيئة: ضرب الرؤوس بالسيوف وجرحها ، وإسالة الدماء ، وضرب الظهور بالسلاسل ضرباً مبرحاً. . . . نحن لا ننسى ثورة العامة ومعهم بعض المشايخ على محسن الأمين العاملي حين أفتى بحرمة التمثيل (التشبيه) في عاشوراء ، وحرمة ضرب الظهور بالسلاسل ، وجرح الرؤوس بالسيوف. . .».
وانظر وصفاً دقيقاً لما يجري يوم عاشوراء في كتاب «الشيعة والتصحيح» لأحد أئمة الرافضة المعاصرين وهو الدكتور موسى الموسوي (ص ٩٧ ـ ١٠٢).
كما أنه يوجد عند المنتسبين إلى السنة (أعني به ما يقابل الرافضة) كثير من البدع في ذلك اليوم بعضها مستند إلى أحاديث واهية ، وأكثرها من باب: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ .

الرابعة والستون

النَّقْصُ مِنها ، كَتَرْكِهِم الوُقوفَ .

قال ـ تَعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾[1] ، أيْ: مِنْ عَرَفَةَ ، لا مِنْ مُزْدَلِفَةَ .

والخطابُ عامٌّ ، والمقصودُ إبطالُ ما كان عليه الحُمُسُ مِنَ الوُقوفِ بِجَمْعٍ .

فَقَدْ أخرجَ البُخاريُّ[2] ، ومُسْلِمٌ[3] عَن عائشةَ ـ رضي الله تعالى عنها ـ قالتْ: «كانتْ قُرَيشٌ ومَنْ دانَ دِينَها يَقِفونَ بِالْمَزْدَلِفَةِ ، وكانوا يُسَمَّونَ الحُمُسَ ، وكان سائرُ العَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ ، فَلَمَّا جاءَ الإسلامُ ، أمرَ اللهُ نَبِيَّهُ صلى الله تعالى عليه وسلم أنْ يَأْتِيَ عرفاتٍ ، ثُمَّ يَقِفَ بِها ، ثُمَّ يُفيضَ مِنها ، فَذلِكَ قَوْلُهُ ـ سُبحانه ـ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ .

وَمَعْنَاها: ثُمَّ أَفِيضوا أيُّها الحُجَّاجُ مِنْ مَكانٍ أفاضَ جِنْسُ النَّاسِ مِنْهُ قَديماً وَحَديثاً ، وَهُوَ عَرَفَةُ ، لا مِنْ مُزْدَلِفَةَ .

* * *

---

(١) البقرة: (١٩٩).

(٢) في «صحيحه»: كتاب التفسير ـ تفسير سورة البقرة ـ باب في ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ .

(٣) في «صحيحه» كتاب الحج ـ باب ما جاء أن عرفة كلها موقف ـ (٢/٨٩٣) رقم (١٢١٨).

الخامسة والستون

تعَبُّدُهُمْ بِتَرْكِ أكْلِ الطَّيِّباتِ مِنَ الرِّزْقِ ، وَتَرْكِ زِينَةِ اللهِ التي أخْرَجَ لِعِبادِهِ .

قال ـ تَعالى ـ في سورةِ «الأعْرافِ» : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ[1] لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ۝٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾[2] .

وسببُ النُّزولِ ـ على ما رُوِيَ عن ابنِ عبَّاس ـ أنَّه كانَ أُناسٌ مِنَ الأعْرابِ يَطوفونَ بِالبيتِ عُراةً ، حتَّى إنْ كانتِ المرأةُ لَتطوفُ بالبيتِ وهي عُريانةٌ ، فتُعَلِّقُ على سُفْلِها سُيُوراً مِثلَ هذه السُّيورِ التي تكونُ على وَجْهِ الحُمْرِ من الذُّبابِ ، وهي تقول :

اليومَ يَبدو بعضُه أوْ كُلُّه ... وما بَدا مِنْه فَلا أُحِلُّه

فأنْزَلَ اللهُ ـ تعالى ـ هذه الآيةَ : ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ . . . ﴾ إلخ[3] .

﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ ﴾ مِمَّا طابَ لَكُمْ .

---

(١) في المخطوط والمطبوع «إن الله» ، وهو خطأ .

(٢) الأعراف : (٣١ ـ ٣٢) .

(٣) أخرجه مسلم في «صحيحه» ـ كتاب التفسير ـ باب في قوله ـ تعالى ـ : ﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ (٤/ ٢٣٢٠) رقم (٣٠٢٨) .

قال الكَلْبِيُّ: «كانَ أهلُ الجاهلِيَّـةِ لا يأكلونَ مِنَ الطَّعامِ إلاَّ قُوتـاً ، وَلا يأْكُلونَ دَسَماً في أيَّامِ حَجِّهِمْ ، يُعَظِّمونَ بِذَلكَ حَجَّهُمْ ، فقال المُسْلِمونَ: يا رسولَ اللهِ! نَحْنُ أحَقُّ بِذلِكَ ، فأنزلَ اللهُ ـ تَعالى ـ الآيةَ»[1].

ومِنْهُ يَظْهَرُ وَجْهُ ذِكْرِ الأكْلِ والشُّرْبِ هُنا.

﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ بِتَحْريمِ الحَلالِ ، كَما هو المُناسِبُ لِسَبَبِ النُّزولِ أوْ بِالتَّعَدِّي إلى الحَرامِ.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَـةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ مِنَ الثِّيابِ وَكُلِّ ما يُتَجَمَّلُ بِهِ.

﴿وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ ، أيْ: مِنَ المُسْتَلَذّاتِ ، وقيلَ: المُحَلَّلاتُ مِنَ المآكِلِ والمَشارِبِ ، كَلَحْمِ الشّاةِ وَشَحْمِها وَلَبَنِها.

﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ، أيْ: هِيَ لَهُمْ بِالأصالَةِ لِمَزيدِ كَرامَتِهِم على اللهِ ـ تعالى ـ ، وَالْكَفَرَةُ ـ إنْ شارَكوهُمْ فيها ـ فَبِالتَّبَعِ.

﴿خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ لا يُشارِكُهُمْ فيها غَيْرُهُمْ.

* * *

(١) سبق تخريجه.

السادسة والستون

تعَبُّدُهُمْ بِالمُكاءِ وَالتَّصْدِيَةِ.

قال ـ تعالى ـ في سورةِ «الأنفالِ»: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[1].

تفسيرُ هذه الآيةِ: ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ ﴾ ، أيْ: المسجدِ الحرامِ ، الذي صَدُّوا المسلمينَ عنهُ. والتَّعبيرُ عنه بِالبيتِ للاختصارِ مَعَ الإشارةِ إلى أنَّه بيتُ اللهِ ، فينبغي أنْ يُعظَّمَ بِالعِبادةِ ، وَهُمْ لمْ يَفْعَلوا.

﴿ إِلَّا مُكَآءً ﴾ ، أيْ: صَفِيراً.

﴿ وَتَصْدِيَةً ﴾ ، أيْ: تَصفيقاً ، وهو ضربُ اليدِ باليدِ بِحَيثُ يُسْمَعُ له صوتٌ.

والمرادُ بالصَّلاةِ: إمَّا الدُّعاءُ ، أو أفعالٌ أُخَرُ كانوا يفعلونها ، ويُسمونها صلاةً ، وحُمِلَ المُكاءُ والتَّصديةُ عليها بِتأويلِ ذلك بأنَّها لا فائدةَ فيها ، ولا معنى لها ، كَصَفيرِ الطُّيورِ ، وتصفيقِ اللعِبِ.

وقد يُقالُ: المُرادُ أنَّهم وَضَعوا المُكاءَ والتَّصديةَ موضعَ الصَّلاةِ التي يَليقُ أنْ تَقَعَ عند البيت.

---

(١) الأنفال: (٣٥).

يُروى أنَّهم كانوا إذا أرادَ النَّبيُّ ﷺ أن يُصَلِّيَ ، يَخْلِطونَ عليه بالصَّفيرِ والتَّصفيقِ[1].

وَيُروى[2] أنهم يصلون ـ أيضاً ـ.

وَيُروى أنَّهم كانوا يَطوفونَ عُراةً: الرِّجالُ والنِّساءُ مُشَبِّكينَ بين أصابِعِهِم ، يُصَفِّرونَ فيها ، وَيُصَفِّقونَ[3].

وباقي الآية معلومٌ.

والمقصودُ أنَّ مِثْل هذه الأفعالِ لا تكونُ عِبادةً، بَلْ مِنْ شعائِرِ الجاهِلِيَّةِ .

فَما يَفْعَلُهُ اليومَ بعضُ جهلةِ المسلِمين في المساجِدِ مِن المُكاءِ والتَّصديةِ يَزْعُمونَ أنَّهم يَذكُرون اللهَ ، فهو مِنْ قَبيلِ فِعلِ الجاهِلِيَّةِ ، وما أحْسَنَ ما يقولُ القائلُ فِيهِم[4]:

أقـالَ اللهُ صَفِّـقْ لـي وَغَـنِّ ... وَقُـلْ كُفْـراً وَسَـمِّ الكُفْـرَ ذِكْـرا

وقد جَعَلَ الشَّارِعُ صوتَ المَلاهي صوتَ الشَّيطانِ ، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾[5].

* * *

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩/ ٣٤١) عن ابن عمر ، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٨٣)وزاد نسبته إلى ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم ، وأخرجه ابن أبي حاتم عن مجاهد كما في «الدر المنثور» (٣/ ١٨٣).

(٢) في المطبوع «ويرون».

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٩/ ٢٤١) عن سعيد بن جبير ، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٨٣).

(٤) القائل هو عبد الغفار الأخرس كما في «ديوانه» (ص ٣٥٨).

(٥) الإسراء: (٦٤).

السابعة والستون

دَعْواهُمُ الإيمانَ عندَ المؤمنينَ ، فَإذا خَرَجوا ، خَرَجوا بِالْكُفْرِ الذي دَخَلُوا بِه[1] .

* * *

(١) كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْتُمُونَ ﴾ [المائدة: ٦١] ، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة: ١٤] ، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [المنافقون: ١ ـ ٣].

وهذه حال كثير من الدعاة إلى الباطل ، حيث تجده ينخر في الإسلام مع ادعائه الحرص عليه وعلى أهله .

الثامنة والستون

دعاؤُهُمُ النَّاسَ إلى الضَّلالِ بِغَيرِ عِلْمٍ(١).

* * *

(١) هذه الحال تنطبق على النصارى والأميين ، فإنهم جهال ، لا يعون شيئاً ، ومع ذلك كانوا يدعون إلى باطلهم ، ويتعصبون له ، وكأنه هو الحق ، مع أنهم ليس لهم علم بالكتاب وليس لديهم أثارة من علم ، ولئن كان النصارى قد جاءهم من ربهم على لسان نبيهم عيسى ﷺ ، فإنه لم يلبث أن حُرِّف وغُيِّر وبُدِّل.
ومن هو على شاكلتهم في هذا العصر كثير ، فأنت ترى الضلال من المتصوفة ليس لهم علم بكتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ ، ومع ذلك يبثون دعاتهم شرقاً وغرباً لنشر باطلهم ، والدعوة إليه ، وتنفق الأموال الطائلة لأجل ذلك.
وتأمل حال أهل البدع من المتكلمين من الأشاعرة المخذولين والرافضة الزنادقة الملحدين وغيرهم تجدهم متحمسين لباطلهم ، مدافعين عنه مع جهلهم بالكتاب والسنة.

التاسعة والستون

دعاؤُهُمُ النَّاسَ إلى الكُفْرِ مَعَ العِلْمِ(١).

* * *

(١) وهذه حال اليهود ، فإنهم يعلمون من كتبهم صدق نبوة النبي ﷺ ، ومع ذلك يدعون الناس إلى مخالفته والكفر به ، وتكذيبه ، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩] ، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧١] ، وقال ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [آل عمران: ٩٩].

ومشابهوهم في عصرنا هذا كثير ، وذلك أن أغلب دعاة الضلالة يعلمون أن الحق هو ما جاء به محمد ﷺ ، ويستيقنون ذلك ، ومع ذلك الناس إلى خلافه ، ويشككونهم فيه؛ حسداً من عند أنفسهم ، فإلى الله المشتكى ، وهو المستعان.

السبعون

المَكْرُ الكُبّارُ كَفعْلِ قَوْمِ نوحٍ.

قال ـ تَعالى ـ في سورةِ نوحٍ ـ عليه السَّلامُ ـ: ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾(١).

ومعنى الكُبّارِ: الكَبيرُ.

والمَكْرُ الكُبّارُ: احتيالُهُم في الدِّينِ، وَصَدُّهُم لِلنَّاسِ عنه، وإغراؤُهم وتحريضُهم على أذيةِ نوحٍ عليه السلام.

وَهكذا فَعَلَ أَخلافُ هؤلاءِ مِن مَرَدَةِ الدِّين وَأَتْباعِ الهَوى وَعَبَدَةِ الدُّنيا، يَفعلونَ مَعَ دُعاةِ الحَقِّ كما فَعَلَ قَومُ نوحٍ عليه السلام مَعَهُ، قد تَشابَهَتْ قُلوبُهُم، نسألُه ـ تعالى ـ أَنْ يُعيذَ رِجالَ الحَقِّ مِن كَيدِ مِثْلِ هؤلاءِ الفَجَرَةِ، وَيَصُونَهُمْ مِنْ مَكْرِهِم.

وَقَدْ جَرَّبْتُهُمْ فَرَأَيْتُ مِنْهُم ... خَبائِثَ بِالمُهَيْمِنِ نَسْتَجيرُ

* * *

(١) نوح: (٢٢ ـ ٢٤).

الحادية والسبعون

أئِمَّتُهُمْ: إِمَّا عالِمٌ فاجِرٌ ، وإِمَّا عابِدٌ جاهِلٌ.

قالَ ـ تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا[1] فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2].

فَذَكَرَ في الآيةِ أنَّ فَريقاً مِن أَسْلافِ اليهودِ ـ وهم الأحبارُ ـ كانوا يَسْمَعونَ التَّوراةَ ويُؤوِّلونها تأويلاً فاسداً حسبَ أغراضِهم ، بلْ كانوا يُحَرِّفونها بِتبديلِ كلامٍ من تلقائِهم ، كما فَعَلوا ذلكَ في نَعْتِهِ ﷺ ، فإنَّهُ رويَ أنَّهُ مِنْ صِفاتِهِ فيها أنَّهُ أبيضُ رَبْعَةٌ ، فَغَيَّروهُ بِأَسْمَرَ طويلٍ ، وَغَيَّروا آيةَ الرَّجمِ بِالتَّسخيمِ وتَسْويدِ الوجهِ ، كما في البخاريِّ[3].

---

(١) قوله ـ سبحانه ـ: ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ساقط من المخطوط.

(٢) البقرة: (٧٥ ـ ٧٩).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب التوحيد ـ باب ما يجوز من تفسير التوراة ـ (٨/ ٢١٣ ـ ٢١٤) الآية: (٦ ـ ٨).

﴿وَمِنۡهُمۡ﴾ فريقٌ.

﴿أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ إلاَّ بِالدَّعاوى الكاذبةِ ، والمرادُ بِهِم جَهَلَةٌ مُقَلِّدَةٌ ، لا إدراكَ لَهُمْ.

وَتَمامُ الكلامِ في هذا المَقامِ يُطلَبُ مِنَ التَّفسيرِ.

والمقصودُ أنَّ تَحريفَ الكَلِمِ ، واتِّباعَ الهَوى ، والقولَ على اللهِ مِن غَيرِ عِلْمٍ مِنْ خِصالِ الجاهليَّةِ.

وَأنتَ تَعلمُ حالَ أحبارِ السُّوءِ اليومَ والرُّهبانِ الذينَ يقولونَ على اللهِ ما لا يُعْلَمُ قد تَجاوَزوا الحَدَّ في اتِّباعِ الهَوى وَتَأويلِ النُّصوصِ وما أشبهَ ذلكَ مِمَّا يَسْتَحْيي منهُ الإسلامُ ، والأمرُ للهِ.

* * *

الثانية والسبعون

زَعْمُهُمْ أنَّهم أولياءُ اللهِ مِن دونِ النَّاسِ.

دليلُ هذهِ المسألةِ قولُه ـ تعالى ـ في سورةِ «الجُمُعَة»: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾[1]، أيْ: تَهَوَّدُوا، أيْ: صاروا يَهوداً.

﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾، أيْ: أحِبَّاءُ لَه ـ سبحانه ـ، وَلَمْ يُضِفْ ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ إلَيْهِ ـ تعالى ـ كما في قوله ـ سبحانه ـ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾[2]؛ لِيُؤْذِنَ بالفَرْقِ بَيْنَ مُدَّعي الوَلايةِ وَمَنْ يَخُصُّهُ بِها.

﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ أيْ: مُتَجاوِزينَ عنِ النَّاسِ.

﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾، أيْ: فتَمَنَّوا مِنَ اللهِ أنْ يُميتَكُم وَيَنْقُلَكم مِن دار البَلِيَّةِ إلى مَحَلِّ الكَرامةِ.

﴿إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ في زَعْمِكُم، واثقينَ بأنَّه حَقٌّ، فَتَمَنَّوا الموتَ؛ فَإنَّه مَنْ أيقَنَ أنَّهُ مِن أهلِ الجَنَّةِ أحَبَّ أنْ يَتَخَلَّصَ إليها مِن هذه الدارِ التي هي قَرارَةُ الأنْكاد[3] والأكدارِ.

وَأُمِر ﷺ أنْ يقولَ لَهُم ذٰلك إظهاراً لِكَذِبِهِم، فَإنَّهم كانوا يقولون: ﴿نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾[4]، وَيَدَّعونَ أنَّ الآخرةَ لَهُمْ عند اللهِ خالصةً،

(١) الجمعة: (٦).
(٢) يونس: (٦٢).
(٣) في المطبوع «الإنكار».
(٤) المائدة: (١٨).

ويقولونَ: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾؛ كما أخبرَ ـ تعالى ـ عن الكتابِيِّين في كتابه، فقال ـ جل شأنه ـ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١١١ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

وَروِيَ أنَّهُ لَمَّا ظَهَرَ رَسولُ اللهِ ﷺ؛ كَتَبَتْ يَهودُ المدينةِ ليهودِ خَيْبَرَ: إن اتَّبَعْتُم محمَّداً أطَعْناهُ، وإنْ خالَفْتُموه خالَفْناه، فقالوا: نحنُ أبناءُ خليلِ الرحمن، ومنا عزيرٌ ابنُ اللهِ والأنبياءُ، ومتى كانتِ النُّبُوَّةُ في العَرَب؟! نحنُ أحَقُّ بها مِن محمَّدٍ، ولا سَبيلَ إلى اتِّباعِهِ، فنَزَلتْ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ الآية[2].

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾: إخبارٌ بحالِهم المستقبَلِ، وهو عدمُ تمنِّيهم الموتَ، وذلك خاصٌّ بأولئكَ المخاطبينَ.

وَرُوِيَ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال لهم: «والَّذي نفسي بيدِهِ لا يقولُها أحَدٌ مِنكُم إلاَّ غَصَّ بريقِهِ»[3]، فَلَمْ يَتَمَنَّهُ أحدٌ مِنهم، وما ذلك إلاَّ لأنَّهم كانوا موقِنينَ بصدقِهِ ﷺ، فَعَلِموا أنَّهم لو تَمَنَّوا لَمَاتوا مِن ساعتِهم، ولَحِقَهم الوعيدُ، وهذه إحدى المُعجِزات.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، أيْ: بسببِهِ، كَأَنَّهُ قيلَ: انْتَفَى تَمَنِّيهم بِسببِ ما قَدَّمتْ، والمُرادُ بما قَدَّمَتْهُ أيْديهم: الكُفْرُ والمعاصي الموجِبةُ لدخولِ

---

(١) البقرة: (١١١ ـ ١١٢).

(٢) ذكره أبو حيان في «البحر المحيط» (٧/ ٢٦٧) ولم يعزه.

(٣) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» (٦/ ٢٧٤)، وأخرجه البخاري في «صحيحه»، ومسلم في «صحيحه» عن ابن عباس بلفظ: «لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار».

النَّارِ ، وَلَمَّا كانت اليدُ مِن بين جوارحِ الإنسانِ مَناطَ عامَّةِ أفعالِه ، عَبَّرَ بها تارةً عن النَّفسِ وأخرى عنِ القُدرةِ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ، أيْ: بِهِمْ ، وإيثارُ الإظهار على الإضمارِ لِذَمِّهِمْ والتسجيلِ عليهم بِأنَّهم ظالِمونَ في كُلِّ ما يأتونَ وَيَذَرونَ مِنَ الأمورِ التي مِن جُمْلَتِها ادِّعاءُ ما هم عنه بِمَعْزِلٍ ، أيْ: واللهُ عليمٌ بما صَدَرَ منهم من فُنونِ الظُّلمِ والمَعاصي ، وَبِما سَيَكونُ مِنهم ، فيجازِيْهم على ذلكَ.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وَلا تَجْسُرونَ عَلى أنْ تَمَنَّوْهُ مَخافَةَ أنْ تُؤْخَذوا بِوَبالِ أفْعالِكُمْ.

﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ ألْبَتَّةَ ، مِن غيرِ صارِفٍ يَلْويهِ ، وَلا عاطِفٍ يَثْنيهِ.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الذي لا تَخفى عَلَيه خافيةٌ.

﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الكُفرِ وَالمعاصي بِأنْ يُجازِيكم بها.

وهذا دَيْدَنُ الزَّائغينَ، وشَأْنُ الملحِدينَ ، كما قالَ ـ تعالى ـ عَنِ اليَهودِ: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾[1].

وَقَدْ وَرِثَ هذهِ الخصلةَ كَثيرٌ مِمَّن يَنْتَمي إلى المِلَّةِ الإسلاميَّةِ ، بَلْ كُلٌّ مِنَ الفِرَقِ يقول[2]: نحنُ أوْلِياءُ اللهِ ، مَعَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال في حديثِ الفِرَقِ في بيانِ الفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ: «وهُمْ ما أنا عليهِ وأصْحابي»[3].

* * *

---

(١) المائدة: (١٨).

(٢) في المطبوع: «من يقول».

(٣) سبق تخريجه.

الثالثة والسبعون

دَعْواهم مَحَبَّةَ اللهِ مَعَ تَرْكِ شَرْعِهِ ، فَطالَبَهُمْ ـ سُبحانَهُ ـ بِقولِهِ في سورةِ «آل عمرانَ»: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

قال الحسنُ[2] وابنُ جُرَيْجٍ[3]: «زَعَمَ أقوامٌ على عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّهم يُحِبُّونَ اللهَ ، فقالوا: يا محمَّدُ ! إنَّا نُحِبُّ ربَّنا ، فَأَنْزَلَ اللهُ ـ تعالى ـ هذه الآيةَ».

وَرَوى الضَّحاكُ عنِ ابنِ عبَّاس قال: «وَقَفَ النَّبيُّ ﷺ على قريشٍ في المسجدِ الحرام ، وقد نَصَبوا أصنامَهم ، وَعَلَّقوا عَلَيها بَيْضَ النَّعامِ ، وَجَعَلوا في آذانِها الشُّنوفَ[4] ، وَهُمْ يَسجدونَ لها ، فقالَ: «يا معشرَ قريشٍ ، لقد خالَفْتُم مِلَّةَ أَبِيكم إبْراهيمَ وإسْماعيلَ ، ولقدْ كانا على الإسلامِ» ، فَقَالَتْ قُرَيشٌ: يا محمَّدُ! إنَّما نَعبدُ هذه حُبّاً للهِ؛ لِتقرِّبَنا إلى اللهِ

---

(١) آل عمران: (٣١).

(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٢٣٢).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٢٣٢) ، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٧) ، وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

(٤) جاء في حاشية المخطوط: «الشنوف ـ محركة بالضم ـ: القرط الأعلى ، أو معلاق في قوف الأذن ، أو ما علق في أعلاها. وأما ما علق في أسفلها فقرط ، جمعه شنوف».

زُلْفى ، فأنْـزَلَ اللهُ ـ تَعالى ـ: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ . . . ﴾ إلخ[1] .

وفي روايةِ أبي صالحِ أنَّ اليهودَ لَمَّا قالوا: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾[2] أنزلَ اللهُ هذه الآيةَ ، فَلَمَّا نَزلَتْ عَرَضَها رسولُ اللهِ ﷺ على اليهودِ ، فَأَبَوا أنْ يَقْبَلوها[3] .

وَرَى محمَّدُ بنُ إسحاقَ عن محمَّدِ بن جَعفر بنِ الزُّبَيرِ قال: «نَزَلَت في نَصارى نَجرانَ ، وذلكَ أنَّهم قالوا: إنَّما نُعَظِّمُ المسيحَ ، نَعْبُدُهُ حُبّاً للهِ ، وَتَعْظيماً لَهُ ، فأنزلَ اللهُ ـ تعالى ـ هذهِ الآيةَ رَدّاً عَلَيْهم»[4] .

وَبالجُمْلَةِ: مَنْ تَلَبَّسَ بالمعاصي لا يَنْبَغي لَهُ أنْ يَدَّعيَ مَحَبَّةَ اللهِ ، ومَا أحْسَنَ قولَ القائلِ:

تَعْصـي الإلٰـهَ وأنـتَ تُظْهِـرُ حُبَّـهُ ... هٰـذا لَعَمْـري فـي القِيـاسِ بَـديـعُ
لَـوْ كـانَ حُبُّـكَ صَـادِقـاً لأطعْتَـهُ ... إنَّ المُحِـبَّ لِمَـنْ يُحِـبُّ مُطيـعُ[5]

* * *

(1) ذكره البغوي في «تفسيره» (1/ 293) ، وابن الجوزي في «زاد المسير» (1/ 373).
(2) المائدة: (18).
(3) ذكر هذا الأثر ابن الجوزي في «زاد المسير» (1/ 373).
(4) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (3/ 233) بنحوه.
(5) هذان البيتان ينسبان إلى الإمام الشافعي ، وهما في «ديوانه» (ص 58).

الرابعة والسبعون

تَمَنِّيهمْ على اللهِ ـ تعالى ـ الأمانيَّ الكاذبةَ.

قال ـ تعالى ـ في سورةِ «آل عمرانَ»: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾[1].

أخرج ابنُ إسحاقَ وجماعةٌ عن ابنِ عبّاسٍ قالَ: «دَخَلَ رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم بيتَ المِدْراسِ[2] على جماعةٍ من يهودَ، فدعاهم إلى اللهِ ـ تَعالى ـ، فقال النُّعمانُ بنُ عمرٍو والحارثُ بنُ زيدٍ: على أيِّ دينٍ أنت يا محمَّدُ؟ قال: «على مِلَّةِ إبراهيمَ ودِينهِ»، قالا: فإنَّ إبراهيمَ كان يهودياً، فقال لهما رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «فَهَلُمَّا إلى التَّوارةِ، فهي بينَنا وبينكُم، فأبَيَا[3] عليه»، فأنزل اللهُ ـ تعالى ـ هذه الآيةَ»[4].

وفي البَحْرِ: «زَنى رجلٌ مِنَ اليهودِ بامرأةٍ، ولم يكن بعدُ في دِيننا

---

(١) آل عمران: (٢٤).

(٢) بيت المدراس: البيت الذي يدرس فيه اليهود.
انظر: «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ١١٣) «لسان العرب» مادة درس (٦/ ١٨٠).

(٣) في «تفسير ابن أبي حاتم» «فأبيا عليه».

(٤) أخرجه ابن إسحاق، وابن جرير في «تفسيره» (٣٢٢/٢١٧ ـ ٢١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢/١٦٦)، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» (٢/ ١٤) وزاد نسبته إلى ابن المنذر.

الرَّجمُ ، فتَحاكَموا إلى رسولِ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم؛ تَخْفيفاً على الزَّانِيَيْنِ لِشَرَفِهِما ، فقال رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم: «إنَّما أحْكمُ بِكِتابِكُم» ، فأنْكَروا الرَّجمَ ، فَجِيءَ بِالتَّوراةِ ، فَوَضَعَ حَبْرُهُم[1] ابنُ صُوريا يَدَهُ على آيةِ الرَّجم ، فقال عبدُ اللهِ بنُ سَلام: جاوزَها يا رسولَ اللهِ ، فأظْهَرَها ، فَرُجِما ، فَغَضِبَتِ اليهودُ ، فنَزَلَتْ»[2].

ومَعنى قولِه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ ، أيْ: المذكورُ مِنَ التَّوَلِّي والإعراضِ حاصِلٌ لَهُمْ بِسَبَبِ هذا القولِ الذي رَسَّخَ اعتقادَهم بِه[3]، وَهَوَّنوا بِهِ الخُطوبَ ، وَلَمْ يُبالوا معهُ بارْتِكابِ المَعاصي والذُّنوبِ.

والمُرادُ بالأيَّامِ المَعدوداتِ: أيَّامُ عِبادتِهم العِجْلَ.

﴿وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ ، أيْ: غَرَّهُم افتِراؤُهم وَكَذِبُهُم ، أوِ الذي كانوا يَفْتَرونَه مِن قَوْلِهِم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ ، أوْ مِن قولِهِم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ ، أوْ مِمَّا يَشْمَلُ ذلكَ ونحوه مِن قَولِهم: إنَّ آباءَنا الأنبياءَ يَشفعونَ لنا ، وإنَّ اللهَ ـ تعالى ـ وَعَدَ يَعقوبَ أنْ لا يُعَذِّبَ أبناءَه إلاَّ تَحِلَّةَ القَسَمِ[4]، فَرَدَّ عليهم ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ . . .﴾ إلخ.

رُوِيَ أنَّ أوَّلَ رايةٍ تُرفَعُ لأهلِ المَوقِفِ مِن راياتِ الكُفَّارِ رايةُ اليهودِ ،

---

(١) في المطبوع «جرهم».
(٢) «البحر المحيط» (٢/٤١٦) ، ونسبه أبو حيان إلى الكلبي ، وذكره البغوي في «تفسيره» (١/٣٨٩) ، وابن الجوزي في «زاد المسير» (١/٣٦٦) ، ونسباه إلى ابن عباس.
(٣) في المخطوط «له».
(٤) انظر: «تفسير ابن جرير» (٣/٢١٩).

فَيَفْضَحُهُمُ اللهُ ـ تعالى ـ على رُؤوس الأشهادِ ، ثُمَّ يَأمُرُ بِهِم إلى النَّارِ[1] .

وهكذا رَأيْنا كَثيراً مِن أهلِ زَمانِنا يَفعلونَ ما يفعلونَ مِن المُنْكَراتِ ، اعتمـاداً على الشَّفاعةِ ، أو على عُلُـوِّ الحَسَبِ وَشَرَفِ النَّـسَبِ ، واللهُ المُستعانُ .

وفي سورة البقرةِ : ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ[2] ﴾[3] .

* * *

---

(١) «روح المعاني» (٣/ ١١١ ـ ١١٢) .

(٢) من قوله ـ تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ إلى آخر الآية ليس في المطبوع .

(٣) البقرة : (٨٠ ـ ٨٢) .

الخامسة والسبعون

اتِّخاذُ قُبورِ أنبيائِهم وصالِحيهِم مساجِدَ.

هٰذه المَسْألةُ مِن خِصالِ الكتابِيِّينَ أيَّامَ جاهليَّتِهم.

وفي ذلك ورد الحديثُ الصَّحيحُ: «لَعَن اللهُ اليهودَ والنَّصارى، اتَّخَذوا قُبورَ أنبيائِهم مَساجدَ»[1]، ثم قال: «فَلا تَتَّخِذوها مَساجِدَ».

وفي الصَّحيحينِ عن أبي هريرة أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «قاتَلَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى، اتَّخذوا قُبورَ أنبيائِهم مَساجِدَ»[2].

وفي لفظٍ لِمُسلمٍ: «لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى، اتَّخَذوا قُبورَ أنْبيائِهِم مَساجِدَ».

وفي الصَّحيحين عن عائشةَ وابنِ عبَّاسٍ، قال: «لَمَّا نُزِلَ بِرسولِ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم، طَفِقَ يَطْرَحُ خَميصَةً على وَجهِهِ، فإذا اغْتَمَّ بها كَشَفَها عن وجهِهِ، فقال: ـ وهو كذلك ـ: «لَعَنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى،

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الجنائز ـ باب ما جاء في قبر النبي ﷺ ـ (٢/٢٠٦)، ومسلم في «صحيحه» ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها والنهي عن اتخاذ القبور مساجد ـ (١/٣٧٧) ح ٥٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الصلاة ـ باب ـ (١/١١٢ ـ ١١٣)، ومسلم في «صحيحه» ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب النهي عن بناء المساجد على القبور... (١/٣٧٦ ـ ٣٧٧) ح ٥٣٠.

اتَّخَذوا قبورَ أنبيائِهم مَسَاجِدَ» ، يُحَذِّرُ ما صَنَعوا»[1] .

وفي الصَّحيحين ـ أيضاً ـ عن عائشةَ أنَّ أمَّ سَلَمَة وأمَّ حَبيبةَ ذَكَرَتَا لِرَسولِ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم كَنيسةً رَأيْنَها بأرضِ الحَبَشَةِ يقال لها: «ماريَة» ، وَذَكَرَتا مِنْ حُسْنِها وتَصاويرَ فيها ، فقال رسولُ الله صلى الله تعالى وسلم : «أولئكِ قومٌ إذا ماتَ فيهم العبدُ الصَّالحُ أو الرَّجلُ الصالحُ بَنوا على قبرِهِ مسجداً ، وَصَوَّروا فيه تلك الصُّورَ ، أولئكِ شرارُ الخَلْقِ عند اللهِ»[2] .

وعن ابنِ عبَّاسٍ قال: «لعَنَ رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم زائراتِ القبورِ والمُتَّخِذينَ عليها المساجدَ والسُّرُجَ» ، رواه أهل السُّننِ الأربعةِ[3] .

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الصلاة ـ باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية ويتخذ مكانها مساجد ـ (١/ ١١٠ ـ ١١١) وباب الصلاة في البيعة ـ (١/ ١١٢) ، ومسلم في «صحيحه» ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب النهي عن بناء المساجد على القبور . . . (١/ ٣٧٧) ح ٥٣٠ .

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الصلاة ـ باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية . . . (١/ ١١٠ ـ ١١١) ، ومسلم في «صحيحه» ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب النهي عن بناء المساجد على القبور . . . (١/ ٣٧٧) ح ٥٣٠ .

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» ـ كتاب الجنائز ـ باب في زيارة النساء القبور ـ (٣/ ٥٥٨) ح ٣٢٣٦ ، والنسائي في «السنن الكبرى» ـ كتاب الجنائز ـ باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور ـ (١/ ٦٥٧) ح ٢١٧٠ ، وفي المجتبى ـ كتاب الجنائز ـ باب التغليظ في اتخاذ السرج على القبور ـ(٤/ ٩٥ ـ ٩٦) ، والترمذي في «جامعه» ـ أبواب الصلوات ـ باب ما جاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجداً ـ(٢/ ١٣٦ ـ ١٣٧) ح ٣٢٠ ، والطيالسي في «مسنده» (ص ٣٥٧) ح ٢٧٣٣ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ـ كتاب الجنائز ـ باب من كره زيارة القبور ـ (٣/ ٣٤٤) ، وأحمد في «مسنده» (١/ ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٢٤ ، ٣٣٧) ، وابن حبان في «صحيحه» (الموارد) ـ كتاب الجنائز ـ باب زيارة القبور ـ (ص ٢٠٠) ح ٧٨٨ ، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/ ١٤٨) ح ١٢٧٢٥ ، والحاكم في «المستدرك» ـ كتاب =

فهذا التَّحذيرُ منه ، واللعنُ عن مُشابهةِ أهلِ الكتابِ في بناءِ المسجِدِ على قبرِ الرَّجلِ الصَّالحِ صريحٌ في النَّهي عنِ المشابهةِ.

وفي هذا دليلٌ على الحذرِ عن جِنسِ أعمالِهم ، حيثُ لا يؤمنُ في سائرِ أعمالِهم أنْ يكونَ من هذا الجنسِ.

ثُمَّ من المعلومِ ما قد ابْتُلِيَ بِه كثيرٌ من هذه الأمَّةِ من بناءِ القبورِ مساجدَ ، واتِّخاذِ القبور مساجدَ بِلا بناءٍ ، وَكِلا الأمرينِ مُحَرَّمٌ ، ملعونٌ فاعلُه بالمستفيضِ من السُّنَّةِ ، وليس هذا موضعَ استقصاءِ ما في ذلكَ من سائرِ الأحاديثِ والآثارِ ، ولهذا كان السَّلفُ يُبالِغونَ في المنعِ.

* * *

= الجنائز ـ (١/ ٣٧٤) ، والبيهقي في «السنن الكبرى» ـ كتاب الجنائز ـ باب ما ورد في نهي النساء عن زيارة القبور ـ (٤/ ٧٨) ، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٧٠ ـ ٧١) ، والبغوي في «شرح السنة» ـ كتاب الصلاة ـ باب كراهية أن يتخذ القبر مسجداً ـ (٢/ ٤١٦ ـ ٤١٧) ح ٥١٠.

وقد حسن هذا الحديث الترمذي في «جامعه» ، والبغوي ، والسيوطي في «الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع» (ص ١١٣) وأحمد شاكر في «تعليقه على سنن الترمذي» ، وصححه في «شرح المسند» (١/ ٣٢٣).

وقال الحاكم: «أبو صالح [أحد رجال الإسناد] هذا ليس بالسمان المحتج به ، إنما هو باذان ، ولم يحتج به الشيخان ، لكنه حديث متداول بين الأئمة ، ووجدت له متابعاً من حديث سفيان الثوري في متن الحديث ، فخرجته».

وقال الذهبي في «تلخيصه»: «أبو صالح هو باذان ، ولم يحتجا به».

السادسة والسبعون

اتخاذُ آثارِ أنبيائِهم مساجدَ.

كَما وَرَدَ عَن عُمَرَ ـ رضي الله عنه ـ فإنَّ هذه المسألةَ ـ أيضاً ـ مِن بِدَعِ جاهِلِيَّةِ الكِتابيِّينَ، كانوا يَتَّخِذونَ آثارَ أنبيائِهم مَساجِدَ، فَوَرِثَهُمُ الجاهِلونَ مِن هذه الأمَّةِ، فَتَراهم يَبْنونَ على موضِعٍ اخْتَفى بِهِ النَّبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم، أوْ وَصَلَ قَدَمُهُ المُبارَكُ إليه، أو تَعَبَّدَ فيه، وَهذا لَيْسَ مما يُحْمَدُ في الشَّريعةِ؛ لِجَرِّهِ إلى الغُلُوِّ.

وفي العِراقِ مواضعُ كثيرةٌ بَنوا عليها مَبانِيَ، كالمقامِ الذي زَعَموا أنَّ الشَّيخَ الكَيلانيَّ تَعَبَّدَ فيه، وكَأَثَرِ الكَفِّ الَّذي زَعَمَ الشِّيعَةُ أنَّه أَثَرُ كَفِّ الإمامِ عَليٍّ لَمَّا وَضَعَه على الصَّخْرةِ فَأَثَّرَ فيها، فَبَنَوا عليها مَسجداً، وَكَعِدَّةِ أماكِنَ زَعَموا أنَّ الخَضِرَ رُؤِيَ فيها، ولا أصلَ لَهُ، إلى غيرِ ذٰلكَ مِمَّا لا يَسْتَوْعِبُهُ المَقامُ.

فَيَنبَغي لِمَنْ يَدَّعي الإسلامَ أنْ يَتَجَنَّبَها، وَيَنْهى عن حُضورِها، وإنْ رُمِيَ بالإنكارِ، وَعَداوةِ الأشْرارِ، وَكَيْدِ المارقينَ الفُجَّارِ.

وفي المسألةِ تفصيلٌ لا بأسَ بِذِكْرِهِ.

قال شيخُ الإسلام: «فأمَّا[1] مَقاماتُ الأنبياءِ والصَّالحينَ ـ وهي الأمكنةُ التي قاموا فيها أوْ أقاموا، أو عَبَدوا اللهَ ـ سُبحانه ـ لَكنَّهم لمْ يَتَّخذوها مساجِدَ ـ فالذي بَلَغني في ذلك قَولانِ عن العلماء مشهوران:

---

(١) في المخطوط والمطبوع «أما» وما أثبته من الاقتضاء.

أَحَدُهُما: النَّهيُ عن ذلكَ، وكراهتُه، وأنَّه لا يُسْتَحَبُّ قصدُ بُقْعَةٍ لِلعِبادةِ، إلَّا أنْ يكونَ قَصْدُها لِلعبادةِ مِمَّا جاءَ به الشَّرعُ، مِثْلُ أنْ يكونَ النَّبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم قَصَدَها لِلعبادةِ، كَما قَصَدَ الصَّلاةَ في مَقام إبراهيمَ، وكما كان يَتَحَرَّى الصَّلاةَ عند الإسطُوانةِ[1]، وكما تُقْصَدُ المساجِدُ لِلصَّلاةِ، ويُقْصَدُ الصَّفُّ الأوَّلُ، وَنَحْوِ ذلكَ.

والقولُ الثَّاني: أنَّه لا بأسَ باليَسيرِ مِن ذلكَ، كَما نُقِلَ عن ابنِ عُمَرَ أنَّه كان يَتَحَرَّى قَصْدَ المواضِعِ التي سَلَكَها النَّبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم، وإنْ كانَ النَّبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم [قد][2] سَلَكَهَا اتِّفاقاً لا قَصْداً.

وَسُئِلَ الإمامُ أحمدُ عن الرَّجُلِ يأتي هذه المَشاهِدَ، وَيَذْهَبُ إليها، تَرى ذلكَ[3] قالَ: أمَّا على حَديثِ ابنِ أمِّ مَكْتومٍ أنَّه سَألَ النَّبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنْ يُصَلِّيَ في بيتهِ حتى يَتَّخِذَ ذلك مُصَلًّى[4]، وعلى ما كان يَفْعَلُهُ ابنُ عُمَرَ، يتتبعُ مواضعَ النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم وأثَرَه، فلَيسَ بذلكَ بَأْسٌ أَنْ يأتِيَ الرَّجُلُ المشاهدَ، إلا أنَّ النَّاسَ قد أَفْرَطوا في هذا جدّاً، وأكْثَروا فيهِ.

وَكذلكَ نَقَلَ عنه أحمدُ بنُ القاسمِ أنه سُئِلَ عن الرَّجُلِ يأتي هذه المشاهِدَ

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الصلاة ـ باب الصلاة إلى الإسطوانة ـ(١/ ١٢٧) من حديث سلمة بن الأكوع.

(٢) الزيادة من الاقتضاء.

(٣) الذي في الاقتضاء: «قال سندي الخواتيمي: سألنا أبا عبد الله عن الرجل يأتي هذه المشاهد، ويذهب إليها، ترى ذلك؟».

(٤) لم أجده من حديث ابن أم مكتوم، وإنما وجدته من حديث عتبان بن مالك عند البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الصلاة ـ باب المساجد في البيوت ـ(١/ ١٠٩)، ومسلم ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب الرخصة عن التخلف عن الجماعة بعذر ـ(١/ ٤٥٥).

التي بالمدينةِ وغيرها يذهبُ إليها؟ فقالَ: أمَّا علىٰ حديثِ ابْنِ أمِّ مَكْتومٍ أنَّه سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم أنْ يَأتيه فيُصَلِّي في بيتهِ ، حَتَّى يَتَّخِذَه مَسجداً ، وعَلى ما كان يَفعَلُ ابنُ عُمَرَ ، كان يَتتبَّعُ مواضعَ سَيْرِ النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم ، حَتَّى إنَّهُ رُؤيَ يَصُبُّ[1] في موضِعِ ماءً ، فَسُئِلَ عن ذلكَ ، فقالَ: «رأيتُ النَّبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم يَصُبُّ ههنا[2] ماءً»[3] ، قال: أمَّا على هذا فلا بأسَ. قال: وَرَخَّصَ فيه ، ثُمَّ قال: وَلَكِنْ قد أفْرطَ النَّاسُ جِدّاً ، وَأَكْثَروا في هذا المعنى. فَذَكَرَ قَبرَ الحُسينِ وما يَفعلُ النَّاسُ عندَه. رواهما الخلَّالُ في «كتابِ الأدَبِ».

فقد فَصَّلَ أبو عبدِ اللهِ في المَشاهِدِ ـ وهي الأمكنةُ التي فيه آثارُ الأنبياءِ والصَّالحينَ من غيرِ أنْ تكونَ مساجدَ لهم كمواضعَ بالمدينةِ ـ بَيْنَ القليلِ الذي لا يَتَّخِذونَه عيداً ، وَالكَثيرِ[4] الذي يَتَّخذونَه عيداً كما تَقَدَّمَ.

وهذا التَّفصيلُ جَمَعَ فيه بَيْنَ الآثارِ وأقوالِ الصَّحابةِ:

فإنَّه قد رَوَى البُخاريُّ في صحيحه عن موسى بنِ عقبةَ قال: «رأيتُ سالمَ[5] بنَ عبدِ اللهِ يَتَحَرَّى أماكِنَ مِن الطَّريقِ ، وَيُصلِّي فيها ، وَيُحَدِّثُ أنَّ أباهُ كان يُصَلِّي فيها ، وَأنَّه رَأى النَّبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم يُصَلي في تلكَ الأمْكِنَةِ»[6].

---

(١) في «الاقتضاء» «حتى رئي أنه يصب».
(٢) في المخطوط والمطبوع «هنا» ، وما أثبته من «الاقتضاء».
(٣) ذكر هذا الأثر ابن الأثير في «أسد الغابة» (٣/ ٢٣٧) ، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢١٣).
(٤) في المطبوع «أو الكثير» ، وما أثبته هو الموافق لما في «الاقتضاء».
(٥) في المطبوع «سالماً».
(٦) «صحيح البخاري» ـ كتاب الصلاة ـ باب المساجد التي على طرق المدينة والمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ ـ (١/ ٨٩).

فهذا كَما رَخَّصَ الإمامُ أحمدُ.

وأمَّا كراهَتُـهُ[1] ، فروى سعيدُ بـنُ منصورٍ في سُنَنِـهِ قال: حَدَّثَنـا أبو مُعاويةَ قال: حَدَّثَنا الأعْمشُ عن المَعْرورِ بنِ سُوَيْدٍ عن عُمَرَ قال: خَرَجْنا مَعَهُ في حَجَّة حَجَّها ، فَقَرَأ بِنا في الفجرِ بـ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾[2] و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾[3] في الثَّانيةِ ، فَلَمَّا رَجَعَ مِنْ حَجَّتِهِ رَأى النَّاسَ ابْتَدَروا المَسْجِدَ ، فقالَ: ما هذا؟ فقالوا: مَسْجِدٌ صَلَّى رسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم فيه ، فقالَ: «هٰكذا هَلَكَ أهلُ الكتابِ قَبلَكم ، اتَّخذوا آثارَ أنبيائِهم بِيَعاً ، مَنْ عَرَضَتْ لَهُ مِنكُمُ الصَّلاةُ فيه فَلْيُصَلِّ ، ومن لم تعرض له الصلاة فَلْيَمْضِ[4]»[5].

فَقد كَرِهَ عُمرُ اتِّخاذَ مُصلَّى النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم عِيداً ، وَبَيَّنَ أنَّ أهلَ الكتابِ إنَّما هَلَكوا بِمثْلِ هذا ، كانوا يَتَّبعونَ آثارَ أنبيائِهم ، وَيَتَّخِذونها كنائسَ وَبِيَعاً.

وَرَوَى محمَّدُ بـنُ وضَّاحٍ وغيرُه: «أنَّ عمرَ بـنَ الخَطَّابِ أمَرَ بِقطعِ الشَّجَرَةِ التي بُويعَ تحتَهـا النَّبيُّ صلى الله تعالى عليـه وسلم؛ لأنَّ النَّاسَ

(١) في «الاقتضاء»: «وأما ما كرهه».
(٢) الفيل: (١).
(٣) قريش: (١).
(٤) في «الاقتضاء» «فليمض ولا يتعمدها».
(٥) لم أجد هذا الأثر في المطبوع من سنن سعيد بن منصور ، وقد أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ـ كتاب الصلاة ـ باب الصلاة عند قبر النبي ﷺ وإتيانه ـ(٢/٣٧٦ ـ ٣٧٧) ، وعبد الرزاق في «مصنفه» ـ كتاب الصلاة ـ باب ما يقرأ في الصبح في السفر ـ(١/١١٨ ـ ١١٩) ح ٢٧٣٤ ، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (ص ٤١ ـ ٤٢) ، وصحح شيخ الإسلام إسناده في «التوسل والوسيلة» (ص ١٠٢).

كانوا يذهبونَ تحتها ، فخافَ عمرُ الفتنةَ عليهم»[1][2].

وَمَا ذكَرَهُ عُمَرُ هو الحَرِيُّ بِالقبولِ ، وهو مذهبُ جُمهورِ الصَّحابةِ ، غيرَ ابنِهِ[3] ، وهو الذي يَجبُ العملُ به ، ويُعَوَّلُ عليه .

* * *

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٠٠) ، وابن وضاح في «البدع والنهي عنها» (ص ٤٢ ـ ٤٣).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٧٤٢ ـ ٧٤٤).

(٣) الظاهر من حال ابن عمر ـ رضي الله تعالى عنهما ـ أنه إنما أراد بفعله ذلك الاقتداء لا التبرك ، بدليل ما ذكره أهل العلم من تشدده في الاقتداء به ﷺ ، حتى قال نافع فيما أخرجه عنه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣١٠): «لو نظرت إلى ابن عمر إذا اتبع رسول الله ﷺ لقلت: هذا مجنون».

المسألة[1] السابعة والسبعون

اتِّخاذُ السُّرُجِ على القُبورِ.

دَليلُ حُرْمَةِ ذلكَ ما وردَ عن رسولِ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم مِن الحديثِ الذي سَبَقَ ذِكْرُهُ مِن لَعْنِ مَن يَفْعَلُ ذلكَ.

وَلَيْتَكَ رَأيْتَ ما يُوقَدُ في تُرَبِ أئِمَّةِ أهلِ البيتِ ونحوِها مِن الشُّموعِ، ولا سِيَّما في لَيالي رَمَضانَ والليالي المُبارَكَةِ، وهم يَحْسَبونَ أنَّهم يُحْسِنونَ صُنْعاً[2].

* * *

---

(١) «المسألة» ليست في المطبوع.

(٢) ذكره الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه «السنة والشيعة أو الرافضة والوهابية» أنه رأى من وسائل الإنارة على قبور الروافض ـ أذلهم الله وأخزاهم ـ ما يكفي لتنوير مدينة عظيمة».

الثامنة والسبعون

اتِّخاذُها أعْياداً[1]

اعْلَمْ أنَّ العِيدَ اسمٌ لِما يَعودُ مِنَ الاجْتِماعِ العامِّ على وَجْهٍ مُعْتادٍ عائداً ما تَعودُ السَّنَةُ أوْ يَعودُ الأسبوعُ أو الشَّهرُ أو نَحوَ ذلك ، فالعيد يَجمعُ أُموراً :

منها : يومٌ عائدٌ ، كَيومِ الفِطْرِ ، وَيَومِ الجُمُعَةِ .

ومِنها : اجتِماعٌ فيه .

ومِنها : أعمالٌ تَجمعُ ذلكَ مِنَ العِباداتِ أوِ العاداتِ .

وقد يَخْتَصُّ العيدُ بِمَكانٍ بِعينِه ، وقد يكونُ مُطْلَقاً .

هؤلاءِ مُسْلِمو أهلِ العراقِ ، لِكُلِّ تُربةٍ وليٍّ يومٌ مخصوصٌ يجتمعون فيه للزِّيارةِ ، كزيارةِ الغَديرِ ، وَمَرَدِّ الرَّأس .

ومِنهم من خُصَّ له يومٌ من أيَّامِ الأسبوعِ ، فالجمعةُ لِفلانٍ ، والسبت لفلان[2] ، والثُّلاثاءُ لِفُلانٍ ، وهكذا .

وَمِن ذلـك بعضُ الأيَّامِ والليالي المُبارَكَـةِ ، كَلَيْلَـةِ القَـدْرِ ، وَأيَّـامِ

---

(١) انظر بتوسع في هذه المسألة : «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢/ ٦١٣) وما بعدها ، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٩٠) وما بعدها .

(٢) «والسبت لفلان» ساقط من المطبوع .

الأعْيادِ ، وَلَيْلَةِ النِّصْفِ مِن شَعْبانَ ، وَغَيرِ ذلكَ ، كل ذلكَ[1] مِمَّا لمْ يُنْزِلِ اللهُ بِهِ من سُلْطانٍ ، ومن مكايِدِ الشيطانِ[2] .

* * *

(١) «كل ذلك» ساقط من المطبوع.

(٢) «ومن مكايد الشيطان» ساقط من المطبوع.

التاسعة والسبعون

الذَّبحُ عندَ القُبورِ.

قال اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

أمَرَهُ اللهُ ـ تَعالى ـ أنْ يُخْبِرَ المُشرِكينَ الذين يَعبدونَ غيرَ اللهِ ، ويَذبحونَ لَهُ ، أيْ: أنَّه أخلصَ للهِ صلاتَه وذبيحتَه؛ لأنَّ المُشرِكينَ يَعبدونَ الأصنامَ ويذبحونَ لَها ، فأمَرَهُ اللهُ ـ تَعالى ـ بِمُخالَفَتِهم ، والانحرافِ عمَّا هُم فيه ، والانقيادِ بالقَصْدِ والنِّيَّةِ والعزمِ على الإخلاصِ للهِ ـ تَعالى ـ ، فَمَنَ تَقَرَّبَ لغيرِ اللهِ ـ تعالى ـ لِيَدفَعَ عنه ضَيراً ، أو يَجْلِبَ له خَيراً ، تَعظيماً لهُ ، مِن الكُفْرِ الاعتقاديِّ والشِّركِ الذي كان عليه الأوَّلونَ.

وسببُ مشروعيَّةِ التَّسميَةِ تخصيصُ مِثْلِ هذه الأمورِ العِظامِ بالإلٰهِ الحَقِّ المعبودِ العلَّامِ ، فإذا قُصِدَ بالذَّبحِ غيرُه ، كان أولى بالمنعِ.

وَصَحَّ نهيُـهُ صلى الله تعالى عليه وسلم عمَّنِ اسْتَأْذَنَـهُ بالذَّبحِ بِبُوانَـةَ ، وأنَّـهُ قد نَذَرَ ذلكَ ، فقال لَـهُ صلى الله تعالى عليـه وسلم: «أكانَ فيها صَنَمٌ؟» ، قالَ: «لا» ، قال: «فَهَلَ كان فيها عِيدٌ مِن أعيادِ المُشرِكِينَ؟» ،

---

(١) الأنعام: (١٦٢ ـ ١٦٣).

قال: «لا» ، قال: «فَأَوْفِ بِنذرِكَ». أخرج ذلك أبو داودَ في سُنَنِهِ[1].

وهذا السَّائلُ مُوَحِّدٌ مُقَرِّبٌ للهِ ـ سُبحانَه وتَعالى ـ وَحْدَه ، لٰكِنِ المكان الذي فيه معبودٌ غيرُ اللهِ ، وقد عُدِمَ ، أو مَحَلٌّ لاجْتِماعِهِم يَصْلُحُ مانِعاً ، فَلَمَّا عَلِمَ صلى الله تعالى عليه وسلم أنْ ليسَ هناك شيءٌ مِن ذلكَ ، أجازَهُ ، وَلَو عَلِمَ شَيئاً مِمَّا سألَ عنه ، لَمَنَعَهُ ، صِيانَةً لِحمى التَّوحيدِ ، وَقَطْعاً لذَريعَةِ الشِّركِ.

وَصَحَّ ـ أيضاً ـ عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنَّه قال: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ في ذُبابٍ ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجلٌ في ذُبابٍ» ، قالوا: «كيف ذلك يا رسولَ اللهِ؟!» ، قال: «مَرَّ رَجُلانِ على قومٍ لهم صَنَمٌ لا يُجاوِزُهُ أحدٌ حتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيئاً ، قالوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَو ذُباباً ، فَقَرَّبَ ذُباباً ، فَخَلَّوا سبيلَه ، فَدَخَلَ النَّارَ ، وقالوا للآخَرِ: قَرِّبْ ، قال: ما كنتُ أقَرِّبُ شيئاً لأحَدٍ دونَ اللهِ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ؛ فَضَربوا عُنُقَهُ ، فَدَخَلَ الجَنَّةَ»[2].

ففي هذا الحديثِ من الفوائدِ: كَونُ المُقَرِّبِ دخل النَّارَ بالسَّببِ الذي لم يَقْصِدْهُ ، بل فَعَلَه تَخَلُّصاً مِنْ شَرِّهِم ، وَأنَّـهُ كان مُسْلِماً ، وإلاَّ لَمْ يَقُلْ: دخل النَّـارَ.

---

(1) كتاب الإيمان والنذور ـ باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر ـ (٣/ ٦٠٧) ح ٣٣١٣ ، والبيهقي في «السنن الكبرى» ـ كتاب النذور ـ باب من نذر أن ينحر بغيرها [مكة] ليتصدق ـ (١٠/ ٨٣) ، والطبراني في «الكبير» (٢/ ٧٥) ح ١٣٤١ ، وصححه الحافظ ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٨٠).

(2) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» ـ كتاب الجهاد ـ باب ما قالوا في المشركين يدعون المسلمين إلى غير ما ينبغي يجيبونهم أم لا ويكرهون عليه ـ (١٢/ ٣٥٨) ، وأحمد في «الزهد» (ص ٢٢) ، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٣) موقوفاً على سلمان الفارسي ، ولم أجده مرفوعاً ، غير أنه لا يمكن أن يقال بالرأي ، فله حكم الرفع.

وفيه ما يَنبغي الاهتمامُ بِهِ مِن أعمالِ القُلوبِ التي هي المَقصودُ الأعظمُ والرُّكْنُ الأكبرُ.

فَتَأمَّلْ في ذلكَ، وانظُرْ إلى فؤادِك في جميعِ ما قالوه، وَأَلْقِ سَمْعَكَ لِما ذَكَروهُ، وانْظُر الحَقَّ، فإنَّ الحَقَّ أبْلَجُ والباطِلُ لَجْلَجٌ، فَبِالنَّظَرِ التَّامِّ إلى ما كان عليه المُشرِكون مِن تقريبهم[1] لأوثانِهم؛ لِتُقَرِّبَهُمْ[2] إلى اللهِ؛ لِكونِهم شُفعاءَ لهم عند اللهِ، وشفاعتُهم بسبب أنَّهم رُسُلُ اللهِ أو ملائكةُ اللهِ أو أولياءُ اللهِ، يتبينُ لك ما عليه النَّاسُ الآنَ، واللهُ المستعانُ.

* * *

---

(١) في المطبوع: «من تقربهم».

(٢) في المطبوع: «لتقريبهم».

الثمانون

التَّبَرُّكُ بآثارِ المُعَظَّمينَ ، كَدار النَّدوَةِ[1] ، وافتِخارُ مَن كانت تحت يدهِ بذلكَ ، كما قيلَ لحكيم بنِ حِزامٍ: بعتَ مَكْرُمَةَ قريشٍ؟! فقال: «ذهبت[2] المكارمُ إلاَّ التَّقوى»[3].

هـذه الخَصلـةُ قـدِ امْتَـدَّت عـروقُ ضـلالِهـا فـي أودِيـةِ قُلـوبِ جَهَلَـةِ المُسلِميـنَ ، وزادوا فـي الغُلُـوِّ بِهـا عَلـى مـا كـانَ عَلَيْـهِ جـاهِلِيَّـةُ العـربِ والكِتابِيِّينَ.

ولا بِدْعَ مِن حكيم بن حزامٍ القريشيِّ الأسديِّ إذا ما ردَّ على مَن قال له:

---

(١) دار الندوة: دار بناها قصي بن كلاب ، وكانت قريش تأتمر فيها ، حيث كانوا يتيامنون بأمره ، «فما تنكح امرأة ، ولا يتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواءً لحربٍ قوم من غيرهم إلا في داره ، يعقد لهم بعض ولده ، وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره ، يشق عليها من درعها ، ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها ، فكان أمره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبع».
«مختصر سيرة ابن إسحاق» لابن هشام (١/ ١٢٥) ، وانظر: «تاريخ مكة» للأزرقي (٢/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣) ، «أخبار مكة» للفاكهي (٣/ ٣١٠ ـ ٣١١) ، «المنمق في أخبار قريش» لابن حبيب (ص ٣٢ ـ ٣٤) ، «جمهرة نسب قريش» للزبير بن بكار (١/ ٣٥٤).

(٢) في المخطوط «ذهب».

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ١٨٦) ح ٣٠٧٣ ، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٨٤): «رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن».

بِعتَ مَكْرُمَةَ قريشٍ؛ وقد باعها مِن مُعاويَةَ بمائةِ ألفِ دِرهَمٍ: «ذهبت المَكارمُ إلاَّ التَّقوى».

كيف لا وقد كان عاقلاً سَرِيّاً ، فاضلاً تَقِيّاً ، سَيِّداً بمالِهِ غَنِيّاً ، أعتَقَ في الجاهِلِيَّةِ مائةَ رَقَبَةٍ ، وَحَمَلَ على مائةِ بَعِيرٍ ، وحَجَّ في الإسلامِ ومعه مائةُ بَدَنَةٍ قد جَلَّلَها بالحَبِرَةِ ، وَكَفَّها عن أعجازِها ، وأهداها ، وَوَقَفَ بمائةِ وَصيفٍ بعرفةَ في أعناقِهِم أطواقُ الفِضَّةِ مَنْقوشٌ فيها: «عتقاءُ اللهِ عن حكيم بن حِزامٍ» ، وأهْدَى ألفَ شاةٍ ، وهو الَّذي عاشَ في الجَاهِلِيَّةِ سِتِّينَ سَنَـةً ، وفي الإسلام ستِّينَ سَنَةً ، وَوُلِدَ في الكَعْبَةِ[1].

* * *

(١) انظر: «تهذيب الكمال» (٧/ ١٧٠ ـ ١٩٢) ، «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٤ ـ ٥١).

الحادية والثمانون

الفَخْرُ بِالأحسابِ.

الثانية والثمانون

الاسْتِسْقاءُ بالأنواءِ.

الثالثة والثمانون

الطَّعْنُ في الأنسابِ.

الرابعة والثمانون

النِّياحَةُ.

أقولُ: هذه المسائلُ الأربعُ دليلُ بُطلانِها حديثٌ واحدٌ ، وهو ما رواه البخاريُّ ومُسلِمٌ[1] ، واللفظُ لمسلمٍ ، بسنده إلى أبي مالكٍ الأشعَريِّ: أنَّ النَّبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم حَدَّثَه قال: «أربعٌ في أُمَّتي من أمرِ الجاهِلِيَّةِ لا يترُكونَهُنَّ: الفخرُ في الأحساب ، والطَّعنُ في الأنسابِ ، والاسْتِسْقاءُ

(١) كتاب الجنائز ـ باب التشديد في النياحة ـ (٢/ ٦٤٤) ح ٩٣٤ .

بالنُّجومِ ، والنياحة» وقال: «النَّائحَةُ[1] إذْ لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِها ، تُقامُ يومَ القِيامةِ وعليها سربالٌ مِنْ قَطِرانٍ ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ».

الفخرُ في الأحسابِ: افتخارُهُمْ بِمَفَاخِرِ الآباءِ.

والطَّعْنُ في الأنسابِ: إدخالُهم العيبَ في أنسابِ النَّاسِ؛ تَحْقيراً لآبائِهِمْ ، وتَفضيلاً لآباءِ أنْفُسِهِم على آباءِ غيرِهم.

والاسْتِسْقاءُ بِالنُّجومِ: اعْتِقَادُهُم نُزولَ المَطَرِ بِسُقوطِ نَجْمٍ في المغربِ مع الفجر ، وطلوع آخرَ يُقابلُهُ مِن المشرقِ ، فقد كانوا يَقولونَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كذا ، وقالَ ـ تعالى ـ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾[2].

وهذا مُفَصَّلٌ في كُتُبِ الأنْواءِ[3] بِما لا مَزيدَ عَلَيْهِ.

وَمَعْنَى قولِهِ في النَّائِحَةِ: «وعليها سِرْبالٌ مِنْ قَطرانٍ»: أنَّ اللهَ ـ تَعالى ـ يُجازيها بِلِباسٍ مِنْ قَطرانٍ؛ لأنَّها كانت تَلْبَسُ الثِّيابَ السُّودَ.

وَقَولُهُ: «دِرْعٌ مِن جَرَبٍ» ، يعني: يُسَلَّطُ على أعضائِها الجَرَبُ والحِكَّةُ ، بحيثُ يُغَطِّي بَدَنَها تَغطيَةَ الدِّرْعِ ـ وهو القميصُ ـ لأنَّها كانت تَجْرَحُ بكلماتِها المُحرِقَةِ قُلوبَ ذَوي المُصيباتِ.

فهذا الحديثُ دَلَّ على بطلانِ ما كان عليه أهلُ الجاهِلِيَّةِ مِنْ هذهِ الخِصالِ الرَّديئَةِ.

---

(١) في المطبوع: «والناحبة، أو قال: النائحة».
(٢) الواقعة: (٨٢).
(٣) انظر: «الأنواء في مواسم العرب» لابن قتيبة ، «القول في علم النجوم» للخطيب البغدادي ، «الأنواء والأزمنة» لعبد الله بن الحسين الثقفي ، «الأزمنة وتلبية الجاهلية» لقطرب.

وَوَرَثَتُهُمُ اليومَ[1] مِنْ هذهِ الأمَّةِ ، تَجاوَزوا فيها أسلافَهُم ، وزادوا في الطَّنبورِ نغَماتٍ ، فَتَراهم يَفْتَخرون بِمَزايا آبائِهم وهُمْ بمراحِلَ عنهم ، فهذا يقول: كان جَدِّي الشيخَ الفُلانيَّ ، وهذا يقولُ: جدِّي العَالِمُ الرَّبَّانيُّ ، إلى غيرِ ذلكَ.

وكذلك الطَّعْنُ في الأنسابِ ، فهذا يقولُ: إنَّ آباءَ فلانٍ لم يَكونوا مِن العترةِ الطَّاهرةِ ، وذاك يقول: إن آباءَ فلانٍ لم يكونوا مِنْ ذَوي الأحسابِ الباهرةِ.

وكذلك الاسْتِسْقاءُ بالأنْواءِ ، ولم يعتقِدْ كثيرٌ مِنَ النَّاسِ أنَّ ما كان من فعل ربِّ الأرضِ والسَّماءِ[2].

وهكذا النَّوحُ على الأمواتِ ، فقد اتَّخَذَهُ كثيرٌ مِن النَّاسِ مِنْ أفضلِ الأعمالِ ، وسببَ الوصولِ إلى مَرضاةِ ذي الجَلالِ ، لا سيَّما مَن اتَّخذَ المآتِمَ الحُسَيْنِيَّةَ في كلِّ عامٍ؛ فهناك مِنَ البِدَعِ ما تَكَلُّ عن نَقْلِهِ ألسنةُ الأقلامِ ، والويلُ كل الويلِ لِمَنْ أنكَرَ شيئاً مِن ذلكَ ، فإنَّهم يُورِدونَه مَوارِدَ العَطَبِ والمَهالِكِ ، والأمرُ للهِ ، ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ.

* * *

---

(١) في المطبوع: «وورثهم اليوم طائفة».

(٢) في المطبوع «أن ما كان إنما هو من فعل رب الأرض والسماء» وقد وُضعت «إنما هو» بين حاصرتين [ ]، علامة على أنها زيادة.

الخامسة والثمانون

تعْيِيرُ الرَّجُلِ بِفِعْلِ غَيرِهِ ، لا سيَّما أبوه وأمُّه.

فَخالَفَهم ﷺ ، وقالَ: «أعَيَّرْتَهُ بأمِّهِ؟ إنَّكَ امرؤٌ فيكَ جاهِلِيَّةٌ».

والحديثُ في صحيحِ الإمامِ البخاريِّ في بابِ «المعاصي مِن أمرِ الجاهِلِيَّةِ ، ولا يَكْفُرُ صاحبُها بارْتِكابِها إلاَّ بالشِّرْكِ لِقولِ النبي ﷺ: «إنَّك امرؤٌ فيكَ جاهِلِيَّةٌ» ، وقولِ اللهِ - تعالى - في النِّساءِ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾».

وهذا البابُ في كتابِ الإيمانِ من صحيحِه ، ثُمَّ قالَ: «حَدَّثَنا سُليمانُ ابنُ حَرْبٍ ، قالَ: حَدَّثَنا شُعْبَةُ عن واصِلٍ عن المَعْرورِ ، قال: لَقِيْتُ أبا ذَرٍّ بالرَّبَذَةِ[1] ، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ وعلى غلامِهِ حُلَّةٌ ، فسألْتُهُ عن ذلكَ ، فقالَ: «إني سابَبْتُ رَجلاً ، فَعَيَّرْتُهُ بأمِّهِ ، فقالَ لي النَّبيُّ ﷺ: «يا أبا ذرٍّ ، أعَيَّرْتَهُ بأمِّهِ؟! إنَّكَ امرؤٌ فيكَ جاهِلِيَّةٌ ، إخوانُكُمْ خَوَلُكُم ، جَعَلَهُمُ اللهُ - تعالى - تحتَ أيديكم ، فمَن كان أخوه تحتَ يدِهِ ، فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يأكلُ ، ولْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ ، ولا تكلِّفوهُم ما يغلِبُهم ، فإن كَلَّفْتُموهم ، فأعينوهم»[2].

---

(١) الربذة: بفتح الراء والباء ، قرية من قرى المدينة النبوية ، قريبة من ذات عرق. انظر: «معجم البلدان» لياقوت الحموي (٣/ ٢٤).

(٢) سبق تخريجه.

وقد أطْنَبَ شُرَّاحُ الحديثِ في شرحِهِ ، وليس هذا موضعَ اسْتقصائِهِ ، والمقصودُ منهُ أن تَغْييرَ الرَّجُلِ بِفعْلِ غيرِه ليس من شأنِ كاملِ الإيمانِ والمعرفةِ ، فإنَّ أبا ذرٍّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ قَبْلَ بُلوغِهِ المَرْتَبَةَ القُصْوى مِنَ المعرفةِ تَسابَّ هو وبلالٌ الحَبَشيُّ المُؤَذِّنُ ، فقالَ لَهُ: «يا ابنَ السَّوداءِ» ، فَلَمَّا شَكا بلالٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ قال لَهُ: «شَتَمْتَ بِلالاً ، وَعَيَّرْتَهُ بسوادِ أمِّهِ؟!» ، قال: «نَعَمْ» ، قالَ: «حَسِبْتُ أَنَّهُ بَقِيَ فيكَ شَيءٌ مِن كِبْرِ الجاهِلِيَّةِ» ، فَألقَى أبو ذرٍّ خَدَّهُ على التُّرابِ ، ثُمَّ قال: «لا أرْفَعُ خَدِّي حتَّى يطأ بلالٌ خَدِّي بِقَدَمِهِ» .

والنَّاسُ اليومَ ـ والأمرُ للهِ ـ قد كَثُرَت فيهم خصالُ الجاهِلِيَّةِ ، فَتَراهم يَعَيِّرونَ أهلَ البلدِ كلَّهم بِما صَدَرَ عن واحدٍ مِنهم ، فأينَ ذلكَ مِن خصالِ الجاهِلِيَّةِ؟!

* * *

السادسة والثمانون

الافْتِخارُ بِولايَةِ البيتِ.

فَذَمَّهم اللهُ ـ تعالى ـ بقولِهِ: ﴿ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾.

وهذه الآيةُ في سورةِ المؤمنينَ، وهي بتمامِها قولُه ـ تَعالى ـ: ﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ۝٦٦ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴾[1].

ومَعْنى الآيةِ على ما في التَّفسيرِ:

﴿ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾: تعليلٌ لقوله قَبلُ: ﴿ لَا تَجْـَٔرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴾، أيْ: دَعوا الصُّراخَ، فَإِنَّهُ لا يمنعُكم مِنَّا، وَلا يَنْفَعُكم عِندنا، فقدِ ارْتَكَبْتُم أمراً عظيماً وإثماً كبيراً، وهو التَّكذيبُ بالآياتِ، فلا يدفعُه الصُّراخُ، فكنتم عند تلاوتِها:

﴿ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴾، أيْ: مُعْرِضونَ عن سماعِها أشدَّ الإعراضِ، فَضْلاً عن تصديقِها والعملِ بِها، النُّكُوصُ: الرُّجوعُ، والأعقابُ: جمعُ عَقِبٍ وهو مُؤَخَّرُ الرِّجْلِ، ورجوعُ الشَّخصِ على عَقِبِهِ: رجوعُه في طريقِ الأوَّلِ، كما يقال: رَجَعَ عَوْدَه على بَدْئِهِ.

---

(١) المؤمنون: (٦٦ ـ ٦٧).

﴿مُسۡتَكۡبِرِينَ بِهِۦ﴾ ، أيْ: بالبيتِ الحرامِ ، والباءُ لِلسَّبَبِيَّةِ ، وسُوِّغَ بهذا الإضمارُ مَعَ أنَّهُ لم يَجْرِ اشتهار استكبارِهِم وافتخارِهم بأنَّهم خُدَّامُ البيتِ وقُوَّامُهُ.

﴿سَٰمِرًا﴾ ، أيْ: تَسْمُرونَ بذكرِ القرآنِ والطَّعنِ فيه ، وذلكَ أنَّهم كانوا يَجتمعون حولَ البيتِ يَسْمُرون ، وكانت عامَّةُ سَمَرِهم ذكرَ القرآنِ ، وتسميتَه سِحْراً أو شعراً.

و﴿تَهۡجُرُونَ﴾ مِنَ الهَجْرِ ـ بفتح فسكون ـ ، بمعنى القطعِ والتَّركِ ، والجملةُ في موضعِ الحالِ ، أيْ: تاركينَ الحَقَّ والقرآنَ أو النَّبِيَّ ﷺ على تقديرِ عودِ الضميرِ ﴿بِهِۦ﴾ له ، وجاءَ الهَجْرُ بمعنى الهَذَيانِ ، وَجُوِّزَ أنْ يكونَ المَعْنى عليه ، أي: تَهْذونَ في شأنِ القرآنِ أو النَّبيِّ ﷺ أو أصحابِهِ ، أو ما يَعُمُّ جميعَ ذلكَ ، وَيَجوزُ أنْ يكونَ من الهُجْر ـ بضم فسكون ـ وهو الكلامُ القَبيحُ.

فأنكرَ اللهُ ـ تعالى ـ عليهم بقولِهِ: ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ لِيَعْلَموا ـ بما فيه من وُجوه الإعجاز ـ أنَّهُ الحَقُّ من ربِّهم ، فَيُؤمنوا به ، ﴿أَمۡ جَآءَهُم مَّا لَمۡ يَأۡتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ، أيْ: بَلْ جاءَهُمْ. . . إلخ.

والمقصودُ أنَّ من خصالِ الجاهليَّةِ التَّكَبُّرَ بسببِ الرِّئاسةِ على المواضِعِ المُقَدَّسَةِ ، كما هو ـ اليومَ ـ حالُ كثيرٍ ممَّن يَدَّعي الشَّرَفَ بسببِ ذلكَ ، فمِنهم مَنِ ادَّعى الشَّرَفَ على المُسلِمينَ بسببِ رِئاسَتِهِ على مكَّةَ والمدينةِ ، ومِنهم مَنِ ادَّعاه بسببِ الرِّئاسةِ في المَشاهدِ أو مقاماتِ الصَّالحينَ ، وهؤلاءِ الذين يَدَّعونَ انتِسابَهم إلى عبدِ القادر الجِيلي في بغدادَ يَدَّعون الشَّرَفَ بسببِ رئاستِهم على قبرِ عبدِ القادر ، واستيلائِهم على النُّذورِ والصَّدَقَاتِ والذَّبائح والقرابينِ الشِّرْكيَّةِ ، التي يَتَعَبَّدُها جَهَلَةُ المُسلِمين مِنَ الهُنودِ والأكْرادِ ونحوِهِمْ ، وهُمْ أفْسَقُ خَلْقِ اللهِ ، وأدْنؤهم نَفْساً ، وأرْذَلَ

خَلْقِ اللهِ مَسْلَكاً ، فما يفيدُهم ذلك عند اللهِ شَيْئاً ، وما يُنْجيهم مِنْ مَقْتِ اللهِ وعذابِهِ ، وإنْ ظَنَّ بِهِمُ العَوَامُّ ما ظَنُّوا ، فَهم عند اللهِ وعند عِبادِهِ الصَّالحينَ أحقرُ من الذَّرِّ ، وأبعدُ عن رحمتِهِ يومَ القيامةِ.

* * *

السابعة والثمانون

الافْتِخارُ بِكَوْنِهِم مِنْ ذُرِّيَّةِ الأنبياءِ عليهم السلام.

فَرَدَّ اللهُ عليهم بقولِهِ: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

هذه الآيةُ في آخِرِ الجُزْءِ الأوَّلِ من سورةِ «البقرةِ»، وتفسيرُها:

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ﴾: الإشارةُ إلى إبراهيمَ عليه السلام وأولادِهِ في قولِهِ: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ... ﴾[2] إلخ.

والأُمَّةُ أَتَتْ لِمَعانٍ، والمرادُ بها ـ هنا ـ الجَماعةُ، مِن «أَمَّ»، بمعنى قَصَدَ، وَسُمِّيَتْ كُلُّ جماعةٍ يَجْمَعُهُم أمرٌ ما: إمَّا دِينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ، بذلك؛ لأنَّهم يَؤُمُّ بعضُهم بعضاً، وَيَقْصِدُهُ.

والخُلُوُّ: المُضِيُّ، وأصلُه الانفرادُ.

﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾، والمَعْنى: إنَّ انتِسابَكم إليهم لا يوجِبُ انتفاعَكم بأعمالِهم، وإنَّما تَنْتَفِعونَ بموافقتِهم واتِّباعِهم، كما قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «يا مَعْشَرَ قُرَيشٍ! إنَّ أَوْلى النَّاسِ بالنَّبِيِّ:

---

(١) البقرة: (١٤١).

(٢) البقرة: (١٣٠).

المُتَّقونَ ، فَكونوا بِسَبيلٍ مِنْ ذلِكَ ، فانظُروا أنْ لا يَلقاني النَّاسُ يَحْمِلونَ الأعمالَ ، وتَلْقَوني بالدُّنيا ، فَأَصُدَّ عنكم بوجْهِي»[1] .

وهذا الحديثُ بمعنى قولِهِ ـ تعالى ـ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[2] .

ومَعْنى قولِهِ: ﴿ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ ، لا تُؤاخَذونَ بِسَيِّئاتِهِم كما لا تُثابونَ بِحسناتِهِم .

وهذه الخَصلةُ موجودةٌ اليومَ في كثيرٍ مِن المُسلمينَ ، ورأسُ مالِهِم الافتخارُ بالآباءِ ، فَمِنهم مَن يقولُ: أنا من ذُرِّيَّةِ عبدِ القادرِ الكيلانيِّ، ومِنهم مَن يقولُ: أنا مِن ذُرِّيَّةِ أحمدَ الرِّفاعيِّ ، ومِنهم مَن يقولُ: أنا بكريٌّ ، ومنهم من يقول: أنا عُمَريٌّ ، ومنهم من يقول: أنا عَلَويٌّ أو حَسَنِيٌّ أو حُسَيْنِيٌّ ، ولا فضيلةَ لهم ولا تَقْوى ، وكلُّ ذلك لا ينفعُهم يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلَّا مَنْ أتى اللهَ بقلبٍ سَليمٍ ، ورسولُ اللهِ صلى الله تعالى عليه وسلم يقول لفاطمةَ: «يا فاطمةُ بنتَ محمَّدٍ ، لا أُغني عنكِ مِن اللهِ شَيْئاً»[3] .

وما قَصْدُ أولئكَ المُفْتَخِرينَ بآبائِهِم ـ وهم عارونَ عن كُلِّ فضيلةٍ ـ إلَّا أكلُ أموالِ النَّاسِ بالباطِلِ ، وفي المثل: «كُنْ عِصامِيّاً ، ولا تكُنْ عِظامِيّاً» .

إنَّ الفَتَى مَنْ يقولُ ها أنا ذا   لَيْسَ الفَتَى مَنْ يَقولُ كانَ أبي[4]

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «المفاريد» (ص ٩٢) ، وابن أبي حاتم ، عن الحكم بن ميناء ، كما في «الدر المنثور» (٢/ ٤٢).

(٢) الحجرات: (١٣).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» ـ كتاب الوصايا ـ باب هل يدخل النساء والأولاد في الأقارب ـ(٣/ ١٩٠ ـ ١٩١) ، ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ ـ(١/ ١٩٢ ـ ١٩٣) ح ٢٠٦.

(٤) البيت في «ديوان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب» (ص ٣٧). وذكره الحموي في =

ولله دَرُّ مَن قالَ يَـرُدُّ على المفتخِرِ بِذلك:

أقـولُ لِمَـن غَـدا فـي كُـلِّ يـومٍ يُبـاهينـا بـأسـلافٍ عِظـامِ
أتَقْنَـعُ بـالعِظـامِ وأنـتَ تَـدْري بـأنَّ الكَلـبَ يَقْنَـعُ بـالعِظـامِ

وقالَ آخَرُ[1]:

وما الفَخْـرُ بالعَظْـمِ الرَّميـمِ وإنَّما فخـارُ الـذي يَبْغـي الفَخـار بِنَفْسِـهِ

* * *

= «خزانة الأدب» (٢/ ٣٦٠)، وابن كثير في «البداية والنهاية» (١١/ ١٠٤)، والأبشيهي في «المستظرف من كل فن مستطرف» (١/ ٥٧)، والجريري في «الجليس الصالح» (١/ ٥٢٥)، وابن مفلح في «الآداب الشرعية» (١/ ٢١٥)، والشريسي في «شرح مقامات الحريري» (٣/ ٤٣) واليوسي في «المحاضرات في الآداب واللغة» (١/ ٦٤) ولم يعزوه.

(١) هو البحتري، كما في «شرح ديوان المتنبي» المنسوب للعكبري (٣/ ٣٢٥)، ولم أجده في ديوانه، والله أعلم.

الثامنة والثمانون

الافْتِخارُ بِالصَّنائِعِ ، كَما افْتَخَرَ أهلُ الرحلتَينِ على أهلِ الحَرْثِ.

يُريدُ بِالرَّحْلَتَينِ: رِحْلَةَ الشِّتاءِ إلى اليَمَنِ ، وَرِحْلَةَ الصَّيفِ إلى الشَّامِ ، وَهِيَ عادَةٌ كانتْ لِقُرَيشٍ ، كَما ذُكِرَ في سورةِ الإِيلافِ.

والمقصودُ أنَّه لا يَنبغي للتَّاجِرِ أنْ يَفْتَخِرَ بِتجارتِهِ على أهلِ الحرث ، ولا أهلِ كلِّ حِرْفَةٍ على المُحْتَرِفينَ بِحِرْفَةٍ أُخْرى ، فإنَّ كُلَّ ذلكَ مِنَ المكاسبِ الدُّنْيَوِيَّةِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى عِبادةِ اللهِ وطاعتِهِ وامتثالِ أوامرِهِ واجتنابِ نواهِيهِ؛(١) لِيُتَوَصَّلَ بِذٰلِكَ إلى النَّجاةِ الأبديَّةِ ، وهي مدارُ الفخرِ ، وأمَّا ما سِوَى ذلك فَكُلُّهُ ظِلٌّ زائِلٌ ونَعيمٌ غيرُ مُقيمٍ ، فلا يَنْبغي لِلعاقِلِ أنْ يَفْخَرَ بِزَخارِفِ الدُّنيا الدَّنيئَةِ ، ولا يَعْلَمُ مَتى يُفارِقُها ، نَسألُهُ - تعالى - التوفيقَ والعملَ الصالحَ الذي يُرضِيهِ.

* * *

(١) في المخطوط «والاجتناب عن نواهيه».

التاسعة والثمانون

عَظَمَةُ الدُّنيا في قُلوبهم:

كَقَولِهِم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ[1] هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

أيْ: مِن خِصال الجاهِلِيَّةِ مُراعاةُ الدُّنيا، وعَظَمَتُها في قُلوبِهم، كَما حَكى اللهُ عنهم ذلكَ بِقولِهِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ[2] هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[3].

هذه الآيةُ في سورةِ «الزُّخْرُفِ»، وَمَوْضِعُ الاسْتِشهادِ فيها قولُه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ[4] هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

المُرادُ مِنَ القَريتينِ: مكَّةُ والطَّائِفُ.

قال ابنُ عبَّاسٍ: «الذي مِنْ مكَّةَ: الوليدُ بنُ المُغيرةِ المَخزوميُّ، والذي مِنَ الطَّائفِ: حَبيبُ بنُ عمرِو بنِ عُمَيرٍ الثَّقَفِيُّ، وكُلٌّ مِنهما كانَ عظيماً، ذا

---

(١) في المخطوط والمطبوع «أنزل»، وهو خطأ.
(٢) في المخطوط والمطبوع «أنزل» وهو خطأ.
(٣) الزخرف: (٣٠ ـ ٣٢).
(٤) في المخطوط والمطبوع «أنزل»، وهو خطأ.

جاهٍ ومالٍ ، وكان الوليدُ بنُ المغيرةِ يُسَمَّى «رَيْحانةَ قريشٍ» ، وكانَ يقولُ: لو كانَ ما يقولُ محمَّدٌ حقّاً لَنَزَلَ عليَّ أو على أبي مَسعودٍ ، يعني عُروةَ بنَ مسعودٍ ، وكان يُكْنى بذلكَ»[1] .

وهذا بابٌ آخَرُ من إنكارِهِم للنُّبُوَّةِ ، وذلكَ أنَّهم أنكَروا أوّلاً أنْ يكونَ النَّبيُّ بَشَراً ، ثُمَّ لَمَّا بُكِّتوا بِتكريرِ الحُجَجِ ، ولم يَبْقَ عندهم تصوُّرُ رَواجٍ لِذلِكَ ، جاؤوا بالإنكارِ مِنْ وجْهِ آخَرَ ، فَحَكَموا على اللهِ ـ سُبْحانه ـ أنْ يَكونَ الرَّسولُ أحَدَ هذينِ .

وقولُهُم: ﴿ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ : ذكْرٌ لهُ على وَجهِ الاسْتِهانَةِ ؛ لأنَّهم لم يُقولوا هذهِ المَقالَةَ تسليماً ، بَل إنكاراً ، كَأنَّه قيلَ: هذا الكذبُ الذي يَدَّعيه ، لَو كانَ حَقّاً ، لكانَ الحَقيقَ به رجلٌ مِن القَريتَينِ عَظيمٌ.

وهٰذا منهم لِجَهْلِهِم بِأنَّ رُتبةَ الرِّسالةِ إنَّما تَستدعي عظيمَ النَّفسِ بالتَّخَلّي عن الرَّذائلِ الدَّنِيَّةِ ، والتَّحَلّي بِالكمالاتِ والفَضائلِ القُدْسيَّةِ ، دونَ التَّزَخْرُف بالزَّخارِفِ الدُّنْيَوِيَّةِ .

فَأنكَرَ ـ سُبحانَه ـ عَلَيْهم بِقولِهِ: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ ﴾ ، وفيهِ تَجْهيلٌ وَتَعْجيبٌ مِن تَحَكُّمِهِم بِنزولِ[2] القرآنِ العظيمِ على مَنْ أرادوا .

﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ ﴾ قِسمةً تَقْتَضيها مشيئَتُنا المَبْنِيَّةُ على الحِكَمِ والمَصالحِ ، ولم نُفَوِّضْ أمرَها إلَيهم ، وعِلْمًا مِنّا بعَجْزِهِم عَنْ تَدبيرِها بالكُلِّيَّةِ .

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرِّزْقِ وسائرِ مبادىء العَيْشِ .

---

(١) أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه بنحوه عنه ، كما في «الدر المنثور» (٦/ ١٦).

(٢) في المخطوط «نزول».

﴿ دَرَجَٰتٍ ﴾ مُتَفاوِتَـةً بِحَسَبِ القُربِ والبُعدِ حَسْبَما تَقتضيه الحِكْمَةُ ، فَمِن ضعيفٍ وقويٍّ ، وَغَنيٍّ وفقيرٍ ، وخادِمٍ ومخدومٍ ، وحاكِمٍ ومحكومٍ .

﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ : لِيَسْتعملَ بعضُهم بعضاً في مصالِحِهم ، وَيَسْتَخدِموهم في مِهَنِهم ، وَيُسَخِّروهم في أشغالِهم ، حَتَّى يَتَعايَشوا ، ويَتَرافَدوا ، وَيَصِلوا إلى مرافِقِهم ، لا لكمالٍ في المُوَسَّع عَلَيه ، ولا لِنَقْصٍ في المُقَتَّرِ عَلَيْه ، وَلَوْ فَوَّضْنا ذلكَ إلى تدبيرِهِم لَضاعوا وَهَلَكوا ، فإذا كانوا في تدبيرِ خُوَيْصَةِ أمرِهم وما يُصْلِحُهُم مِن مَتاع الدُّنيا الدَّنِيَّةِ وهو على طَرَفِ الثُّمام[1] بهذهِ الحالةِ ، فما ظَنُّهم بِأنْفُسِهِم في تدبيرِ أنفسِهم[2]، وفي تدبير أمرِ الدِّيْنِ ، وهو أبعدُ مِن مَناطِ العَيُّوقِ ، ومِنْ أينَ لهمُ البحثُ عن أمرِ النُّبُوَّةِ والتَّخَيُّرِ لها مَنْ يَصْلُحُ لها ويقومُ بأمرِها .

وفي قولِهِ ـ تَعالى ـ: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا . . . ﴾ إلخ ما يُزَهِّدُ[3] في الانكبابِ على طَلَبِ الدُّنيا ، ويُعينُ على التَّوَكُّلِ على اللهِ ـ عَزَّ وجلَّ ـ والانقطاعِ إليهِ ـ جَلَّ جلالُه ـ.

فَـاعْتَبِـرْ «نَحْـنُ قَسَمْنـا بَيْنَهُـمْ»   تَلْقَـهُ حَقّـاً وَبِـالحَـقِّ نَـزَلَ[4]

﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ؛ أيْ : النُّبُوَّةُ وَما يَتْبَعُها مِنْ سَعادةِ الدَّارَيْنِ خَيرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَهُ مِنْ حُطامِ الدُّنْيا الدَّنِيَّةِ ، فالعظيمُ مَنْ رُزِقَ تلكَ الرَّحْمَةَ دونَ ذلكَ الحُطامِ الدَّنيءِ الفاني .

---

(١) الثمام : جمع ثمامة وثُمَّة ، وهي شجرة ضعيفة ، فهو يقصد هنا أنه مع سهولة هذا الأمر الذي يشابه في ضعفه هذه الشجرة ، فإنهم لا يستطيعونه ، فكيف بما هو أشد منه وهو أمر النبوة؟!

(٢) في المخطوط «بأنفسهم».

(٣) في المطبوع «ما يزيد».

(٤) هذا البيت أحد أبيات لامية ابن الوردي ، وهي في ديوانه (ص ٣٢٨).

وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ كثيراً مِنَ النَّاسِ اليومَ على ما كانَ عليه أهلُ الجاهِلِيَّةِ في هذهِ الخَصْلَةِ ، فتَرَاهم لا يَعْتَبِرونَ العِلْمَ إذا كانَ صاحِبُهُ فقيرَ الحالِ ، ويَنْظُرونَ إلى الغنِيِّ ، ويَعْتَبرونَ أقوالَه .

وللهِ درُّ القائل(١) :

رُبَّ حِلْـمٍ أضـاعَـهُ عَـدَمُ المَـا   ل وَجَهْـلٍ غَطَّـى عَلَيْـهِ النَّعيـمُ(٢)

* * *

---

(١) في المطبوع : «من قال» .

(٢) البيت لحسان بن ثابت ـ رضي الله تعالى عنه ـ كما في «ديوانه» (ص ٢٢٥) .

التسعون

ازْدِراءُ الفُقَراءِ.

فَأَنْزَلَ ـ سُبحانَه ـ قولَه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾.

أقولُ: هذهِ الآيةُ في أوائلِ سورَةِ «الأنْعام»، وَبَيانُ مَعْناها مُتَعَلِّقٌ بِما قَبلَها، وهو قولُه ـ تَعالى ـ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

فَلمَّا أُمِرَ النَّبيُّ صلى الله تعالى عليه وسلم بِإنْذارِ المذكورِينَ لَعَلَّهم ينْتَظِمونَ في سِلْكِ المُتَّقينَ، نُهِيَ عن كونِ ذلكَ بِحَيثُ يُؤَدِّي إلى طردِهِم.

ويُفْهَم مِنْ بعضِ الرِّواياتِ أن الآيتينِ نزَلَتا معاً، ولا يُفْهَمُ ذلكَ مِنْ البعضِ الآخَرِ.

فقد أخرجَ الإمامُ أحمدُ[2] والطَّبَرانيُّ[3] وغيرُهما عن ابنِ مسعودِ

---

(١) الأنعام (٥٠ ـ ٥٢).

(٢) في «مسنده» (١/ ٤٢٠).

(٣) في «المعجم الكبير» (١٠/ ٢٦٨)، وأخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٥/ ٢٠٠ ـ ٢٠١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٤٣)، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢١): «ورجاله رجال الصحيح غير كردوس، وهو ثقة».

ـ رضي اللهُ عنه ـ قال: «مرَّ المَلأُ مِنْ قُريش على النَّبيِّ صلى الله تعالى عليه وسلم وعنده صُهَيْبٌ وعَمَّارٌ وبِلالٌ وخَبَّابٌ ونحوُهُم مِنْ ضُعَفاءِ المُسْلِمينَ ، فقالوا: يا محمَّدُ ، رَضيتَ هٰؤلاءِ مِنْ قومِك! أهولاءِ مَنَّ اللهُ عليهم مِنْ بَيْنِنا! أنَحن نكونُ تَبَعاً لِهٰؤلاءِ؟! اطْرُدْهُمْ عَنكَ ، فَلَعَلَّكَ إنْ طَرَدْتَهم أَنْ نَتَّبِعَكَ. فَأنْزَلَ اللهُ ـ تعالى ـ فيهِمُ القرآنَ: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ﴾ إلى قولِهِ ـ سبحانه ـ: ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾».

وأَخْرَجَ ابنُ جَريرٍ[1] وأبو الشَّيخِ والبَيْهَقِيُّ في «الدَّلائِلِ» وغيرُهُم عن خَبَّابٍ قال: «جاءَ الأقْرَعُ بنُ حابِسٍ التَّميميُّ وعُيَيْنَةُ بنُ حِصْنٍ الفَزارِيُّ ، فَوَجَدا النَّبيَّ صلى الله تعالى عليه وسلم قاعِداً مَعَ بِلالٍ وصُهَيبٍ وعَمَّارٍ وخَبَّابٍ في أُناسٍ ضُعَفاءَ مِنَ المؤمِنينَ ، فَلَمَّا رَأَوْهُم حَوْلَه حَقَروهُم ، فَأتَوهُ ، فَخَلَوا بِهِ ، فقالوا: نَحِبُّ أنْ تجعلَ لنا مِنْكَ مَجْلِساً تَعْرِفُ لنا العربُ بِهِ فَضْلَنا ، فإنَّ وُفودَ العَرَبِ تَأتيكَ ، فَنَسْتَحْيي أنْ تَرانا قُعوداً مَعَ هؤلاءِ الأعْبُدِ ، فَإذا نَحنُ جِئْناكَ ، فَأقِمْهُمْ عَنَّا ، فإذا نحنُ فَرَغْنا ، فاقْعُدْ معهم إنْ شِئتَ ، قالَ: نَعَمْ ، قالوا: فاكتُبْ لنا عليكَ بذلك كِتاباً ، فَدَعا بالصَّحيفةِ ، وَدَعَا عَلِيّاً لِيَكْتُبَ ـ ونحنُ قُعودٌ في ناحِيةٍ ـ ، إذْ نَزَلَ جِبْريلُ بهذهِ الآيةِ: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ. . . ﴾ إلخ.

ثُمَّ دَعانا ، فَأتَيْناهُ وهو يقولُ: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[2] ، فَكُنَّا نَقْعُدُ مَعَهُ ، فإذا أرادَ أنْ يقومَ قامَ وتَرَكَنا ، فأنزلَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ

---

(١) في «تفسيره» (٧/٢٠١): قال ابن كثير في «تفسيره» (٢/١٣٦): «وهذا حديث غريب فإن هذه الآية مكية ، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بدهر».

(٢) الأنعام: (٥٤).

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ[1] وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2] ، فكان رسولُ اللهِ ﷺ يقعدُ معنا ، فإذا بلغَ السَّاعةَ التي يقومُ فيها قمنا وتَرَكْناهُ حَتَّى يقومَ».

وَأخْرَجَ ابنُ المُنْذِرِ[3] وغيرُه عن عكرمةَ قالَ: «مَشَى عُتْبَةُ وَشَيْبَةُ ابْنا رَبيعَةَ وَقُرْظَةُ بنُ عبدِ عَمرو بنِ نَوْفَلَ ، والحارثُ بنُ عامِرِ بن نَوفَلَ ، وَمُطْعِمُ ابنُ عَدِيٍّ في أشرافِ الكُفَّارِ مِنْ عَبْدِ مَنافٍ إلى أبي طالبٍ ، فقالوا: لو أنَّ ابنَ أخيكَ طَرَدَ عَنَّا هؤلاءِ الأعْبُدَ والحُلَفاءَ ، كان أعظمَ له في صُدورنا ، وأطوعَ لـه عِنْدَنا ، وأدنى لاتِّباعنا إيّـاهُ وتَصْدِيقِه ، فَذَكَرَ ذلكَ أبو طالبٍ للنَّبيِّ ﷺ ، فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ: لَو فَعلتَ يا رسولَ اللهِ حَتَّى نَنْظُرَ ما يُريدون بِقولِهم ، وما يَصيرونَ إليه مِنْ أمرِهم ، فأنزل اللهُ ـ سُبحانه ـ: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ إلى قوله ـ سُبحانه ـ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾. وكانوا بِلالاً وعَمَّارَ بنَ ياسرٍ وسالِماً[4] مولى أبي حُذَيفةَ وصَبيحاً مولـى أسيد ، والحُلفاءُ: ابـنُ مسعودٍ والمِقْدادُ بنُ عمرو وواقدُ بنُ عبدِ الله الحَنْظَليُّ وعمرُو ابنُ عبدِ عمرٍو ومَرْثَدُ بنُ أبي مَرْثَدٍ وأشباهُهُـم ، وَنَـزَل فـي أئِمَّـةِ الكُفرِ مِـنْ قُـريشٍ والمَـوالـي والحلفـاءِ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾[5] ، فَلَمَّا نَزَلَتْ أقبلَ عُمَرُ ، فاعْتَذَرَ من مَقَالِتِه ، فَأنْزَلَ اللهُ ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾[6]».

---

(١) ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ ليست في المخطوط.

(٢) الكهف: (٢٨).

(٣) انظر: «الدر المنثور»: (٣/١٣) ، وأخرجه ـ أيضاً ـ ابن جرير في «تفسيره» (٧/٢٠٢).

(٤) في المخطوط «سالم».

(٥) الأنعام: (٥٣).

(٦) الأنعام: (٥٤).

وقولُه: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾: جملةٌ مُعتَرِضَةٌ بين النَّهي وجوابِهِ، تقريراً له، ودَفعاً لما عَسى أنْ يُتَوَهَّمَ كونُهُ مُسَوغاً لطردِ المُتَّقين من أقاويلِ الطَّاعنينَ في دينِهِم، كَدأبِ قومِ نوحٍ حيثُ قالوا: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ[1] ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْيِ﴾[2]، والمعنى: ما عليك شيءٌ ما مِنْ حسابِ إيمانِهم وأعمالِهم الباطِنة، كما يقولُه المشركونَ، حتَّى تَتَصَدَّى لَهُ، وَتَبْنِي على ذلكَ ما تراه مِن الأحكامِ، وإنَّما وظيفتُكَ - حَسْبَما هو شأنُ مَنصِبِ الرِّسالةِ - النَّظَرُ إلى ظواهِرِ الأمورِ، وإجراءُ الأحكامِ على موجَبِها، وتفويضُ البواطنِ وحسابِها إلى اللطيفِ الخبيرِ، وظواهرُ هؤلاءِ دعاءُ ربِّهم بالغداةِ والعشيِّ.

ورُوِيَ عن ابنِ زيدٍ أنَّ المعنى ما عليكَ شيءٌ مِن حسابِ رِزْقِهِم[3]، أيْ: مِن فقرِهِم، والمرادُ: لا يَضُرُّكَ فقرُهُم شيئاً لِيَصِحَّ لك الإقدامُ على ما أرادهُ المشركون مِنكَ فيهم.

وقولُهُ: ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ عطفٌ على ما قَبْلَهُ، وَجِيءَ بِهِ - معَ أنَّ الجوابَ قد تَمَّ بذلك - مبالغةً في بيانِ كونِ انتفاءِ حسابِهِم عليهِ يَنْظِمُهُ[4] في سِلْكِ ما لا شُبهةَ فيه أصْلاً، وهو كونُ انتفاءِ حسابِهِ ﷺ عَلَيْهم، فهو على طريقةِ قولِهِ - سُبْحانَه -: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[5] في رأيٍ.

---

(١) في المخطوط «ما نراك».
(٢) هود: (٢٧).
(٣) «روح المعاني» (٧/ ١٦٠).
(٤) في المخطوط «بنظمه» وما أثبته من المطبوع، وهو الموافق لما في «روح المعاني» الذي نقل عنه المؤلف.
(٥) الأعراف: (٣٤)، النحل: (٦١).

وقال الزَّمَخْشَرِيُّ: «إنَّ الجُملَتَينِ في مَعنى جملةٍ واحدةٍ تُؤَدِّي مُؤَدَّى ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1]، كَأَنَّهُ قيلَ: لا تؤاخَذُ أنتَ ولا هُمْ بِحسابِ صاحِبِهِ، وحينئذٍ لا بدَّ مِنَ الجُملَتَيْنِ»[2]، وَتُعُقِّبَ بأَنَّهُ غيرُ حَقيقٍ بجلالَةِ التَّنْزيلِ[3].

وقولُهُ: ﴿فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ جَوابٌ للنَّهْيِ.

* * *

(١) الأنعام: (١٦٤)، الإسراء: (١١٥)، فاطر: (١٨)، الزمر: (٧).
(٢) «الكشاف» للزمخشري (٢/ ١٧).
(٣) انظر: «البحر المحيط» (٤/ ١٣٧ ـ ١٣٨).

الحادية والتسعون

عَدمُ الإيمانِ بملائكةِ الله وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ واليومِ الآخرِ.

والكلامُ على ذلكَ مُفَصَّلٌ في التَّفسيرِ وكُتُبِ الحَديثِ والعقائِدِ.

والآياتُ في ذلكَ كثيرةٌ ، مِنْها قولُهُ ـ تعالى ـ: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾(١).

وَمِنَ الشِّعْرِ الجَاهِلِيِّ في إنكارِ البَعْثِ والنُّشورِ:

وَمَاذا بِالقَليبِ قليبِ بَدْرٍ ... مِنَ الشِّيْزى تَزَيَّن بالسَّنَامِ
وَمَاذا بِالقَليبِ قَليبِ بَدْرٍ ... مِنَ القَيْناتِ والشَّرْبِ الكِرامِ
تُحَيِّيْنا السَّلامَةَ أمُّ بَكْرٍ ... فَهَلْ لِي بَعْدَ قَومي مِنْ سَلامِ
يُحَدِّثُنا الرَّسولُ بأنْ سَنَحْيا ... وكَيْفَ حَياةُ أصداءٍ وَهامِ(٢)

وقال آخرُ(٣):

---

(١) التغابن: (٧).

(٢) أخرج هذه الأبيات البخاري في «صحيحه» ـ كتاب المناقب ـ باب هجرة النبي ﷺ ـ(٤/ ٢٦٣)، وقائلها ـ كما في «الصحيح» ـ رجل من كلب، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٣٠٣) أن اسمه: أبو بكر شداد بن الأسود بن عبد شمس بن مالك بن جعونة، ويقال: ابن الشعوب، وذكر أنها تنسب لغيره، لكن بأخبار لا تثبت.

(٣) هو عبد الله بن الزبعرى السهمي، كما في «شعر عبد الله بن الزبعرى»، ونسبه ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص ٩١) إلى أبي العلاء المعري، وهو في «ديوان=

حَيَــاةٌ ثُــمَّ مَــوْتٌ ثُــمَّ نَشْــر　　حَــديــثُ خُــرافَــةٍ يَــا أمَّ عَمْــرو

وَمِنَ الآياتِ الدَّالةِ على ذلكَ قولُهُ ـ تَعالى ـ: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[1].

وَقَدْ تكَلَّمْنا عَلى مُعْتَقَداتِ الجاهِلِيَّةِ وَأدْيانِهِمْ في غَيْرِ هذا الموضعِ[2].

* * *

= ديك الجن الحمصي» (ص ٧٩) ، وعزاه الجرجاني في «الوساطة بين المتنبي وخصومه» (ص ٦٤) لأبي نواس ، ثم بصيغة التمريض نسبها لديك الجن.

(١) الصافات: (١٦ ـ ١٧) ، والواقعة: (٤٧ ـ ٤٨).

(٢) وذلك في كتابه «بلوغ الأرب».

الثانية والتسعون

الإيمانُ بالجِبْتِ وَالطَّاغوتِ ، وَتَفْضيلُ دِينِ المُشرِكينَ على دينِ المُسْلِمينَ.

قال ـ تَعالى ـ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾[1].

وقد تَقَدَّمَ الكَلامُ على ذلكَ مُفَصَّلاً.

والمقصودُ ـ هُنَا ـ أنَّ جَهَلَةَ الكِتابِيِّينَ كانوا يَقولونَ لِلمُشركينَ: أنْتُم أهْدى من المُسلِمين ، ومَا عِندَكُمْ خَيْرٌ مِمَّا عَلَيه مُحَمَّدٌ وَأصْحابُهُ.

وَتَرى المُتَصَوِّفَةَ والغُلاةَ اليومَ على هذا المَنْهَجِ ، يَقولونَ: إنَّ دُعاةَ أهلِ القُبورِ والغُلاةَ خَيرٌ مِمَّنْ يَمْنَعُ عن ذلك مِن أهلِ التَّوحيدِ وحُفَّاظِ السُّنَّةِ.

* * *

---

(١) النساء: (٥١).

الثالثة والتسعون

كِتْمانُ الحَقِّ مَعَ العِلْمِ بِهِ.

كما حَكى اللهُ ذلكَ عَن أحبارِ بَني إسرائيلَ مِنَ اليَهودِ والنَّصارى ، فَقَد كَتَموا ما وَرَدَ في كُتُبِهِمْ مِنَ البشائرِ المُحَمَّدِيَّةِ ، وَهُم يَعلَمونَ بِوُرودِها وَذِكْرِها في كُتُبِهِمْ.

والكَلامُ في هذا البابِ مُفَصَّلٌ في «الجَوابِ الصَّحيحِ»[1] لِشَيخِ الإسلامِ، فَعَلَيكَ بِهِ ، فَإِنَّهُ كِتابٌ لمْ يُؤَلَّفْ مِثْلُهُ.

* * *

---

(١) (٣/ ٢٦٣ ـ ٣٢٢).

الرابعة والتسعون

القَولُ على اللهِ بِلا عِلْمٍ.

وَهو أساسُ كُلِّ فَسادٍ وَأصْلُ الضَّلالِ.

وأكثرُ النَّاس حَظّاً مِن هذهِ الخَصلةِ الجاهلِيَّةِ مُبتَدِعَةُ المُتكَلِّمينَ ، فَقَد تَكَلَّموا في الصِّفاتِ الإِلٰهِيَّةِ بما لَمْ يُنْزِلِ اللهُ بِهَا[1] مِنْ سُلْطانٍ ، وَأوَّلوا نُصوصَ الشَّريعَةِ بِما تَهْواه أنفُسُهُم، كَما فَعَلَهُ الرَّازيُّ في كتابِهِ «أساسِ التَّقديس»[2].

وَجَزى اللهُ شيخَ الإسلام خيراً ، فقد رَدَّ عَلَيه ، وَنَقَضَ أساسَهُ ، وَسَجَّلَ ضَلالَهُ وَجَهْلَهُ ، وَضَيَّقَ أنفاسَهُ[3] ، ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[4].

* * *

(١) في المطبوع: «به».

(٢) وهو أحد كتب الأشاعرة المعتمدة ، مع مخالفة الرازي الواضحة لأصول أبي الحسن الأشعري ، وسلوكه فيه مسلك الجهمية ، وقد طبع مرات عديدة.

(٣) وذلك في كتابه «بيان تلبيس الجهمية»أو «نقض تأسيس الجهمية» ، وقد طبع منه مجلدان بتحقيق فضيلة الشيخ محمد بن عبد الرحمن بن قاسم رحمه الله تعالى ، وحقق أخيراً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية من قبل بعض طلاب الدراسات العليا.

(٤) البقرة: (٢٥١).

الخامسة والتسعون

التَّناقُضُ الواضِحُ.

قالَ ـ تَعالى ـ: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴾[1].

وَهَكَذا أهْلُ البِدَعِ مِنَ الغُلاةِ وَغَيْرِهِم يَدَّعونَ الإسلامَ، وَيَعْمَلونَ أعْمالاً تُناقِضُ ما هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ.

* * *

(١) قٓ: (٥).

والسادسة والتسعون، والسابعة والتسعون
والثامنة والتسعون، والتاسعة والتسعون، والمئة

العِيافةُ، والطَّرْقُ، والطِّيَرَةُ، والكِهانَةُ، والتَّحاكُمُ إلى الطَّاغوتِ، ونحُو ذلك:

وقد تكَلَّمْنا على هذهِ الأمورِ في كتابِنا «بُلوغِ الأرَبِ في أحوالِ العَرَبِ[1]»[2] بما لا مَزيدَ عَلَيه، وَذَكَرْنا هناكَ أوابِدَهُم وَخُرافاتِهِم وسائِرَ ضلالاتِهِم.

وَكُلُّ ذلكَ مِن أعمالِ جَهَلَةِ المُسلِمينَ اليومَ، وهم يَحْسَبونَ أنَّهم يُحْسِنونَ صُنْعاً.

وغالِبُ مسائلِ الأصلِ رؤوسُ[3] مسائلَ في كتاب «اقتضاء الصِّراطِ المُستقيمِ» وَمَنْ أرادَ التَّفصيلَ فَلْيَرْجِعْ إليه.

وَهذا آخِرُ مَا أرَدْنا شَرْحَهُ مِنَ المَسائِلِ التي أبْطَلَها الإسلامُ، والحمدُ للهِ وَلِيِّ الإنعامِ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خَيرِ الأنامِ ومِصباحِ الظَّلامِ وعلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبِعهُمْ بِإحْسانٍ إلى قِيامِ السَّاعةِ وساعةِ القِيامِ.

---

(١) اسم الكتاب «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» وهو من أنفع الكتب في هذا الباب.

(٢) (٣/ ٢٦٩ _ ٣٢٦).

(٣) في المطبوع زيادة كلمة «مباحث».

وكانَ ذلكَ في اليومِ الخامِسِ مِنْ ذِي الحِجَّةِ الحرامِ ، وهو يومُ الخميسِ بَعْدَ الظُّهرِ مِنْ سَنَةِ خَمْسٍ وَعشرينَ وَثَلاثِمائَةٍ مِنْ هِجْرَةِ النَّبيِّ - عَلَيْه أفضلُ الصَّلاةِ وأكْمَلُ السَّلامِ -.

٥ ذي الحجة سنة ١٣٢٥ هـ

وقدْ فَرَغْتُ مِن كِتابتِهِ صباحَ الجُمُعَةِ في اليومِ السابعِ والعِشرينَ مِن شهرِ شَعْبان سنةَ أربعٍ وأربعينَ وثلاثمائةٍ وألفٍ من هجرةِ خيرِ الأنامِ - عليه الصلاةُ والسلامُ - في بغدادَ دارِ السلامِ ، في جامع الحيدر خانة ، وأنا الفقيرُ إليهِ - عَزَّ شأنُهُ - عبد الكريم بن السيد عباس الشيخلي - غَفَرَ اللهُ لُهما ولجميعِ المسلمينَ.

٢٧ شعبان سنة ١٣٤٤[1]

* * *

(١) من قوله: «إلى قيام الساعة» إلى آخره ليس موجوداً في المطبوعة ، وإنما جاء في آخر المطبوعة ما نصه: «في ٥ ذي الحجة ، وهو يوم الخميس بعد الظهر من سنة ١٣٢٥ هـ».
هذا وقد تم الفراغ من تحقيقه والتعليق عليه في آخر ساعة من نهار يوم الاثنين ١٤١٦/٢/١٢ هـ ، متضرعاً بين يدي الله ألا يفضحني يوم تبلى السرائر ، وأن يغفر لي ولوالدي ولإخواني ولجميع المسلمين ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وظاهراً وباطناً ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.
ثم كان الفراغ من النظر فيه للطبعة الثانية الساعة الثامنة من صبيحة يوم السبت الموافق للسادس من شهر ربيع الآخر عام ١٤٢٤ هـ.
والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس الموضوعات

* * *